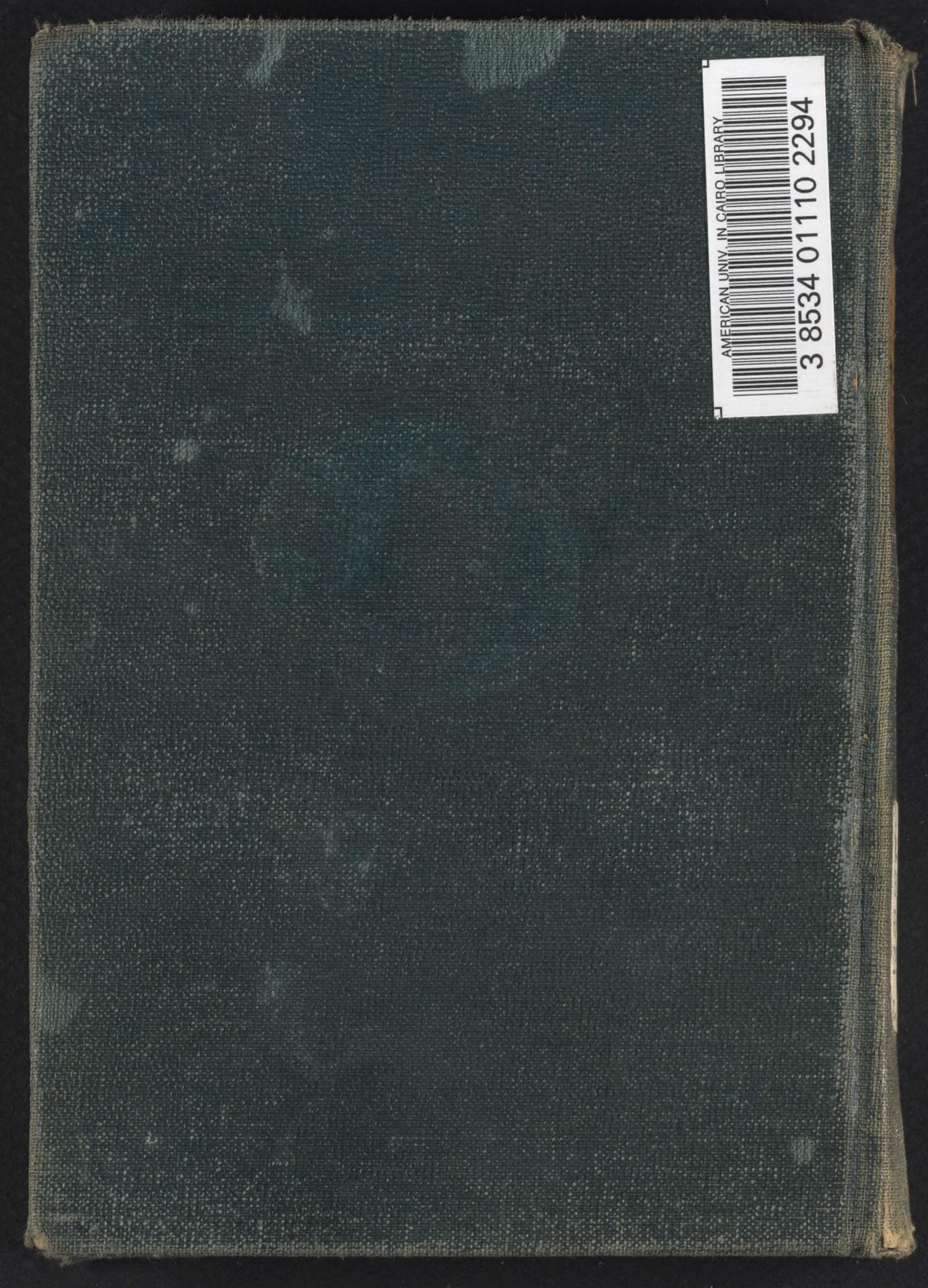
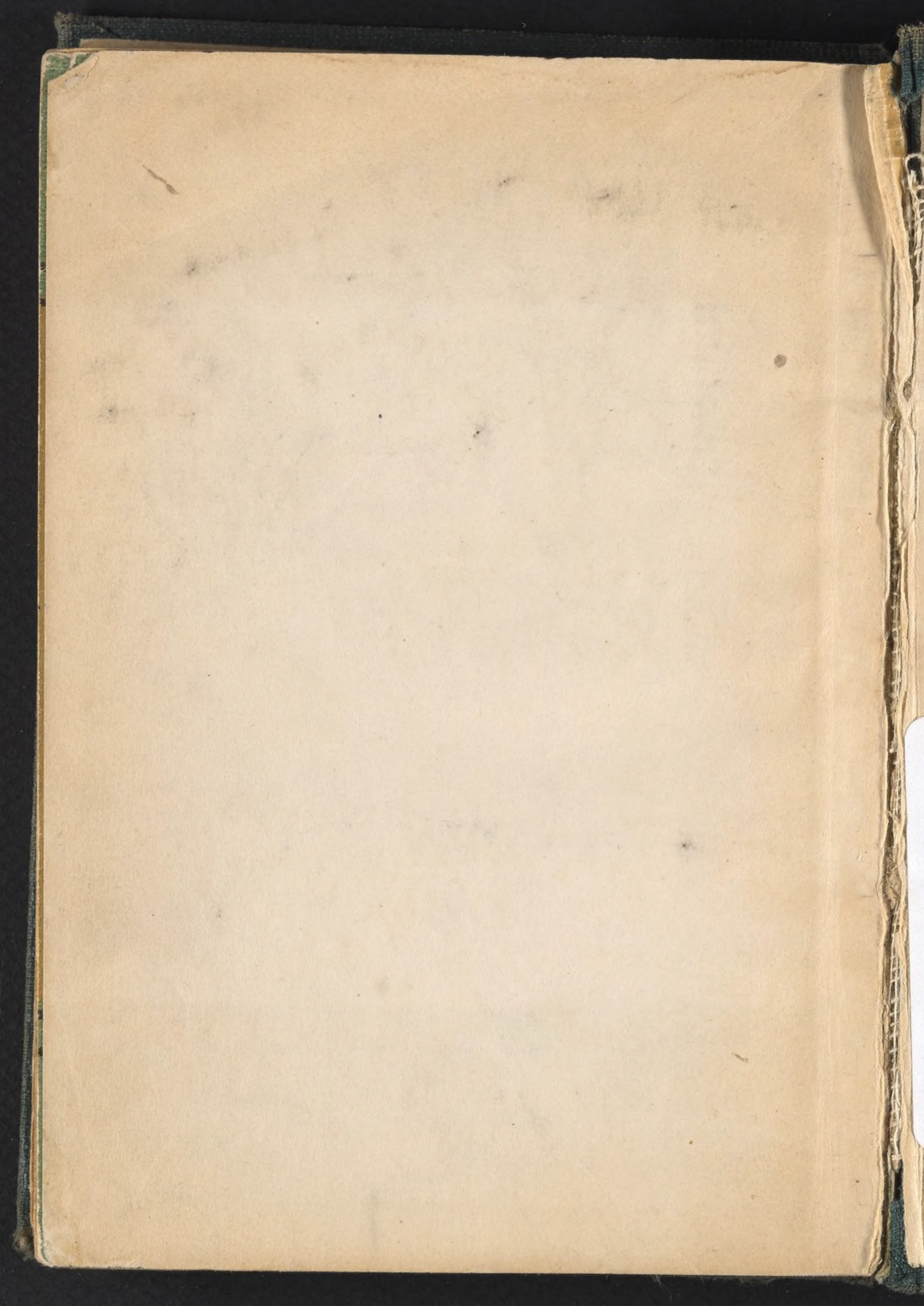
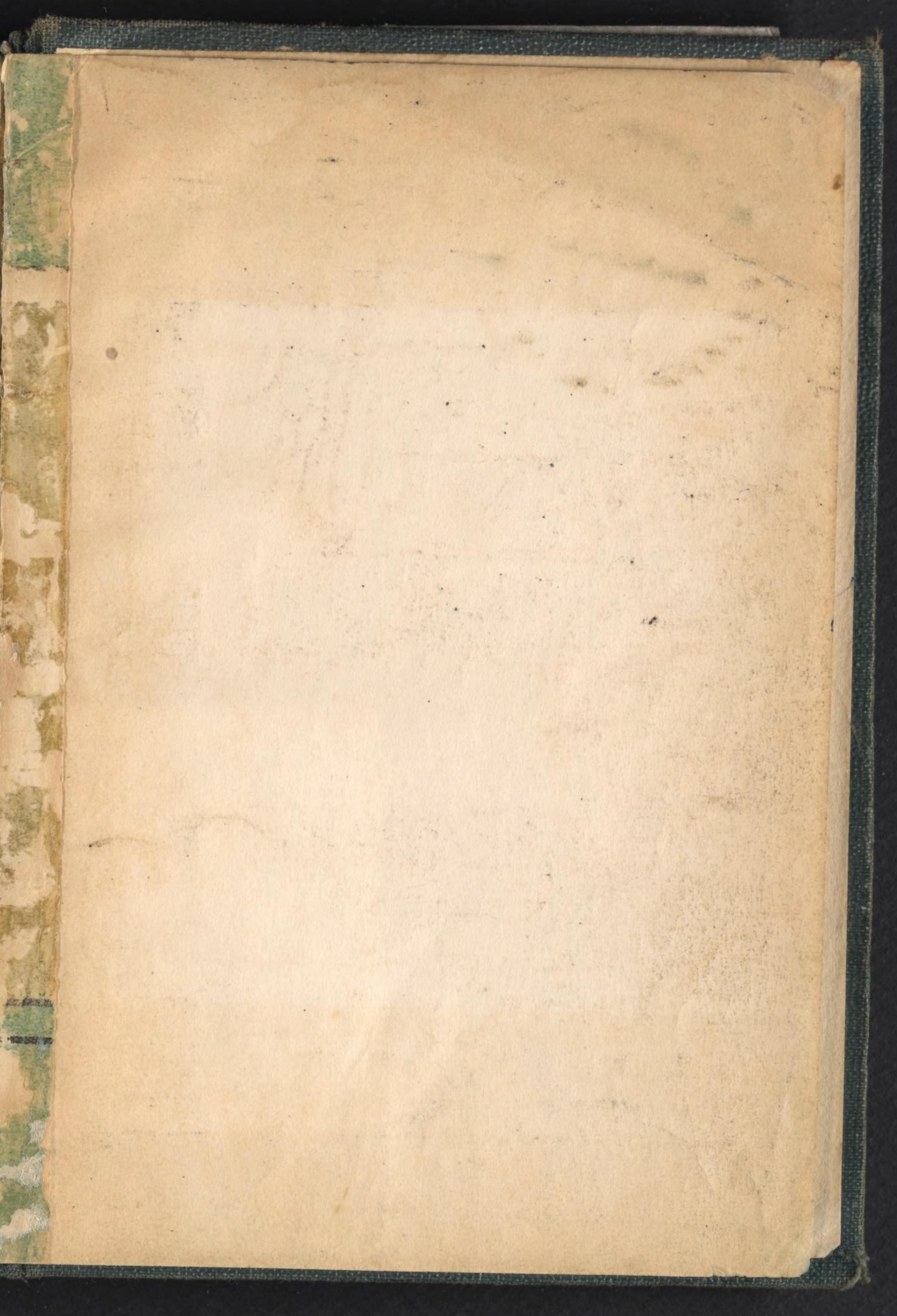






كتاب الهلال

فى الطريق

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازنى



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣٢ – صفر ١٣٧٣ – نوفمبر ١٩٥٣

No. 32 — November 1953

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال – بوستة مصر العمومية – مصر

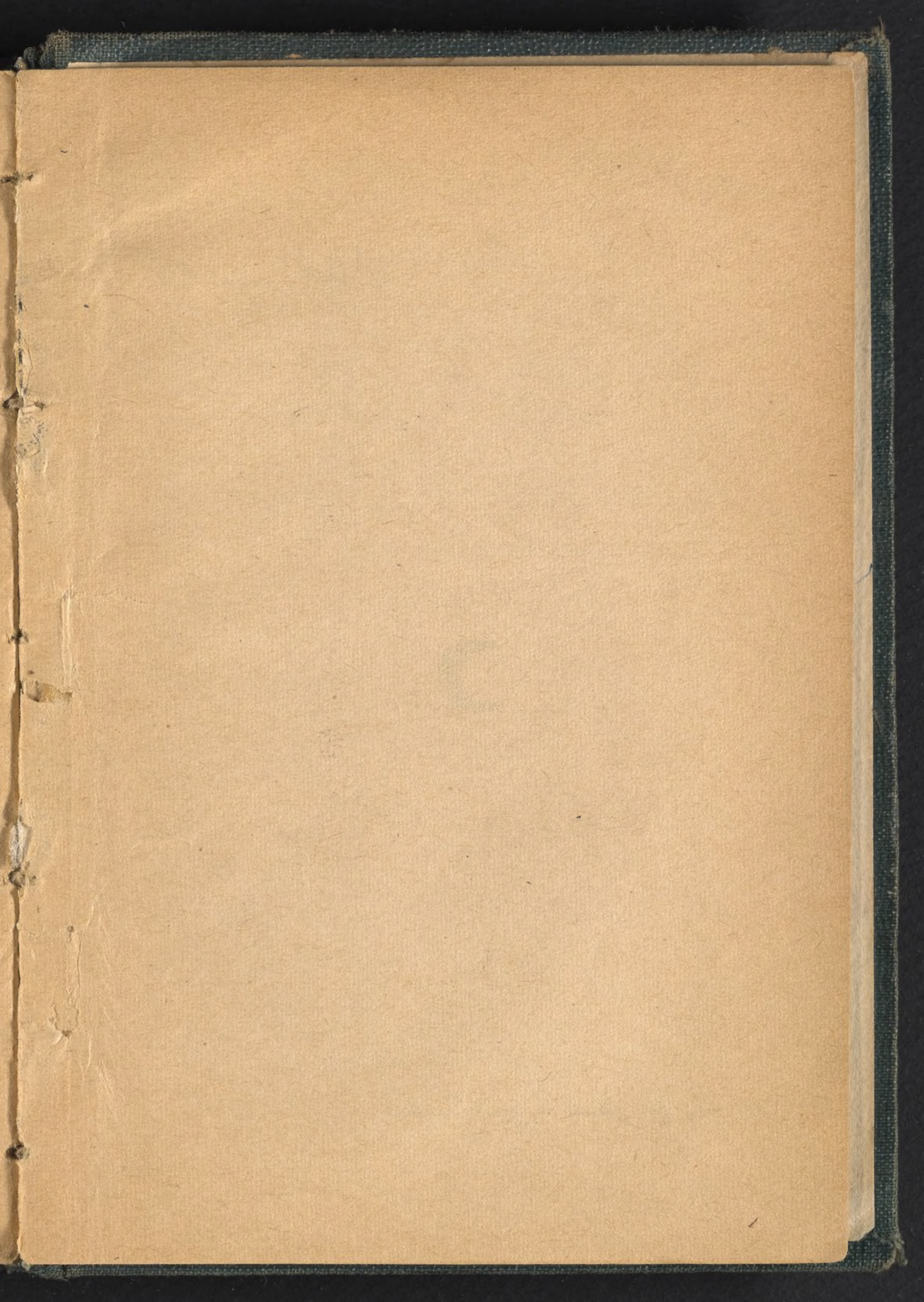
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) – مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا – سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا – الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ – فى الامريكتين ٥ دولارات – فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



فى الطريق

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازنى

الاهـــداء

الى ((حياة))

فى بعض الأحيان أكون جالسا الى مكتبى قبـل طلوع الشمس ، وأمامى الآلة الكاتبة أدق عليها وأرمى بورقة أثر ورقة ، والى جانبى فنجان القهوة أرشف منه وأذهل عنه ، فأحس راحتيك الصغيرتين على كتفى فأدير وجهى اليك ، وأرفع عينى لأصبح على بســتان وجهك ، وأستمد من ابتسامة عينيك النجلاوين ، وافترار ثغرك النضيد ما أفتقر اليه من الجلد والشجاعة ، وأدفع يدى فأطوقك بذراعى ، وأضمك الى صـدرى ، وألثم خدك الصابح ، وأمسح على شـعرك الأثيث المرسل على ظهرك وجانب محياك الوضىء ، وأتملى بحسنك وأنشر فى كهف صدرى المظلم نور البشر والطلاقة ، فتدفعين ذراعك الغضة وتتناولين ببنانك الدقيقة ورقة مما كتبت ، وترفعينها أمام عينيك ، وتزوين ما بينهما ، وتتخذين هيئة الجد الصارم ، وتفيضين على نفسك السمحة العطوف ، وأنت مضطجعة على ذراعى ، سمتا وأبهة يغريان بالابتسام ، وأنا أنظر اليك وفى قلبى سكينة ، وجوى من قربك معطر بمثل أنفاس الروضة الآنف فى البكرة الندية . وألمح شفتيك الرقيقتين تختلجان وعينيك تلمعان ، فتطيب نفسى بسرورك الصامت ، ثم أسمع ضحكتك الفضية ، وأراك

تغطين وجهك الحلو بالورقة فيستطيرنى الفرح ويستخفنى الجذل ، ولكنى أتظاهر بالخوف على الورقة التى لا قيمة لها أن يمزقها أنفك الجميل فترمين رأسك على ذراعى وينسدل شعرك الذهبى المتموج كالستار ، وتصافح سمعى من ضحكاتك العذبة موجات لينة . ثم تعتدلين على ساقى ، وتدفعين ذراعيك فتطوقين بهما عنقى ، وتجذبين وجهى اليك ، ولكنك تشفقين على رقة شفتيك من خشونة خدى فتلثمين أذنى الطويلة — وتعضينها أيضا — فأصرخ ، فتثبين الى قدميك خفيفة مرحة ، وتخرجين بعد أن خلفت فى صدرى انشراحا ، وفى قلبى رضى ، وفى روحى خفة ، وفى نفسى شفوفا ، وفى عقلى قوة ، وفى أملى بسطة واتساعا ، وفى خيالى نشاطا ، فأضطجع مرتاحا وأغمض عينى القريرة بحبك ثم أفتحها على :

« صيد حرمناه على اغراقنا
فى النزع — والحرمان فى الاغراق »

أى والله ، لولا الاغراق ما كان الحرمان . وهل هو الا الشعور به من الاسراف فى الرغبة واللجاجة فى الطلب ؟

بل أفتح العين على جثة صغيرة حملتها بيدى هاتين الى قبرها ، وأنزلتها فيه ، ووسدتها التراب بعد أن سويته لها بكفى ، ورفعت من بينه الحصى الدقاق ثم انكفأت الى بيتى جامد العين وعلى شفتى ابتسامة متكلفة وفى فمى يدور قول ابن الرومى :

«لم يخلق الدمع لامرىء عبثا الله أدرى بلوعة الحزن »

وتدخل على زوجتى لتحيينى تحية الصباح ، فأتلقاها بالبشر والبشاشة ، وأهم بأن أحدثها بما كبر فى وهمى قبل لحظة ، ولكنى أزجر نفسى وأردها عن التعزى باللغط . ولو أنى شرعت أحدثها بشىء من ذلك لما فرغت ، فما أخلو بنفسى قط الا رأيتنى أستطيب أن أتخيل فتاتى على كل صورة وكل

هيئة وفى كل حالة من حالات الطيش والحكمة ، والغضب والسرور ، والسخط والرضى ، والضحك والبكاء ، والعشق والسلوان والنفور والاقبال ، والحركة والسكون ، واللعب والنط ، والقفز ، والسباحة .... ويحلو لى أن أنشىء بينى وبينها أحاديث فى كل موضوع من جد وهزل ، ويسرنى أن أسمع نكتها ، وأرانى أستملح فكاهتها — وأنتحلها فيما أكتب — وأضحك أحيانا بصوت عال ، بل أقهقه غير محتشم ، فاذا تعجب لى داخل متطفل على فى هذه الخلوة المحببة الى نفسى رفعت له وجها كالدرهم المسيح ، وهربت بالتباله من الجواب الذى يطلبه بعينه أو لسانه ، وتركته يظن بعقلى ما يشاء . وماذا أقول له ؟ فى وسعى أن أكذب ، فما لباب الكذب مفتاح ، ولكن الكذب ينغص على المتعة التى استفدتها من الحوار الذى كان يدور بينى وبين « حياة »

☐

وأنت يا « حياة » الجديدة بديل من « حياة » التى فقدتها ، لا .. لست بديلا ، ولا أنت عوض عنها ، ولا أحسبك يرضيك أن تكونى عوضا عما لا يؤاتى . وتلك قد ربيتها صغيرة ودللتها وهى رضيعة بيدى هاتين اللتين أتناول بهما خديك ، ولاعبتها وأركبتها ظهرى ، وقطعت بها فراسخ طويلة فى الغرفة الضيقة ، وسقيتها الماء ورأيتها تمص ثدى أمها وهى ذاهلة عن الدنيا وما فيها — وما هو كائن وما عسى أن يكون — ونحن ننظر اليها مسرورين مستغربين مفتونين بهيئتها ، وهى مقبلة على الثدى ، ويدها الدقيقة على الثندوة ، وأصابعها تتحرك فى لطف وعلى مهل ، مستظرفين شفتها المثنية على سواد الثدى حول الحلمة وهى مكبة على الرضاعة

ولكن فيك مشابه منها . وأنا أغالط نفسى وأزعم أنها لو كتب لها البقاء لما عدتك . ولست تجلسين على ساقى فى الصباح الباكر – كما تفعل تلك فيما أتخيل – ولكنك تقرأين ما أكتب – بعد أن ينشر – وأراك يسرك أن تسكنى الى ، سكون الطائر الى وكره

وهل هذا كل شيء . ؟ لا أدرى . . وأظن – بل أنا واثق – أنك تفهمين ما أعنى حين أقول انك فصل من كتاب حياة

وهل أحتاج أن أقول أن اسمكما ليس « حياة » ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

التدريب الأول

« ألا تنوى أن تعلمنى قيادة السيارة ؟ »

قلت : « انى أنوى أن أعلمك أشياء كثيرة .. فى أوانها »

قالت : « مثل ..؟ » وأمالت رأسها الصغير وألقت الى ابتسامة أعوذ بالله من سحرها

فبلعت ريقى ، وقلت : « أوووه .أشياء كثيرة كما قلت : مثل الرقة واللطف واللين وحسن المواتاة .. أشياء كثيرة »

قالت وعلى فمها — وفى عينيها — ابتسامة المتسامح : « ألا ترانى لطيفة ؟.. »

قلت : « عفوا .. انما أعنى أن هذه المسائل نسبية ، فقد تكونين فى الواقع ألطف فتاة تزين هذه الكرة الأرضية بوجودها .. وقد أكون أنا لا أحس ذلك ولا أعرفه ، لبلادة فى أو .. جهل .. أو .. »

فأشارت بكفها وقالت : « يكفى .. سأحاول أن أكون لطيفة معك ، فكن لطيفا وقل لى متى يكون الدرس الاول ؟ »

قلت : « الآن .. تعالى .. ضعى هذا المعطف على كتفيك »

فأولتنى ظهرها لأضع عليه المعطف ، وكانت تنظر الى وأنا أفعل ذلك ببطء

وانحدرنا الى الطريق وركبنا ، فقالت وأنا أهم بالمسير : « ألا تلبس المعطف .. ان الجو بارد »

فهززت رأسى وقلت : « كلا .. سأتصبب عرقا بعد دقائق — بل ثوان — من ابتداء الدرس الاول ولكنك

تعرفينني .. لا أهرب من الواجبات مهما كلفتني »
وقالت : « هل هذا واجب شاق ؟ »
قلت : « سترين » .. ولم أزد
ووقفنا في مكان خلوي رحيب لا خوف فيه من أن ندوس طفلا أو نصطدم بشيء ، فقلت لها بلهجة الجد : « اسمعي من فضلك .. الآن يبدأ الدرس ، التدريب الاول .. فاذكري دائما أن هذا درس وليس بلعب .. اسمعي الكلام وافهميه واعملي به ولا تحوجيني الى شد شعرك أو قرص أذنك أو خدك »
وكانت تبتسم حينما شرعت أتكلم ، فلما رأتني جادا لا أضحك ولا يبدو على أني أمزح ، صارت الابتسامة كنور القمر المرتعش على صفحة الغدير الصافي .. فرق لها قلبي ، ولكني تحاملت على نفسي وغالبتها وحدثتها — أعني نفسي — بأن كل شيء خليق أن يفسد اذا لم أظهر الجد
وقالت بضعف : « اني مصغية »
قلت : « هذا حسن .. ابتداء طيب . والآن ، ادني مني .. التصقي بي »
قالت : « لماذا ؟ »
قلت : « لتتناولي العجلة وتتدربي على ادارتها بالضبط والاحكام الواجبين »
فحاولت أن تتناولها من غير أن تلقي بجسمها على صدري ، وكان هذا متعذرا . وأدركت أنها مترددة ، فقلت : «بالطبع ستزهق روحي وتتقصف أضلاعي وتحتبس أنفاسي .. ولكن هذا لا مفر من احتماله »
قالت : « صحيح ؟ »
فخفت أن تدفعها الرقة والاشفاق علي الى ايثار العدول فقلت : « ان في قولي هذا بعض المبالغة ولا شك ، ولكني

أعنى انه اذا كان لأحد منا أن يتردد أو يخشى شيئا ...
فانى أنا الخليق بذلك »

فظنت أني غضبت أو أن ترددها جرح احساسى وآلمنى ،
فقالت : « انى آسفة »

فابتسمت لها صافحا عنها .. وقلت : « تفضلى .. »
وتناولت كفيها فوضعتهما على العجلة وأنا أسأل الله أن
يلهمنى القوة ويرزقنى القدرة على مقاومة هذا الاغراء .
وصار كتفها على صدرى ، وشعرها علي وجهى ، وأرجه
فى أنفى ، وصفحة خـدها الغض المشرق تحت عينى ..
فلو مططت بوزى قليلا للمسته شفتاى . وسرنا خطوات
ترنحت فيها السيارة كأنها سكرى ، وأحسب أن لها ــ أعني
للسيارة ــ عذرها .. فما لمست عجلتها كف كهذه ، رخصة
بضة دقيقة .. وكنت أنظراليها ، فأشعر أنى أوشك أن
أرتد الى عصور الاستيحاش ، وأحس أنى أريد أن آكلها
لفرط حلاوتها . ولم أكن أحس وهى على صدرى أن فى
بدنها عظاما من فرط الرقة والطراوة . وكان شعرها يدير
رأسى ويسكرنى بعطره الطبيعى . وكانت يدى اليمنى على
كتفها ، فكنت بجهد أردها عن ضمها الى

وقلت لها وقد وقفنا قليلا لنستريح ، فقدكانت جلستها
متعبة : « لن تستطيعى أن تختفى عنى بعد اليوم كما فعلت
من قبل »

قالت : « كيف .. ماذا تعنى ؟ »

قلت : « لا أظنك تعرفين ما أعنى ، فمن حقك أن تسألى
وتعجبى .. لقد انتقلت فجأة من بيتك فأصبحت يوما فاذا
أنت غير موجودة حيث ألفت أن أراك .. لا أدرى كيف
تسنى لك أن تنتقلى من بيت الى بيت من غير أن أشـعر
بذلك ونحن جاران متقابلان .. ولكنك نجحت .. غافلتنى
واختفيت »

فقالت : « على فكرة .. كيف اهتديت الى البيت الجديد ؟ »

قلت : « أوه .. هـــذه حكاية طويلة .. رأيت أخاك فتبعته من حيث لا يشعر .. لو كنت شممت شعرك كما شممته اليوم .. لما احتجت الى أخيك أو غيره »

فضحكت وقالت : « لم أكن أحسب أنك .. » وأمسكت

فقلت : « قوليها .. ولا تخشى أن تسيئى الى . نعم ، ان فى بعض خصائص الكلاب .. ومن يدرى ، لعل الله كان يريد فى أول الأمر أن يخلق من طينتى كلبا ثم بدا له أن هـذه الطينة لا تليق بكلب فصنع منها هذا الانسان الذى يجلس الى جانبك . ومن هنـا بقيت لى حاسة الشم فى الكلاب ؛ ولكن قوتها فى شىء واحد .. ما شممت شعرا الا بقيت رائحتــه فى أنفى .. ولو أنك وقفت بين عشرين فتـاة وعصبت لى عيناى لاستطعت أن أهتدى اليك وأخرجك من بينهن بأنفى .. بمجرد شم الشعور »

فدهشت وقالت : « هل تتكلم جادا ؟ »

قلت : « فى وسعك أن تجربى . هاتى عشرين فتاة .. وارسـلى لهن شـعورهن وقفى بينهن وضعى على عينى ما شئت .. ودعينى أشمكن . نعم فى من الكلب هذا .. وليت لى منه مزاياه الأخرى .. بل ليتنى كنت كلبك على الخصوص »

فضحكت وقالت : « ولمـاذا ؟ . لا تخف أن تتكلم فان حديثك لذيذ »

قلت : « أشكرك .. لو كنت كلبك لكان من حقى المعترف به مثلا أن أقعد بين يديك فى حيث تكونين . لا أحرم ذلك ولا يستطيع أحد أن يقصينى عنك ولو حاول أحـد ذلك لعضضته ومزقت ثيابه ولحمه ولأدبته .. نعم .. ولكان من حقى أن أضع رجلى على .. على .. فى حجـرك .. وألحس لك وجهك كلما شئت ذلك واشتهيته .. معذرة

فان الكلب لا يحسن التقبيل .. وهذا هو البديل عنده من القبل .. ولو كنت كلبك يا فتاتى الجميلة لكنت حارسك الأمين وفارسك الذى لا يقصر ولا يغفل ولا يسهو .. ولو كنت كلبك لكان من حقى على الأرجح ـ فانك رقيقة القلب ـ أن أنام على سريرك .. »

فصرخت ووضعت راحتها على فمى فضحكت ، وقلت : « لا تخافى فانى لم أصر كلبا مع الأسف .. أبى الحظ هذه النعمة على المسكين الذى هو أنا »

واستأنفنا الدرس وعدنا الى التدريب ، وأقبلنا على ذلك بعزم لا يفتر وارادة لا تلين أو تضعف ، ثم وقفنا وأراحت يديها وتنهدت وقالت : « تعبت »

قلت : « انى آسف .. استريحى »

فسألتنى : « هل تعبت أنت أيضا ؟ »

قلت : « كلا .. انما تعبت من التفكير »

قالت : « فى أى شىء كنت تفكر ؟ »

قلت : « هل تصدقيننى اذا أخبرتك ؟ »

قالت : « لم لا أصدق ؟.. هل هو شىء غريب جدا ؟ »

قلت : « نعم .. جدا .. لقد كنت ـ وأنت على صدرى ـ أشتهى أن أمرغ نفسى فى هذه الرمال وأن أعوى كالكلب »

فضحكت حتى ترقرق الدمع فى عينيها ، وقالت بعد ان وجدت لسانها : « ولكن لماذا ؟.. ان هذا شىء غريب »

قلت : « لا غرابة على الاطلاق .. ألم أقل لك ان فى من الكلب خصائص .. اشتهيت أن أفعل ذلك عسى أن تصنعى معى ما كان يمكن أن تصنعى مع كلبك .. تحملينني بين يديك .. على ذراعيك .. وتدنين فمك الدقيق من وجهى وتقبلينني فألاعبك وأضع يدى على كتفك وأنظر فى عينيك وأمسح خدى بخدك .. على فكرة .. وقبل أن أنسى »

فتركت الضحك ، وأقبلت على تسألنى : « نعم .. »

قلت : « هل تستطيعين أن تخبرينى أو تبينى لى كيف يسعك أن تأكلى ؟ »

فاستغربت ، وقالت : « لست أفهم .. لمـاذا تظن أنى لا أستطيع أن آكل ؟ »

قلت ، وأنا أضحك : « هل تسمين هذا فما ؟. انه أدق من أن يتسع لأصغر لقمة .. يصلح أن يكون قرنفلة أو ما يشبه ذلك »

فقاطعتنى ، وقالت : « والآن اسكت قليلا .. لقـد دار رأسى .. لماذا تتكلم هكذا ؟ »

فهممت بأن أقول شيئا ولكنها أراحت كفها على شفتى فلثمتها ، فابتسمت وقالت : « لقد كنت أفكر فى جزاء لمـا علمتنى وقلت لى لتملأنى غرورا .. ولكنك أفسدت كل شىء .. أخذت جزاءك بنفسك »

قلت : « لا .. لا .. لا .. نمسح القبلة »

قالت : « كيف يمكن ؟ »

قلت : « هكذا .. بشفتى »

فأطرقت قليلا ، ثم رفعت رأسها وقالت : « لو سألتك عما تحب أن يكون جزاؤك منى ، ماذا كنت عسى أن تطلب ؟ .. افهم ان هذه مسألة نظرية بحت »

قلت : « الجواب حاضر .. وما أظن بك الا أنك تعرفينه .. وهل هو الا أن تعدينى كلبا لك ؟ .. »

قالت : « هذا سهل »

فصحت مسرورا وأنا لا أكاد أصدق : « أيه ؟ ! »

قالت : « لا تتعجل .. على مهلك .. لا تنس أن كلامنا كله نظرى » . فارتددت وتنهدت أسفا محزونا ، فقالت وهى

تربت لى على كتفى : « لا تحـزن يا كلبى العزيز .. أنت كلبى .. ألم تقل ذلك ؟ »

قلت : « نعم .. ولكن الكلب له مزايا .. لا تنسى ذلك »

قالت : « يحسن أن تتدرب عليها التدريب الاول .. »

فقاطعتها وصحت بهـا : « لا .. لا .. انى طول عمرى كلب .. متدرب من زمان .. كلب عتيق .. والله »

وضحكنا ..

وافترقنا على موعد للتدريب الثانى



الدكان

وقفت « جليلة » لا تدرى ماذا تصنع ، فقد انغرزت احدى العجلتين الخلفيتين فى الرمل وأبت أن تخرج منه .. وعجز المحرك عن جذبها ، بل كانت العجلة تزداد غوصا كلما حاولت نزعها . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ولم يبد أحد فى الأفق ، وكان الكشك الذى وقفت عنده منذ لحظة تشرب « الكازوزة » يبعد مسافة كيلو ونصف أو اثنين ، فليتها ما جاوزته الى هذا المكان القفر .. ولكنها أرادت أن ترى الطيارة الشراعية من مكان قريب والارض بعد « الكشك » غير ممهدة . ولكن عناء السير فيها محتمل ولا خوف من الغوص . وقد طوفت من قبل فى أرجاء هذا الفضاء الرحيب . فهى تعرف صلابة الارض ولا تخشى رخاوتها ، غير أن الحظ خانها فى هذه المرة .. فما كادت تقف بالسيارة وتنأى عنها قليلا ثم ترجع ، حتى ألفت العجلة قد غاب نصفها فى الرمال الخائنة . وكان تلاميذ الطيران الشراعى بعيدين عنها بعد « الكشك » ، فهل تترك السيارة وتعود أدراجها الى الكشك تلتمس من صاحبه المعونة ، وتسأله أن يدعو الى نجدتها بعض خفرائه ؟.. لم يبق من هذا مفر على ما يظهر ، والا صار خطبها أدهى بعد الغروب . وصح عزمها على ذلك ، فأقبلت على السيارة تريد أن تأخذ منها حقيبتها وقبعتها واذا بصوت يقول لها : « أسمحى لى .. »

فالتفتت مذعورة .. فما سمعت وقع قدميه وهو مقبل عليها ولا رأته ، وان كانت قد دارت بعينها فى المكان ونفضته قبل أن تنوى الرجوع الى « الكشك » . ولم يسألها الرجل شيئا ولم ينظر اليها بل انطرح على الرمل بثيابه الانيقة بعد

أن ألقى طربوشه فى السيارة ، وراح يجرف الرمل بيده من خلف العجلة وقدامها .. ولما فرغ من ذلك ووسع للعجلة نهض ومشى مطرقا ينظر الى الارض كأنما يبحث عن شيء ، ثم انحنى وتناول حجرا كبيرا ولوحا من « الصاج » وعاد بهما فوضع الحجر خلف العجلة واللوح أمامها وتحتها ، ليكون دورانها عليه لا على الرمل . ثم نهض مرة أخرى ، وقال : « أظن هذا يكفى .. فلنجرب على كل حال »

فقالت : « أشكرك .. لا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم تنجدنى »

فأشار بيده ، وقال : « أجلى الشكر حتى أستحقه .. ان العجلة المسكينة لا تزال غائصة ، فلننقذها أولا »

ومضى الى آخر السيارة ، وقال : « أديرى المحرك وسيرى بها ، وسأدفعها من الخلف »

ففعلت وخرجت السيارة ثم وقفت على مسافة أمتار ، ونزلت منها جليلةمتهللة الوجه فصاح بها : « لماذا وقفت .. هل حدث شيء ؟ »

قالت : « لا .. انما جئت لأشكرك »

ففرك يديه ومد يمناه اليها ، وقال : « آه صحيح .. صار الشكر الآن واجبا . أليس كذلك ؟ »

فضحكت وسرها منه أنه لا يبدو عليه أنه يريد شكرا ، وأنه كان ينتظر منها أن تمضى عنه بلا كلام

وقالت ، وهى تبتسم له فى عينيه : « ألا تريد أن أشكرك ؟ »

فقال وهو ينفض الرمل عن ثيابه : « كلا .. انه دين قديم أؤديه .. بعضه على الأقل »

فغاضت الابتسامة ، وقالت مستغربة : « دين ؟. لى أنا ؟ ولكنى لا أذكر أنى أعرفك .. لا مؤاخذة »

قال : « صـــدقينى حين أقول لك انه يسرنى أن أراك ناسية .. انها ذكرى خليقة ألا تثير فى نفسك الا الامتعاض والنفور بل المقت .. فالحمد لله »

فدنت منه مقدار خطوة ، وقالت : « ولــكن أرجو أن تريحنى .. هل تعرفنى ؟ »

قال : « أعرفك ؟ أظن ذلك .. وان كنت لا أكتمك أنى نسيت اسمك .. انتظرى .. ورفع كفه الـكبيرة الغليظــة الى جبينه .. اسمك يا ستى .. غريب أن تبقى الصورة كل هذه الاعوام ويذهب الاسم .. أوه .. جما .. جميلة .. وجدته وجدته .. جليلة .. أليس كذلك ؟ »

فصاحت : « نعم .. نعم .. ولكنى آسفة لأنى لا أذكرك أبدا .. لا صورتك ، ولا اسمك »

فقال بابتسام : « انهما جديران منك بالنسيان »

فألحت عليه أن يذكر لها اسمه ، فقال : « هذا لغز سأترك لك حله وأنت عائدة »

فابتسمت ، وقالت : « ألا تخشى أن أشغل به عن الطريق وما فيه فتحدث لى حادثة ؟ »

فقال : « صحيح .. صحيح .. اذن لم يبق لى مفر من التضحيــة . سأخسر ما صرت جديرا به من الشــكر ، وأسترد سخطك القديم »

فسألته وهى تضحك : « هل كنت فظيعــا الى هــذا الحد ؟ »

فقال : « ستعرفين مبلغ فظاعتى حين تعرفين اسمى .. مراد البارونى »

فأطرقت ، وقالت على مهل : « مراد .. البارونى .. (وهزت رأسها) كلا .. أن ذاكرتى لا يختلج فيها شىء .. آسفة »

فقال ، وهو يضحك : « أما أنا فان ذكراك يقشعر لهــا بدنى ، فما أستطيع أن أنسى أنك صببت على ماء قربتين من الماء فى الشتاء . سلطت على خرطوم الحديقة وأطلقت على ماءه .. أهذه ذكرى تنسى ؟. الست معذورا اذا ظللت متذكرا ؟ »

فدنت منه ، وقالت بصوت خافت كالهمس : « مراد ؟.. صحيح .. »

فقال : « وكنت ظالمة لى .. »

فقالت : « كلا .. لقد تذكرت الآن ، فقــد وضعت لى دودة ميتة فى قفاى .. الحق أنك كنت فظيعا »

فأشار بيده اشارة المستنكر : « لا .. لا .. هذا كان سوء تفاهم .. أعنى أنى كنت فرغت من اللعب بالدودة ، وظننت أنك قد يسرك أن تأخذيها لتلعبى بها .. ولــكنى أخطأت فوضعتها لك فى قفاك بدلا من يدك ، بل كان الخطأ منك لا منى .. فقد جعلت تجــرين خائفــة وأنا أجرى وراءك ، فلم يسعنى الا أن أتركها حيث تيسر لى .. فالذنب ذنبك يا جليلة »

فقالت جليلة ، وهى تضحك : « أتذكر كيف كنت تصيح بأعلى صوتك كلما رأيتنى .. وكيف كنت تجرى ورائى وتدبدب برجليك كلما أدركتنى فتزيدنى رعبا ؟ »

فقال : « نعم أذكر ذلك .. أذكر كل شىء .. انه كل ما بقى لى منك .. لقد كنت أصيح وأدبدب لأخفى عنك حبى لك »

فقالت : « غريب .. أكنت تحبنى ؟.. لقد كان نجاحك تاما اذن فى اخفاء هذا الحب »

ونظرت الى وجهه الذى لوحته الشمس وشعره الذى ظهر فيه الشيب هنا وهنا ، وأخذت الصورة القديمة

تسترد ألوانها وتبرز معالمها شيئا فشيئا ، ثم قالت : « لقد كبرت جدا .. طولا وعرضا .. وتغيرت أيضا . من الذى يراك الآن فيذكر ذلك الطفل الشقى الذى كان يسود عيشى ويرعبنى كلما ظهر فجأة من وراء شجرة .. أو من تحت الارض فيما كان يخيل الى .. ماذا صنعت بنفسك كل هذه السنين ؟ »

فقال : « أوه .. ماذا يصنع الناس بنفوسهم ؟. يكبرون ويقعون على عمل يشتغلون به . أنا أيضا وجدت لى عملا .. فى تجارة رابحة والحمد لله .. وأنت ؟.. »

قالت : « أوه .. كبرت مثلك »

فقاطعها وقال : « كلا .. انك لم تتغيرى .. لو كان هنا دود لما خطر لى وأنا أنظر اليك الا أننا ما زلنا طفلين ، ولهممت بأن أضع لك واحدة فى قفاك »

فضحكت وقالت : « لقد صرت مهذبا جدا .. لم يبق شىء من ذلك الطفل اللعين .. غريب أن نلتقى هنا هكذا بعد كل هذه السنين .. ماذا كنت تصنع ؟.. أعنى هنا »

قال : « أتمشى .. للرياضة »

فتنبهت ، وقالت : « اذن لا أقل من أن أحملك معى فى السيارة »

وقال وهو يركب معها مسرورا : « ما قولك .. نحتفل بهذا اللقاء الذى لم يكن لى ولا لك فيه حساب ، بالعشاء نتناوله فى محل الحاتى .. هه ؟ »

فابتسمت لنفسها فى مرآة السيارة وأصلحت شعرها الذى عبث به النسيم ، ثم التفتت اليه وهزت رأسها أن نعم .. ثم انطلقت تخطف بسيارتها الارض

ولم يكن فى جليلة خفة أو طيش ، ولكنها كانت فتاة وحيدة مدللة .. ورثت عن أبيها قسوة القلب واستقلال

الطبع ، وعن أمها سرعة الاستجابة لدواعى الخـير . وقد مات أبوها قبل سنوات ، فلم يبق لأمها سواها ولم تهمل تربيتها .. ولكنها كان ينقصها حزم زوجها وحكمتـه ، فألقت لها الحبل على الغارب وهى تحسب أنها لا تعدو ما كان يصنع أبوها . على أن الفتاة لم يكن فيهـا سوء ولم تثمر الحرية شرا ، وانما أكدت استقلالها وأورثتها تمردا صريحا على كل قيد من القيود التى يفرضها العرف حتى على الفتاة الحديثة . وكانت أمها وبعض أهلها يشق عليهم ذلك أحيانا ، فتقول لهم انى لا أفعل سوءا ، ولا أسىء أدبى ، ولا أتوقح على أحد ، ولا قيمة لخروجى وحدى ، أو مرافقة أصحابى وصواحبى الى السينما أو غيرها ، لأنى أستطيع بسهولة وبلا عناء أن أحافظ على نفسى .. فكانت أمها تسكت ولا تقول شيئا لعلمها أن الكلام لا خير فيه

ولم تكن جليلة بارعة الحسن ، ولكن صوتها كانت له حلاوة التغـريد .. وكانت نظرتهـا الحالمة تفعـل فعلين يبـدوان متناقضين .. تنعش القلب وتفتر الجسـم ، فاذا أدامت اليك كرة الطرف ــ على عادتها اذا سرها منك عمـل أو قول ــ شاع الرضى فى نفسك وفاضت بالسرور ، ودار رأسك ، وأحسست بالخدر فى أعصابك . وكانت أقرب الى القصر منها الى الطول ، والى الامتلاء منهـا الى النحـافة والهزال ، وقد حمتها كثرة الحركة والولع بالمشى فى الهواء الطلق ، وفطام النفس عن الاطعمة الدسـمة الثقيلة ، أن تصبح كأمهـا أكداسا من اللحم تلح على روحهـا . وكانت سمراء ، ولكن سمرتها مشربة حمرة لا كدرة فيها ولا نمش . وكان شعرها جعدا وأثيثا .. وكانت تفرقه وترسله الى الوراء وتعقصه وتأبى أن تقصه . كانت أنيقة بلا تكلف ، ولم تكن رقيقـة الحال أو مضـطرة الى حسن التـدبير والاقتصاد .. فقـد ترك لها أبوها الحازم ثروة كافيـة ،

ولكنها كانت تؤثر أن تصنع ثيابها بيديها ، فتجيء محبوكة التفصيل على قدها الجميل يبرز من تحتها ثدياها الناهدان الراسخان كالرمانتين الصغيرتين . وكانت مجدولة الساقين لا عظيمة العضلة ولا مضطربتها ولا عرقوب لها . وجمال الساق فى المرأة بشير بحسن القوام .. وكانت تكره الأحذية العالية الكعوب نفورا من بروز الفخذين . على أن هذا كله ما أكثر من يشاركنها فيه ، ولو اقتصر الامر على التكوين المادى لما كانت لها مزية تنفرد بها ، ولكن أنوثتها كانت قوية الجذب شديدة الاغراء .. فلولا استقلالها وشخصيتها لما استطاعت أن تنجو من المعاطب

▭

وقال مراد وهو عاكف على البيـان الذى قدمه اليـه الخادم : « معذرة ، فانى أتضور جوعا .. لم آكل فى نهارى شيئا . ماذا تريدين .. كباب .. لحم رأس .. حمام ؟ انى أرى الحاتى عنده كل ما يؤكل .. لا الكباب وحده .. ما قولك ؟ »

فآثرت الكباب ، وقالت : « ان هذا فنه الذى يمتاز به ، فيحسن أن أقتصر عليه »

وكانا جالسين فى آخر القاعة ووجههـا هى الى البـاب ووجهه الى الناس . وشغلا برهة بالأكل وذكريات الطفولة ، فقال لها وهو يضطجع : « أتذكرين يوم تحديتك أن تتسلقى النخلة ؟ .. (فهزت رأسها) لقد كنت لا تطيقين التحدى .. فهل أنت ما زلت كذلك ؟ »

فوضعت الشوكة على الطبق ، ونظرت اليه وسألته : « ماذا تعنى ؟ »

قال بابتسام : « أعنى أن وراءك .. بعد مائدتين اثنتين ..

رجلين أحدهما يحدق فى ظهرك ، لا يخالجنى شك فى أنك تحسين وقع نظراته على جسمك .. انها نظرة حامية .. كاوية .. انتظرى قليلا وسأدعو الخادم ليجيئنا بالقهوة ، فأديرى وجهك حين يقبل وانظرى »

ففعلت ثم اعتدلت فى جلستها وقد علا وجهها الاصفرار، فأكب مراد على بقية الفاكهة وتشاغل بها عما رأى فى وجهها من دلائل التغير . ولم تفت جليلة هذه الكياسة منه، ووقع من نفسها اتقاؤه الفضول .. فتماسكت وضبطت صوتها وهى تقول : « لقد تغيرت جدا .. من كان يظن أن ذلك الطفل الخبيث الذى كان يتعقبنى وينغص حياتى يصبح هذا الرجل الوديع الظريف الكيس ؟. أتعرف من هذا يا مراد الذى يكوينى بنظراته ؟. انه خطيبى زكى .. أفهمت الآن ؟ »

فقال بهدوء وبصوت متزن النبرات : « خطيبك زكى ؟.. هذه أخبار .. أظن أن من واجبى أن أقدم لك التهنئات »

ولكنها أحست من نبرات صوته على الرغم من اتزانها أن هذا الخبر لم يسره ، فقالت : « لا داعى للعجلة .. ثم ان الزواج مسألة عادية جدا على كل حال .. أو كما يمكن أن تقول أنت .. هو شر يصيب كل انسان .. عاجلا أو آجلا .. متى يصيبك يا مراد ؟ »

فقال : « أنا ؟.. لا أدرى .. صاحبك .. أعنى خطيبك لا يزال محلقا فى ظهرك . فهل تستطيعين أن تنهضى وتذهبى اليه وتقولى له بكل هدوء ان لك حقا فى أن تتناولى العشاء مع صديق قديم مثلى وضع فى طفولته دودة فى ظهرك وصببت عليه عشرين قربة من الماء فى الشتاء ؟ »

فقالت ببساطة : « انى أحب زكى .. وأنت لا تعرفه .. بالطبع ليس فى كونى معك هنا ما ينبغى أن يسوءه ، ولكنه لا يعرف أنك هذا الصديق القديم .. كل ما يعرفه أنه

خطيبى .. وانى ــ كما قال لى مرارا ــ طائشة . . مندفعة »

فقال مراد : « اشربى القهوة .. لا تفسدى على نفسك الليلة .. ستشرحين له كل شيء ، فيعود حملا وديعا ويعتذر اليك من هذه النظرات الحامية »

فشربت القهوة ، ولكنها كانت ساهمة .. فقد كانت تحب « زكى » هذا ، وكانت تكره الاضطرار الى الشرح وتستثقل أن تحتاج حتى الى ما يشبه الاعتذار

وقال مراد : « لقد قام الرجلان .. خطيبك وصاحبه »

فقالت : « يحسن أن نقوم اذن .. فسيودع صاحبه ولا شك ويقف فى انتظارى .. أشكرك يا مراد .. نبهتنى الى أنه خرج فلألحق به »

وخرجا . . وودعها مراد بعد أن عرفت منه عنوانه ، وعرف منها عنوانها ، وألح عليها أن تتصل به اذا جد أمر من جراء لقائهما الليلة

▭

وقالت جليلة لزكى : « معى سيارتى ، فلا حاجة الى تاكسى »

فدخل فى السيارة واضطجع .. ثم قال : « من هذا الرجل الذى كان معك ؟ »

فقصت عليه ما وقع لها عند المطار ، فقاطعها وقال : « كيف تكلمين رجلا غريبا ؟ ان هذا كثير .. »

قالت : « ولكنه ليس غريبا .. لقد نشأنا معا .. فى حى واحد »

فنفخ وقال : « ولكنك لم تكونى تعرفين أنه هو صديق طفولتك »

فقـالت بلهجة المستغرب : « هل كنت تريد أن أتقبل معونته ولا أشكره على الأقل ؟ »

فترك هذا وقال : «ولماذا تخرجين الى هذا المكان وحدك ؟»

قالت : « لأنك مشغول عنى بأعمالك الكثيرة التى لا تدع لك وقتا لمرافقتى .. ومع ذلك أى بأس هناك ؟ »

قال : « بأس ؟. بأس ؟ هذا الذى حدث لك من غوص العجلة أليس بأسا ؟ »

قالت : « لا تكن متعنتا .. ان السيارات يمكن أن يحصل لها أى شيء فى أى مكان فى الدنيا » . فترك هذا أيضا وقال : « ولكن تأتين معــه الى الحاتى .. ماذا يقول النـــاس ؟ »

فقـــالت : « اذا كان الحــاتى مكانا لا يليق أن يدخله الشريف .. »

فقاطعها بسرعة ، وقال : « لست أقول هذا .. الأمر على العكس »

قالت : « اذن انتهينا »

فسكت ، فما رأى حجة له تنهض . وساءه ذلك فقد كان شديد الاعتداد بنفسه ، وكان عظيم الطموح واسع الأمل فى المنازل الملحوظة .. فلم يسره أن الفتاة التى سيتزوجها تقرع حجته بأقوى منها ، وأحس أن فى هــــذا تنقصا له وغضا من مقامه وسقوطا لهيبته ، ولكن الكلام خانه فآثر السكوت على مضض

وكان زكى — أو اذا أردت اسمه كله زكى الدين حمد — من أصل تركى أو شركسى — سيان — وكان يطمع أن يبلغ بماله الموروث حيث لم يستطع أن يبلغ بالكفاية الشخصية . وكان أمله الذى لا ينفك يحلم به فى اليقظة والمنام أن يصبح يوما من أعضاء البرلـــان ، ومن أجل هـــذا كان يتقرب الى الزعماء السياسيين بوسائل شتى .. وكان يعنيه جدا أن يحسن رأيهم فيــه وظنهم به .. وكان يحرص على المركز

المأمول ، ويحيط نفسه سلفا بكل مظاهر الأبهة والسمت والوقار ، وينظر الى الأمر كله كأنه واقع . وينتظر من الناس أن يعدوه كذلك ، بل أن يبالغوا ويروحوا يمدون بصرهم الى المستقبل ، وأن يخالوه كما يتخيل نفسه فيه وزيرا أو رئيس وزارة

وقال لجليلة ، وهو يودعها على باب بيتها : «أرجو يا جليلة أن لا تعرضينى لكلام الناس ، واذكرى أن لى مركزا يجب أن أحافظ عليه »

فسحبت يدها من يده وقد آلمها كلامه ، وأحست أن سهما وقع فى قلبها . وكانت حساسة وذكية . ولم يكن يخفى عليها أن ليس له مركز سوى ما يفيده الغنى . ولم تكن هى تحتاج منه الى مال فان مالها كثير . وكانت تدرك أن ما يسميه « مركزه » جانب ضعف فيه ، ولكنها كانت تغض عن ذلك لحبها له .. غير أنها لم تكن تتوقع أن يتهمها بأنها تسىء الى هذا المركز ـ وان كان موهوما ـ فضلا عما تنطوى عليه عبارته من التعريض بها ، بعد أن شرحت له الأمر كله ولم تخف عنه شيئا . وماذا تخفى وليس فى الأمر ما يستدعى الكتمان ؟.

وقالت له ، وهى تهم بالدخول : « ليلتك سعيدة »
فسألها : « متى نلتقى غدا ؟ »

فأطرقت شيئا ثم رفعت رأسها ، وألقت اليه ابتسامة ساخرة ، وقالت : « غدا ؟.لا..انى على موعد مع مراد.. »

ولم يكن ثم موعد ولا شبهه ، وانما قالت ما قالت مدفوعة اليه بضجرها وألمها

ودخلت .. وتركته واقفا وفمه مفتوح

▭

ولم تحاول أن تلتقى بمراد فى اليوم التالى ، فقد كانت

تدرك أن هذا لا يكون منها الا خرقا وحماقة .. فلزمت بيتها الى المساء ، ثم خرجت فى سيارتها على عادتها وجالت بها جولة قصيرة ، ثم ردت بعض الزيارات وعادت فلزمت غرفتها . وكان الألم لا يزال يحز فى نفسها ، فساء نومها واضطرب . وذهب يوم وجاء يوم ، ولكنها أحست ثقلا فى جسمها وفتورا .. فبقيت فى فراشها ، وأوصت أمها أن تمنع أن يزعجها أحد ــ حتى ولا زكى ــ فشعرت الأم أن فى الأمر شيئا ، ولكنها حدثت نفسها أنه خلاف لا يلبث أن يزول . وجاء زكى يسأل عن خطيبته ، فعرفت الأم أنه لم يلقها منذ يومين .. فأظهرت تعجبها وزلت ، فقالت انها كانت تحسب أنها لم تخرج الا للقائه . وزل زكى أيضا فقال لها أن جليلة تسلك مسلك الاطفال ، وأن ذلك يسيء الى مركزه ، وأنه كلمها فى ذلك فغضبت ولجت فيما نهاها عنه ، فهو يرجوها ــ الأم ــ أن تكبحها قليلا .. فما يليق أن تترك هكذا ــ حبلها على غاربها . وعرفت جليلة هذا الذى دار بين أمها وبين خطيبها ، فدهشت له .. ولكنها لم تغضب ولم تثر ، بل كان من الغريب أنها أحست كأنما وضع لها فى مكان القلب قطعة من الثلج

وجاء العصر .. فركبت سيارتها وخرجت بها الى مصر الجديدة . وكان كل همها أن تكون وحدها وأن تدور دورة فى الهواء الطلق وتمشى قليلا ، عسى أن ينفعها ذلك .. فيعفيها من الشعور بالانقباض والفتور . وانها لفى بعض الطريق ، واذا بها ترى مرادا يمشى بسرعة كأنما يريد أن يدرك موعدا .. فوقفت وأشارت اليه وقد أحست أن جسمها قد صار أخف مما كان .. فجاءها يعدو ، فسألته : « الى أين ؟ .. »

فلم يجب عن هذا السؤال ولم يلق اليها تحية ، بل ركب وهو يقول : « أرانا نلتقى فى هذه الأيام .. حسن هذا .. أليس كذلك ؟ »

فأعداها ما فى وجهه من البشر ، وقالت ضاحكة : « غريب هذا .. تمضى سنوات لا نلتقى فيها مرة واحدة ، وفى أربعة أيام نلتقى مرتين »

فقال : « لا تغلطى يا فتاتى .. ليست هذه مصادفة .. »

فنظرت اليه مستغربة ، وسألته : « ليست مصادفة ؟. »

فقال وعلى فمه ابتسامته الوضيئة التى لا تفارقه : « كلا .. ليست مصادفة .. انها ارادتى سلطتها عليك فجذبتك الى حيث أنا .. نعم » . فعاد اليها اشراق وجهها واطمأنت ، وقالت : « أوه .. آه .. ارادتك ؟ طبعا .. »

فقال : « لا تمزحى .. انى أتكلم جادا »

فرمت اليه نظرة سريعة ، فألفته لا يزال يبتسم .. فحولت وجهها الى الطريق ، وقالت : « هذا بديع .. تكلم ، ان أذنى لك »

قال : « نعم .. ارادتى .. لم أزل منذ عشر سنين أربى هذه الارادة ، فهل تستغربين انها بلغت من القوة هذا الشأو ؟ . بالطبع لا .. وأنت أول من ينبغى أن يكون من تلاميذى المؤمنين بى .. من حوارى . هه ؟ .. وسأفتتح بك العهد الجديد »

وبلغا آخر الطريق الى المطار — من ورائه — فجلسا على سلم السيارة ، وأخرج مراد سيجارة وذهب يدخن فى صمت .. فلما طال ذلك التفتت اليه وقالت : « انك لا تسألنى ماذا حدث »

فلم يحول وجهه اليها وأدرك من كلامها أن شيئا لا بد أن يكون قد حدث . ولم يشأ أن يتطفل عليها بالسؤال ، فاكتفى بأن يقول : « ان اذنى لك .. أعرناك السمع »

فقالت : « انك قليل الفضول »

قال : « لأنى مشغول عنه بما فى نفسى .. الدكان غاصة . لا تحتمل زيادة »

قالت : « لغة التاجر .. اسمع .. غضب زكى .. أوه . غضب جدا .. لم يقل شيئا كثيرا .. كل ما قاله انى خفيفة طائشة ، وأنى أسىء بسلوكى الى مركزه »

فانتفض مراد واقفا وقد تجهم وجهه ورمى السيجارة ، ثم التفت اليها وقال بلهجة صارمة : « من يكون زكى هذا ؟ »

وكبح نفسه عن الاسترسال ، ورد لسانه بجهد ، وضبط أعصابه ، وعاد الى مكانه من السلم والتفت اليها وقال ، وقد وسعه أن يبتسم مرة أخرى : « معذرة .. ليس لى حق .. قولى انك صفحت عنى »

فسرها منه أنه غضب لها ، وفارت نفسه بالسخط على خطيبها من أجلها ، فقالت له برقة : « أشكرك .. اننا صديقان قديمان »

فقال لها ، وهو ينهض مرة أخرى : « قومى نتمشى .. دعى السيارة ، فلن يخطفها أحد »

وقطعا مسافة وهما صامتان ، ثم وقف والتفت اليها وقال : « اسمعى يا جليلة .. انى أعتمد على ما تخولنى صداقتى القديمة من الحق فى الصراحة .. عشرون قربة من الماء تجعل لى هذا الحق .. أريد أن أقول انى تحاشيت فى مقابلتنا الأولى أن أكاشفك بما أضمر لك من الحب كل هذه السنين الطويلة ، لأنك قلت عرضا أنك مخطوبة .. ولكن وجه المسألة تغير اليوم بعد أن سمعت منك ما قال هذا البغل »

فقاطعته ضاحكة : « اذكر أنه خطيبى . لا يزال خطيبى . وانى قلت لك انى أحبه »

فقال : « لم يعد هذا يعنينى .. لست أحاول أن أصرفك عنه .. كلا ، ولكنه لم يبق لى بد من أن أقول انى أحبك ، وأنى أحبك مذ كنت طفلة ، وكنت أعابثك وأكايدك وأصرخ

فى وجهك . وكان هذا مظهر حبى الصبيانى .. أما الآن ، فان مظهره انى مستعد أن أذهب الى خطيبك هـذا وأخنقه بيدى هاتين »

فقالت ضاحكة : « لقد توهمت لحظة أنك صرت أرق »

فقال : « كلا .. أنا كما كنت .. واسمعى ولا تقاطعى والا بحثت عن دودة ووضعتها لك فى قفاك .. اذا حدث يوما أن صار الدكان للايجار فاخبرينى »

فقالت : « لغة التاجر أيضا . ولكنى سأستعيرها منك .. ثق أنك مفضل عندى على كل مستأجر لهذا الدكان اذا خلا يوما من الأيام .. لم يخطر لى أن هذا ما تنطوى عليه لى .. ومن التى تتصور أن وضع الديدان فى قفاها يكون علامة حب ؟ . ولكنك كنت دائما غريبا .. على كل حال ، المسألة المهمة أن الدكان مزحوم . ليس خاليا .. رحت أستبضع فامتلأ .. صحيح أنه امتلأ بأشياء لا قيمة لها .. ولكنى لم أكن أعرف ان ما غص به عديم القيمة .. المهم أنه ممتلىء، وأظنك تدرك أنه ما دام مملوءا فلا مكان هناك لجديد .. يجب الصبر حتى أخليه مما فيه .. هذا يحتاج الى وقت . ومن يدرى ، ربما كان الاخلاء أصعب من الملء . ولكنك تفهم .. قل أنك تفهم وتعذر .. »

فقال ببساطة وهدوء : « لا بأس . لا بأس .. ان دكانى أيضا مزحوم . ولكنه مزحوم بالنفيس الغالى .. ولست أريد أن اخليه ـ لا أستطيع أن أخليه حتى لو أردت . وهيهات أن أريد أو أستطيع .. انه مكتظ منذ خمس عشرة سنة ، وسيظل مكتظا طول العمر . وقد عرفت أن مفتاحه معك .. فى يدك .. فادخلى حينما تشائين . وعسى أن تشائى .. عدينى أن تحتلى مكانك من الدكان بعد أن تفرغى من أمر دكانك .. وفى أثناء ذلك نبقى كما كنا دائما .. صديقين حميمين »

ولم يسع جليلة الا أن تفكر فى أمر الرجلين ـ مراد الذى تعرفه منذ الطفولة ، والذى كان يسود عيشها بعبثه ـ لأن هذا كان تعبيره الخاص عن حبه لها ـ وقد ظل بعد ذلك يحبها ، ولكنه أحجم عن طلب يدها لرقة حاله بالقياس اليها. وقد صار تاجرا،ولكنه لم يثر لأنه لا يربح الا الكفاية.. ومن هنا احجامه الى الآن عن خطوبتها كما حدثها . وقد زاد على ذلك أنه كان لا يتصور أن ترضى به فتاة مثلها ، فكتم حبه وطواه فى صدره ، وسأل الله المعونة على احتمال اليأس المخامر . وهو ظريف كيس لبق دائم البشر واسع الادراك رحيب الأفق حلو الفكاهة ... وزكى الغنى الذى لا ينفك مهموما بمركزه المتخيل والذى لا يتقى فى سبيل الحرص عليه أن يجرح قلب فتاة ويتهمها بالخفة والطيش فى سلوكها ، وبأن سيرتها توشك أن تسىء الى مركزه الموهوم هذا . وقد أحبته .. هذا صحيح ، ولكن عينها فتحت ، فهى تراه الآن على حقيقته . وليس يسعها الا أن تفكر فى حياتها معه كيف تكون ، اذا كان كل ما يباليه فى الدنيا هو هذا المركز .. ولكنها خطيبته وقد قبلت أن تكون زوجته .. فما العمل الآن ؟

وسألت نفسها : أى الرجلين أحب اليها ؟.. وحيرها الجواب .. فهل هذا الذى تشعر به لمراد حب ؟ ان يكن هذا فهو هادىء جدا .. أما زكى فان الدكان كما قالت لمراد مزحومة .. صحيح أنها مزحومة بما لا قيمة له ـ كما ظهر الآن ـ ولكنها مزحومة .. فهل تخلو يوما ؟ . هذه هى المسألة .. والى أن تخلو لا سبيل الى شىء

ولو أن زكى ذهب اليها فى ذلك الوقت ولاطفها وضاحكها ومازحها واعتذر اليها ـ ولو كانت هى فى رأيه المخطئة ـ لعادت المياه الى مجاريها كما يقولون ، ولارتفعت قيمة ما فى

الدكان وارتدت اليه نفاسته . ولكنه أراد أن يلقنها درسا ، فأعرض أياما وجفاها وانقطع عن زيارتها ، ولم يكفه ذلك . . بل أرسل اليها خادمة من عنده تبلغها تحياته وتسألها باسمه عن صحتها ، وأوصاها أن تخلق مناسبة لتقول لها أن سيدها يكثر فى هذه الايام من زيارة بيت خالته — وكانت لها بنت فى مثل سن جليلة — ليثير غيرتها واشفاقها من أن يطير العصفور من يدها ، فأفلح ولكن في استثارة نقمتها عليه . . فقالت لنفسها ان رجلا يهينها ويعرض بها ويرميها بأن سلوكها من شأنه أن يسىء الى سمعته وأن يضر بمركزه ، ثم لا يجعل هذا بينه وبينها بل يفضى به الى أمها ، ثم لا يكفيه هذا بل يجفوها ثم يغلو فى تعمد الاساءة اليها فيرسل اليها خادمة تبلغها أنه انصرف عنها الى سواها . . مثل هذا الرجل خير له ولها أن ينقطع ما بينهما

▭

على أنها لم تتعجل — وان كان عزمها قد صح على الفراق — فقد كانت شديدة الثقة بنفسها والاعتداد باستقلالها وارادتها الحرة ، فلم تر ما يدعو الى العجلة بعد أن انتوت أن تفصم العروة . واستوى عندها أن يكون ذلك يوم انتهت الى هذا العزم ، وأن يكون بعده بأيام أو أسابيع . فقد كانت واثقة أنه ما من شىء يستطيع أن يحولها عنه . وصار عجبها أن الدكان خلا بسرعة مما كان يغص به . ولم تكن تلقى فى تلك الأيام مرادا ، لأنها أرادت أن تختبر نفسها لتعرف ما تنطوى عليه له . . فأدهشها أنها تحس وحشة ، وأنها تشتهى أن تكون معه ، وأن تستعيد ما تشعر به فى مجلسه من سكينة النفس واطمئنان القلب والرضى الهادىء . وزاد شوقها اليه أنها كتمت الأمر كله عن أمها ، فلم يكن هناك من تبثه ما فى نفسها . ولو كان مراد الى جانبها ، لكان خليقا أن يفهم

ويعذر ويعطف وأن يسرى عنهـا بفكاهته التى لا تخونه ، وأن يغذيها بقوته التى تجعله لا ينسى أن يضحك وهو يفجع فى أمله الذى عاش به سنين وسنين ..

وتعجبت لسرعة استيلاء مراد على هواها ، فما لقيته الا مرتين بعد طول الانقطاع والغيبة . فهل هذا هو الحب الذى يقال عنه انه يكون من أول نظرة .. أم تراها كانت تحبه مذ عرفته وهى لا تدرى ، وكان حبها له راقدا كامنا ينتظر فرصة للظهور ؟ .. لا شك أنها كانت تحبه، كذلك قالت لنفسها وهى راقدة على سريرها بعد الغداء . نعم كان يقسو عليها ويركبها بالمزاح المتعب ، وكان يختبىء لها وراء الأشجار ثم يفاجئها بصرخة ترعبها فيضحك ويقهقه . وكان يجرى وراءها حتى تنقطع أنفاسها وتقع من الاعياء .. فيحملها ، ولكنه لا يرحمها ، ولا يترفق بها .. بل يقرصها ويعضها ، فتصرخ وتصيح وهو يضحك ولا يبالى . ولم تستطع أن تنتقم منه الا مرة واحدة حين أرسلت عليه خرطوم الماء فأغرقته ، فجعل ينتفض من البرد . ولكنه كان يضحك مع ذلك ولم يسخط عليها .. ولم ينطق بكلمة تشى بالألم أو النقمة أو الغضب ، بل احتمل ذلك . ولما رق له قلبها وأقبلت عليه بالاعتذار اليه وطلبت الصفح منه ، لم ينس دعابته وعبثه ونبحها كما يفعل الكلب « وو .. وو .. » ففزعت . فما كانت تتوقع شيئا من ذلك ، ومضت عنه مغيظة محنقة معتقدة أنه شر صبى فى الحارة ، وكان هو يقهقه وينطوى من شدة الضحك غير عابىء بالماء والبرد .. فتالله ما أقواه . ومع ذلك كانت لا تلعب الا معه .. واذا أقبل عليها غيره من الصبية نفرت . نعم لا شك أنها كانت تؤثره .. ولماذا لا تقول أنها كانت تحبه ؟ . صحيح أنها لم تكن تعرف الحب .. ولكنها تعرف الآن ، فقد صارت خبيرة مجربة .. فلماذا لا تسمى الشيء باسمه الصريح ؟

وارتدت من الماضى الى الحاضر ، وذكرت كيف غاصت

عجلتها فى الرمل ووقفت حائرة .. واذا به يظهر كأنما شق الأرض وخرج منها ـ كما كان يفعل وهو صبى ـ وينطرح على الأرض بلا كلام أو سؤال ، ولا يبالى ما يصيب ثيابه ، ويجرف الرمل بيديه الكبيرتين ويحمل الحجارة .. يفعل كل ذلك ولا يرفع عينه الى..ثم يعرفنى فيتلطف فى تذكيرى بنفسه . ويتظاهر بنسيان اسمى وهو منقوش محفور فى قلبه .. وتنازعه نفسه أن يفضى الى بحبه ، فيشير اليه من بعيد فى معرض الكلام على ذكريات الحداثة .. ويعرف أنى مخطوبة ، فيفقد كل أمل . ولكنه يتجلد ويتكلف الابتسام ويمضى فى مؤانستى بحديثه ، كأنما لم ينهد ولم يتقوض بنيانه .. وهل أنسى كيف ثار وانتفض حين رويت له ما أهاننى به زكى ؟. فقد كانت وثبته تلك دليلا كافيا على عمق ما يجن لى من الحب .. ومع ذلك أبت له الكياسة والأدب الا أن يكبح نفسه ويردها عن النيل من زكى مخافة أن أكره ذلك منه ..

وظلت تناجى نفسها على هذا النحو ، ولا تكتحل عينها بغمض حتى كان العصر .. فقامت ولبست ثياب الخروج ، واستقلت سيارتها الصغيرة الى دكان مراد ، فأقبل عليها يرحب بها ، فقالت : « أنت أولى من الغريب »

فابتسم وقال : « آه .. أهو ذاك ؟ »

قالت : « نعم .. أريد شيئا من الحرير .. قطعا كثيرة . ألوانها شتى .. الوقت ضيق »

فقال : « الوقت ؟.. لست فاهما شيئا .. »

قالت : « ألا تعرف أن العروس تحتاج الى ثياب كثيرة ؟ »

فامتقع لونه ، ولكنه تجلد وقال : « متى ، ان شاء الله ؟. لست أطمع أن أدعى ، ولكنى أريد أن أحتفل بليلة الجلوة وبسرورك فيها .. وحدى »

فسألته بخبث : « وحدك ؟ »

فقال : « نعم .. لن يكون معى سوى خواطرى »

وأدار وجهه الى الباب ليخنق زفرة يعلو بها صدره ، ثم التفت اليها وقال : « متى يكون هذا ؟ »

فرفعت اليه وجها مشرقا ، ونظرت اليه نظرتها الحالمة ، وقالت « : متى تريد أن يكون ؟ »

فقطب ، وقال : « ايه ؟ »

فأعادت سؤالها : « متى تريد أن يكون ؟ »

فحدق فى وجهها — فى عينيها — ثم صاح وقد فطن الى ما تعنى ، وانحنى عليها فرفعها بيديه عن الكرسى غير عابىء بالعمال والزبائن ، وأهوى على فمها باللثمات ثم ردها الى الكرسى ، وصاح بأحد رجاله : «اذهب. اذهب . حالا. حالا»

فوقف الرجل كالأبله لا يفهم ولا يدرى أين يريد منه أن يذهب ، فصاح به : « هات المأذون .. ألا تعرف المأذون يا أبله ؟ اذهب .. حالا .. »

فوقفت جليلة وأقبلت عليه تسأله : « ماذا تعنى ؟ ماذا تريد أن تصنع ؟ »

فقال : « ماذا أعنى ؟ . يا له من سؤال .. نعقد العقد .. هنا .. حالا فى الدكان .. هذا ما أعنى .. رجالى وزبائنى شهودى .. شهود سعادتى .. لقد كان التجار فى الزمن السالف يجيئون برجال يقفون على أبواب الدكاكين ويدعون المارة أن يدخلوا ويزينون لهم البضاعة ، وقد انقضى ذلك الزمن وحلت الاعلانات فى الصحف محل هؤلاء المنادين .. ولكنى اليوم سأقف بالباب وأدعو الناس.. كل الناس.. أن يدخلوا ، لا ليشتروا ، بل ليشاركونى فى سعادتى . لماذا لم يجىء المأذون ؟ اذهب أنت وراءه واستعجله »

وفرحت جليلة بهذا الجنون وخجلت أيضا .. أفرحها ان عقله استطير من فرط الجذل ، وأخجلها أن كل هؤلاء

الناس من العمال والزبائن يرونها وأن عيونهم جميعا عليها ، وأنهم جميعا يفحصونها ليعرفوا سر هـــذا السحر الذى ذهب بلب الرجل الذى ألفوا منه الرزانة والوقار والسكينة والظرف والعقل.. وأرادت أن تستمهله ، فأبى.. فاقترحت أن يذهبا بالمأذون الى البيت ، فأبى أيضا ، وقال : ان ناسا فى هذا الزمان يتزوجون فى الطيارة .. فماذا يمنع أن نتزوج فى الدكان ؟ فقالت : انه فرق ســاعة ، والمسافة الى البيت لا تستغرق زمنا . فأبى أيضا ، وقال انه يخاف عليها أن تطير وتتسرب فى الهواء .. كلا ، ولا بد أن يكون العقد هنا

وراقها هذا الجنون وألهب خيالها فرضيت ..

وتزوجا فى الدكان !

وقالت له وهمــا خارجان : « نسيت أن أقول لك انى وجدت أن الدكان لم يكن خاليا قط .. كان ما فيه مخزونا من أيام الصبى .. فلما أدرت عينى فيه عرفت ، ولهــذا جئت »

فقبلها على باب الدكان ..

ولم يستحى الرجل !

الكآبة

يقول بعض الأطباء بلهجة الجزم التى لا تردد فيها ولا تلعثم ، ان حيوية الجسم الانسانى تكون أدنى ما تكون بعد منتصف الليل . وفى تلك الساعة العصيبة ، يعجز العقل عن تدبر الحاضر بسكينة ورضى ، واستشفاف المستقبل بشجاعة ، ورجع البصر فى الماضى بغير أسف . ولكن كل أمرىء غير هؤلاء الأطباء يعرف أن ساعة الكآبة والهبوط لا وقت لها ، وأنها قد تكون الاولى صباحا أو الثانية مساء . كما قد تكون فى العصر أو الغسق . فليس لها ثبات ولا أوان معروف ، وأن ساعتها قد تكون ثوانى أو دقائق . وقد تمتد وتطول ، فينطوى فيها الليل والنهار جميعا والعمر أو خيره فى بعض الأحيان

ومهما يكن من ذاك ، فان المحقق على كل حال أن كاتبا مثلى لا يسعه الا أن يشعر وهو يتأمل « سعيدا » بقصوره وعجزه .. فان مثل هذه الكآبة لا يستطيع أن يوفيها حقها سوى مجمع من أعلام البيان . وقد يسع « زولا » أن ينصفها ، وعسى أن يكون « جوركى » قادرا على تناولها بقلمه ، ولعل « دستويفسكى » كان أقدر من سواه على ذلك ، ولكنها فوق طاقتى وحدى . وشر ما فيها أنك لو سألت « سعيدا » نفسه عنها ، ما سببها أو داعيها ، لما وسعه أن يعلله .. ولكان الأرجح أن يتعجب لها ، فقد كان حسن الحال ميسر الرزق . ولا نكران أنه كان يكد ويتعب فى سبيل الرزق .. ولكن كل انسان يفعل ذلك ، حتى أصحاب الضياع لا مفر لهم من العمل والسهر والتعهد والعناية بما يملكون ، والا نضب المعين وجف المورد . وكان

فوق ذلك ذا زوجة صالحة فيها رقة وجمال وأدب وحذق ولها عقل ، وكفى بهذا نعمة . وكان فى تلك الساعة فى « قهوة » لها حديقة تشرح الصدر . والطريق أمامها واسع نظيف ، واليوم يوم أحد ، والغوانى يرحن ويجئن على الرصيف . . كل اثنتين أو ثلاث أو أربع معا ، وهن فى حفل من الزينة . وأخلق بالمرء حين ينظر الى وجوههن الصبيحة وقدودهن البارعة وخطرتهن الرشيقة ، ويسمع أصواتهن البلبلية أن يشيع البشر فى نفسه . وكانت فى حديقة القهوة نافورة صغيرة ، ترسل الماء خيوطا دقيقة تعلو ثم تتناثر على صورة المظلة . وقد اجتمع الماء والخضرة والوجه الحسن ـ بل الوجوه الحسان ـ فماذا يبغى سعيد فوق ذلك ؟ . . أم ترى اجتماع ذلك كله هو سر الكآبة . . من يدرى ؟!

وجاء ماسح الأحذية وقعد ومد يده بالصندوق الى رجل سعيد بلا استئذان ، فرفع هذا قدمه الى الصندوق بحكم العادة لا بدافع الرغبة . . فقد كان الحذاء نظيفا لماعا

وقال الرجل بعد فترة صمت شغل فيها بغسل الحذاء بالماء والصابون : « من زمان ما جئت الى هنا يا بك »

ولم يكن سعيد « بيكا » ولا كان له أمل أو رغبة فى رتبة كهذه . . فانه رجل عمل لا يحفل بالألقاب والرتب ، ولكن كل امرىء «بك» عند ماسحى الأحذية وسائقى المركبات . ولم يزد سعيد فى جواب السؤال على «آه» ، ثم أدار عينه فى الجالسين بهذه القهوة فألفى ناسا يشربون وآخرين يلعبون«الطاولة»وحولهم كثيرون ينظرون اليهم وهم وقوف . وأخذت عينه رجلا وامرأة جالسين تحت شجرة وأمامهما قدحان من « الزبيب » فقد كان هذا أحد الشهور التى لا «راء» فى حروفها ـ وهى مايو ويونيه ويوليه وأغسطس ـ والقاعدة المصرية أن شرب « الزبيب » يحلو ويطيب في هذه

الشهور الأربعة . فاشتهت نفسه قدحا من الزبيب .. وصفق فجاء الخادم ، ولكنه تردد وخطر له أنه ليس معه من يشاربه . فنظر الى الخادم الصبور ، وسأله : « عندك ايه ؟ » ولم تكن به حاجة الى سؤال كهذا ، ولكن الخادم ألف هذا من الزبائن،ووطن نفسه عليه،فقال بلا تململ : «قهوة ، شربات ، كازوزه ، شاى .. » وأمسك. ثم كأنما تذكر ، فزاد «خشاف ، ليموناده» .. ولم يأنس من سعيد قبولا ، فقال : «ويسكى ، كونياك .. » فاستوقفه سعيد باشارة ، وسأله : « كونياك من أى صنف ؟ » فقال الخادم : « كمبا،كمبا عال ، مارتل ، كورفوازييه ، انيسى .. »

فهز سعيد رأسه ، وقال : « هات زبيب »

ومضى الخادم ، فقال ماسح الأحذية : « القهوة دى يا بك عال »

فزاد صدر سعيد ضيقا ولم يجب ، ودار بنفسه أن كل انسان سعيد الا هو . وأنكر أن يكون اسمه سعيدا ، ورأى فى هذا الاسم تهكما من الأقدار . وخطرت فى هذه اللحظة فتاة أمامه وألقت نظرة سريعة على حديقة القهوة وهى تمر بها ، فقال سعيد لنفسه أنه كان خليقا أن يشعر ببعض السعادة لو كانت معه فى هذه الساعة فتاة كهذه تؤنسه بحديثها . ومرت فتيات أخريات وراءها ، فقال لنفسه : « ما أكثر الفتيات اللواتى يمشين وحدهن ولا رجال معهن » وتنهد تنهد الأسف .. لا عليهن ، بل على نفسه !

وقال ماسح الأحذية : « شارع ظريف يا بك .. وخصوصا يوم الأحد .. » وأشار بيده اشارة عامة يمكن أن تشمل المبانى ومركبات الترام . ورفع وجهه الأسمر الى سعيد وابتسم له ابتسامة لا تخلو من معنى .. فعبس سعيد ، ثم بدا له أن التعبيس لا موجب له ، فابتسم متكلفا ورد عينه الى الشارع ومن يمشين فيه

وقال الرجل : « بس سعادتك ما بتجيش »

فاحمر وجه سعيد ، فقد أدرك غرض الرجل. ولم يخف عليه ما يرمى اليه ، وكان الزبيب قد جاء فصب عليه ماءا ، ورفع الكأس الى فمه ورشف . وأقبلت اذ ذاك فتاة تعدو على الرصيف وكان جسمها لينا وثوبها محبوكا ، فلم يسعه الا أن ينظر الى صدرها العارى ، وخصرها الهضيم وتحته ردفاها يرتجان ، وثناياها اللؤلؤية التى تفتر عنها شفتاها الحمراوان. . فرفع الكأس مرة أخرى وشرب وقال لنفسه : انه مسكين ومحروم محروم. ثم ارتد يقول ــ لنفسه أيضا ــ انه ليس مسكينا ولا محروما فان له زوجة جميلة ، وأن فى وسعه أن يعجب ما يشاء بجمال النساء غيرها . . ثم يسكن بعد ذلك الى زوجته ، وأن حسبه من السعادة وفاءها وبرها واخلاصها . ثم هز كتفيه ــ وان كان وحده ــ وقال : « وما قيمة أن يعجب المرء بالجمال وما خير ذلك ؟. وماذا يكون معنى هذا الاعجاب على مسافة أمتار ؟ لكأنى أنظر الى شريط سينما. . ولا فرق بين أن أرى الفتيات يخطرن على الرصيف أمامى ، وأن أرى صور النساء فى شريط السينما . انما تكون للاعجاب قيمة اذا جالس الرجل المرأة وحادثها ونعم بوجودها وحديثها وأنس بمحضرها على العموم . ولكن . . » وهز رأسه مرة أخرى متحسرا . فقد كان فيه احتشام وحياء شديد . وكان من غريب أمره أنه يجتنب المجالس التى يختلط الرجال فيها بالنساء . وكان يدعى الى سهرات من هذا القبيل عند من يعرف من الاجانب والمصريين ، فيعتذر ثم يروح يقرع نفسه ويسخط عليها . وكان حياؤه أو شعوره الشديد بنفسه يوهمه أنه ليس مقبول الشكل أو ظريفا ، ولا أنس لأحد به . وكان كثيرا ما ينظر الى نفسه فى المرآة ويدور أمامها ، ليرى كيف يبدو من كل ناحية . . فلا تعجبه الصورة التى تطالعه ، فيمط بوزه

ويقطب وينحط على أقرب كرسي ويروح يفكر فى سوء طالعه ، حتى أورثه هذا اضطرابا فى الأعصاب

وصفق ، فقال ماسح الأحذية : « حاجة يا بك ؟ »

فقال سعيد : « لا . . » وتردد فقال : « ناد الجرسون »

فوضع الرجل الفرشاة ونهض ، ولما عاد جلس وهو يقول: « أنا خدامك يا بك . . تحت أمرك . . بس أؤمر . أتمنى خدمة . . والله يا بك »

فدار رأس سعيد ، وقال لنفسه : « لم يبق الا هذا . . نعم لم يكن ينقصنى الا أن أستعين بهذا الرجل . . مصيبة . مثلى يخطر له أن يستعين على سد الفراغ الهائل فى حياته الجافة برجل من هذا الطراز . . ومع ذلك ، لم لا . . ؟وماذا يستطيع مثله . . انه لا يسعه شىء أعجز حتى أنا عنه ، لأنه اذا كان يعرف أحدا فانه لا يعرف ولا يمكن أن يعرف الا الطبقة التى هى كالشمس لكل الناس . . أعوذ بالله . . لا . . ليس هذا ما أريد . ومع ذلك من يدرى . . ألا يمكن أن أختبره ؟ . . »

وجاء الجرسون ثم انصرف ليجىء بالكاس الثانية ، فخطر لسعيد خاطر ، والتفت الى الرجل وقال : « اسمع . . انى أريد شقة صغيرة . . غرفتين فقط . . شقة أشتغل فيها . البيت ضجة وضوضاء . . شقة صغيرة هادئة . . فى حى محترم . . »

فأقبل الرجل على الحذاء يمسحه بهمة ونشاط ، وقال : « كثير يا بك . . بس أؤمر »

فقال سعيد : « طيب ابحث وابق قل لى »

فقال الرجل : « حاضر . . من عينى »

فرمى اليه قرشين ، فتقبلهما الرجل مسرورا داعيا مؤكدا صحة عزمه على خدمته باخلاص ، ومضى عنه

وتناول سعيد الكاس وشرب وهو يحدث نفسه ان هذا جنون. وماذا يصنع بالشقة ؟ أما ان أمره لغريب .. وهم بأن يدعو الرجل ويصرفه عن البحث ، ولكنه عدل وقال ان الأمر بيدى أنا لا بيده ، فلا داعى للعجلة . غير أنه مع ذلك استثقل أن يدع الرجل يظن به الظنون . وعاد يقول لنفسه انه رجل لا قيمة له ولا لظنونه ، فليظن ما شاء .. ولكن حملته على نفسه لم تفتر

وكان الليل قد أظلم ولم تبدد سواده المصابيح .. وكان هو فى النور ، فقدرته على رؤية الشارع محدودة.. فصارت الفتيات كالأشباح ، واتسع المجال بذلك للخيال ، فالدميمة منهن يحيلها الخيال فاتنة ساحرة. وساعدته الخمر على اتمام الصور ، وجلاء غامضها ، وعلاج عيوبها المرئية أو الموهومة. وكانت الخمر قد أنعشته قليلا ، فكان ينظر ويفكر ويتخيل بشىء من الارتياح .. ولكنه مع ذلك أحس أنه عاجز عن احتمال كل هذا الجمال ، وان كان أكثره مما رسم خياله ، فنادى الجرسون ونهض ..

ولقيــه ماسح الاحــذية وهو على الرصيف ، فسأله : « تجى بكره يا بك ؟.. »

ولكن البك لم تعد له أذن تستطيع أن تحتمل الاصغاء الى مثل هذا الرجل ، فقال له : « رح .. رح » فألح الرجل ومشى الى جانبه ، يقول : « ليه يا بك .. أنا خدامك .. بس استنى طول بالك .. ان ما كنتش أخدمك خدمة .. » فقاطعه سعيد ونهره .. ومضى عنه

والمثل يقول : « راحت السكرة وجاءت الفكرة » ولكن الفكرة تروح أحيانا مع الصحو وتجىء مع السكر .. أو على الأقل ، هذا ما كان من أمر سعيد ، فقد قال لنفسه انه اذا كان من العجز بهذا القدر .. فأولى به أن يظل عاجزا وأن يعترف لنفسه بذلك ويوطنها عليه . ولم يكن هذا الخاطر

مما يجلو الكآبة ويلطف الوحشة التى تحسها النفس،وأخلق بالاعتراف بضعف الحيلة وقلة الوسيلة وعدم الصلاح أن يزيد هبوط الروح ، ولا عجب اذا كان سعيد قد عاد الى بيته وهو يسأل نفسه لماذا شرب هذا الزبيب السخيف

ودخل على زوجته ، وهو يقول لها : « اسمعى..من الآن فصاعدا لا تدعينى أخرج ومعى فلوس .. بس الكفاية للانتقال .. فاهمة ؟ »

فظنت أن ما معه سرقه النشالون ، فقال : « لا .. بس شربت زبيب .. جنون بالطبع .. الرجال مجانين »

وارتمى على كرسي ، وهو يقول : « قال زينب .. كلام فارغ .. مسخرة وقلة حيا »

واتخذت كآبته صورة السخط على النفس ، ولا نعرف كيف كانت أحلامه فى تلك الليلة .. فانه لم يقصها على أحد ، ولكن الأرجح أنها لم تخل من « الزبيب والكلام الفارغ ! »



العقد الضائع

رجعنا من السويس على عجل ــ أختى وزوجها وأنا ــ وكنا نقضى فيها أياما ، فقد تلقينا نبأ من خادمتنا القديمة الأمينة « فرحة » بأن عمدة قريتنا قادم .. وسينزل علينا ضيفـا اجابة لدعوة قديمة نسيناها ، فأسرعنا نحشو الحقائب حشوا بلا عناية ، لنكون فى البيت قبل أن يصل . ومضى ابن عمى ــ زوج أختى ــ فجاء بالسيارة . وكنت قد هضت ساقى قبل ذلك بيوم، فلم يبق مفر من أن يسوق هو السيارة وان كان لا يحسن ذلك .. ولم يتلق فيه الا بضعة دروس قليلة . وكان الأحجى أن نستأجر رجلا لهذا ، ولكنا كنا نحرص على ألا يكون معنـا غريب يحول وجوده دون حريتنا فى الكلام والضحك واللهو أثناء الطريق . وقد عزيت نفسى بأن طريق السويس سهل والحركة فيه قليلة ، فلا داعى للخوف . وفى وسعه أن يخطىء كما يشاء .. فلن يضيره أو يضيرنا ذلك ، وان كان يخشى أن يضيع وقتنا

وجلست الى جانبه ، وجلست أختى على المقعد الخلفى ، وطمأنتها بأنى وأنا معـه سأكون السائق الحقيقى ، وانه لن يفعل الا ما آمره . ولكنا لسوء الحظ ، ألفينا الطريق غاصا بالسيارات .. فتعجبنا أولا ، ثم تذكرنا أن هذا يوم الأحد ، فلا عجب اذا كان الكثيرون قد أقبلوا على السويس ليقضوا اليوم فيه

وقطعنا بضع عشرات من الكيلومترات فى سلام ــ وفى ضحك أيضا ــ ثم بلغنا أول مرتقى فى طريقنا ، فأشرت على ابن عمى بأن يضع ناقل السرعة فى المحل الثانى .. ففعل ، فوقفت السيارة فى منتصف الانحدار . وكنا لا نزال فى مكاننا حين وقف المحرك للمرة العاشرة ، فاقترحت عليه أن يكف

عن العمل ، وأن يضطجع ويشعل سيجارة. ولكنه هز رأسه وقال : « هل أرجع بها القهقرى ، ثم أبدأ من جديد ؟ »

فقلت له : « كلا ، انى أفضل لسخافتى أن أواجه الموت »

فقالت أختى : « هل نستطيع أن ندفعها بأيدينا حتى نبلغ ذروة هذا المرتفع ؟ .. » قلت : « كلا .. ان زنتها لا تقل عن طنين »

وقال ابن عمى : « لن أسألك عن السبب فى وقوفها كلما حاولت أن أحملها على السير ، فانى أعرف جوابك .. ولكنى أؤكد لك انى أضع ناقل السرعة فى مكانه بأقصى ما يسع انسانا من الترفق والبطء .. واذا كنت تريد أن تعرف رأيى فهو أن السيارة قد أصابها تلف »

قلت : « سيصيبها التلف على التحقيق ، اذا ظللت تحاول أن تدير المحرك ثم توقفه .. فستنفد الكهرباء وتحتاج كلما أردت ادارة المحرك أن تنزل وتديره « بالمنفيلا » . وقد ينفعك هذا ، فيغريك بالتفكير قليلا »

فصاح بى : « أتظن أنى لم أفكر ؟ .. أتتوهم أنى لا أفكر الآن ؟ .. أن رأسى يكاد ينفجر من فرط التفكير » ..

فضحكت أختى ، فصاح بها : « نعم اضحكى .. أنظرى الى الجانب المضحك .. ولم لا .. قد يطير عقلى ، ولكن هل يجوز أن يمنعك هذا من الضحك ؟ »

وداس برجله الزر يريد أن يدير المحرك .. ووقفت السيارة مرات أخرى لا أذكر عددها فاضطجع وأغمض عينيه وراح يقول : « لا فائدة .. لا فائدة .. قضى الأمر ، وأنا واثق أنه كتب علينا أن نبقى هنا الى الأبد . ومن يدرى .. ربما كان فى الطريق مارد فى يده سيف مسلول .. والسيارة تراه وان كنا نحن لا نبصره . ومن العبث أن يقاوم المرء القضاء والقدر . كلا .. لا تتكلموا .. فانى أوثر أن أقضى نحبى فى سلام وبغير ضجة »

وفى هذه اللحظة وقفت الى جانبنا سيارة ونزل منهـا رجل لم نكد نبصره حتى أيقنا أنه انجليزى ، وحقق هو ظننا فقال لنا بلغته : « هل أستطيع أن أساعدكم ؟ »

فشرحت له الأمر وعرفته خطبنا ، فابتسم وهم بكلام ولكن ابن عمى قال له : « امض عنا .. اذهب .. وحدك .. ان أمامنا ماردا وقد حذر السيارة من المضى ففهمت عنه .. كان صريحا فيما قاله لها ، اذهب وأرجو لك السلامة »

فابتسم الرجل ودعاه الى النزول ، واتخـذ مكانه .. وصعد بنا الى رأس التل ، ولم يكتف بذلك بل ظل معنا ـ على مسافة منا .. وراءنا ـ حتى فرغنا من المرتفعات ، وصار الطريق بعد ذلك سهلا منبسطا ، فشكرناه ولكن أى شكر يمكن أن يفى بحسن صنيعه ومروءته ؟

وكان مساء .. ثم كان صباح

ولم يكن النهار قد ارتفع ولا كانت الشمس قد علت ، لما دخلت على « فرحة » توقظنى قبـل موعدى المألوف بساعتين ، وتخبرنى أن أختى تصيح على وتدعونى اليها فى غرفتها . وقد عجبت ، وحق لى أن أعجب .. فما أعرف موجبا لازعاجى فى مثل هذه الساعة المبكرة ـ السابعة من فضلك ـ ومع أختى زوجها ، فما حاجتها الى ؟ وقدحاولت أن أهمل هذه الدعوة ، ولكن « فرحة » أبت أن تمضى عنى وتدعنى أستأنف النوم .. فتمطيت وفركت عينى وتثاءبت وقلت لها : « ماذا هناك يا فرحة ؟ »

فقالت بلهجتها الهادئة المطمئنة وصوتها المتزن النبرات الذى لا أذكر أنه ارتفع عن هذه الطبقة مرة واحدة فى عشرين عاما قضتها معنا مذ كانت طفلة : « ان الامر يستدعى وجودك »

وفرحة عاقلة ذكية وحريصة دقيقة العبارة ، قد رباها أبى مع أختى وعنى بتعليمها أيضا ، وجعل لها حصـة فى الوقف الذي وقفه قبل وفاته . وكانت هذه مفاجأة سارة

لنـا ، فقـد أحببنا فرحة حب الأخت . وكانت هى ـ وما زالت ـ ربة البيت . ولسنا نعاملها معاملة الخدم وانما نعدها واحدة منا لها علينا مثل الذى لنا عليها . وحسبك منها ، أنها ما أخذت فى حياتها معنا أجرا على خدمة ، وأنها بعد وفاة أبينا لم تحاسبنا قط على ريع حصتها وان كنا نودعه البنك باسمها .. فاذا أرادت ثوبا أو خاتما أو غير ذلك طلبته منا ، كما يمكن أن تطلبه أختى منى أو من زوجها. فاذا كانت تقول الآن أن الأمر يستدعى وجودى ، فقد صار القيام لا بد منه

ودخلت على أختى وورائى فرحة ، فألفيتها مستلقية على السرير فى منامة قرمزية مزركشة ومعتمدة بكوعها على وسادة وثيرة مربعة محشوة بريش النعام وخدها على راحتها ويسراها على فخذها وبين اصبعيها سيجـارة .. وكان منظرها فاتنا فانها جميلة ممشوقة ، وكانت هذه الرقدة تبرز خطوط جسمها الرشيق وبراعة الانحناءات فيـه . وكان زوجها قاعدا فوق السجادة ، فنظرت منهـا اليـه وقلت : « لاعجب أن تدللها . لست بانسان اذا لم تفعل »

فابتسمت مسرورة وأدنتنى منها وقبلتنى ، وقالت : « اجلس هنا .. الى جانبى على السرير .. وأنت يا فرحة .. قصى عليهم الحكاية » فأراحت فرحة أناملها على شباك السرير وأشارت بيدها الاخرى الى منضدة صغيرة قريبة ، وقالت : « قبل أن أترك الغرفة وضعت بيدى عقدها ـ وأشارت الى أختى ـ على هذه المنضدة ، وفى الصبـاح دخلت عليها فلم أجده . وسألتها عنه فقالت انه فى مكانه ، فذهبت الى البك ـ تعنى زوجهـا فان فرحـة مؤدبة ـ وسألته فجعل يضحك ويتحسس عنقه ويقول انه ليس هنا .. هذه هى الحكاية »

فقلت متمما لها كلامها : « فجئتم بشرلوك هولمز ليحل

اللغز ويضع يده على اللص. . أشكر لكم هذه الثقة العظيمة»

فقالت أختى ، وهى تضحك : « العفو .. الواقع أن كل ما أذكره هو أنى قمت بالليل ، وغبت عن الغرفة دقائق ، ومررت فى عودتى بغرفة هـذا الزوج الصالح .. ولكن شخيره كان عاليا فهربت »

فنهض ابن عمى محتجا وقال وهو يتمشى : « شخيرى .. هل تريدين أن تقولى أنك أفردت لى غرفة من أجل شخيرى .. شخيرى .. ليتك ترين نفسك فى المرآة وأنت نائمة . اذن لرأيت كيف ترمين اللحاف وتضربين برجلك هنـا وبيدك هناك ، كالأطفال بلا أدنى فرق . لقد تزوجت طفلة حين تزوجتك .. تقول شخيرى .. مثل هذا الطعن القبيح على سيدها وتاج رأسها ، هل يليق يا فرحة ؟ »

فابتسمت فرحة ولم تقل شيئا . وماذا عساها تقول ، وشخيره يزعج الجيران حتى لقد جلا السكان عن هذا الحى ، وخربت بيوت أصحاب العمائر فيه

... وانتهت ضجة الضحك أخيرا ــ ولكل شىء آخر ــ فقلت : « ماذا كان شرلوك هولمز خليقا أن يصنع فى مثل هذه الحالة ؟ »

فصاح بى ابن عمى : « دع الفلسفة من فضلك .. الأمر واضح .. البيت موصـد من كل ناحيـة والمنافذ كلها مسدودة ، فالذى أخذ العقد لم يجىء من الخارج وانما هو ولا شك واحد ممن فى البيت »

فصحنا جميعا ــ ما عدا فرحة فانها مؤدبة .. « برافو .. برافو .. » فلم يعبأ بنا ومضى يقول : « الجديد علينا هو ابن العمدة .. فهو السارق »

فلما نطق بهذا ، صحنا به جميعا ــ حتى فرحة وان كانت مؤدبة ــ فلم ينهزم ، وقال وهو يعود الى الجلوس على الحشية : « لا بأس .. ولا داعى للصياح .. المسألة

بسيطة ، اذا لم يكن هو اللص فمن عسى أن يكون غيره ؟ »
فقلتُ : « أنت مثلا .. لم لا ؟ »

فقهقه ، فقلت : « ألا يمكن أن تكون قد أخذته لتضعه فى مكان أمين ثم نسيته كعادتك ؟ » انك هكذا وأنت تعرف ما يكلفنا نسيانك . قم انظر أين وضعت العقد ، واذكر الأسفنجة .. قبل أن تعترض وتحتج .. قم من فضلك »

فقالت أختى وهى تعتدل فى مجلسها : « يا سليم .. انى لم أخطىء حين أزعجتك .. كلا ، وأنا الآن واثقة أن ابن العم قد نسى أين وضعه »

فصاح بها محتجا : « ولكنى يا ستى لم أدخل غرفتك .. ودعتك – أعنى قبلتك ولا مؤاخذة يا سليم ، فهذه عادة الأزواج – ثم لم أعد .. فكيف يمكن أن أكون قد أخذته ؟ »

فقالت وهى تقف : « تذكر .. حاول أن تتذكر .. »

وزدت أنا على قولها : « جرب مرة واحدة أن تكلف هذا الرأس عملا .. لا تخف أن تتعب »

فمضى عنا الى الباب وهو يقول : « انى ذاهب الى الحمام .. »

وهنا ينبغى أن أقول أن العقد الذى غاب مما ورثناه عن أمى ، وهو من اللؤلؤ النفيس .. وكانت حباته نحو مائتين ، وأكثرها من الكبار فى حجم الفولة ، وقد رأينا أن نجعل منه عقدا واحدا صغيرا أعطيناه لفرحة ، وبقى الكبير وآخر صغير لأختى .. فكانت اذا لبست أحدهما تلفه على نحرها الجميل ، فغير معقول أن يسرق منها وهو على نحرها . على أن الأمر لا محل فيه للتخمين ، فقد قالت فرحة أنها وضعته على المنضدة .. وفرحة صادقة ، ثم أن ذاكرتها لا تخونها أو تعابثها كما تعابث ابن عمى – احمد – ذاكرته . ولم يكن أسخف من قوله – وان كان يمزح على عادته – ان ابن العمدة « حسن » هو الوحيد الذى تتجه اليه التهمة ،

فان « حسنا » هذا من سراة الناس ، وهو فوق ذلك من أقرباء أحمد الأدنين . وقد ذكرت ذلك لأريك الى أى حد يذهب احمد فى مزاحه

ولا أحتاج أن أقول اننا استقبلنا يومنا مكتئبين مهمومين محزونين ، فان للعقد قيمته الذاتية والمعنوية .. وقد كنا نتكلف المرح ونبدى صفحة البشر ونتلقى الأمر بما يشبه الاستخفاف ، لأننا اعتدنا أن نواجه الأمور على هذا النحو ، وربانا أبوانا على الجلد وضبط الاحساس . أما احمد فكان بطبيعته هزالا يركب الحياة بالدعابة والبشاشة والعبث ، وقد أحبنا وأحببناه وأنس بنا وأنسنا به ، فعاش معنا وآثر بيتنا على بيت أبويه ، وانتهى الأمر بما كان لا بد أن ينتهى به — أى أن يتزوج أختى — ولست أعرف أسرة أخرى تعيش هذه العيشة السعيدة الرغيدة . وحسبك أن المال موفور وأن الطباع رضية والأمزجة متطابقة

▭

ومن عادة أحمد أن يغنى وهو فى الحمام . ولست أعنى أنه يغنى الأصوات الشائعة ، وانما أعنى أنه وهو فى الحمام يصف كل ما يعمل ، ويرفع الصوت بالغناء بهذا الوصف . . فاذا كنت على مقربة من الحمام لم يسعك الا أن تسمعه يقول — أو يغنى على الأصح : « أين الاسفنجة يا سيدى . . لا بد أن تكون هذه الزوجة المهملة قد ضيعتها .. ومن يدرى يا حبيبى .. فلعلها خبأتها عمدا .. آه يا روحى . . وأين الكبريت . . أظننى نسيته . . هذا خازوق يا حبيبى . . وكيف أسخن الماء الآن .. يا لعنة الله انزلى على رأس الذى اخترع التدفئة بالغاز .. آه يا عينى .. والله وحسة .. نجد الكبريت فلا نجد القرش الذى نضعه فى الثقب لينطلق

الغاز .. ويسخن الماء فلا نجد الاسفنجة .. وأجد كل ذلك وأنام فى الحوض ، ويبدأ الشعور بالراحة واذا بالغاز قد فرغ . وأخذ الماء يبرد .. ويجب أن أخرج من الحوض لأضع قرشا آخر فى الثقب وأبحث عن الكبريت . . والكبريت مبلول .. معلوم يا سيدى .. أو الكبريت فرغ .. طبيعى .. أصيح .. ومن يسمع .. ألبس البرنس وأخرج لأجىء بكبريت .. خازوق آخر يا حبيبى .. لقد سيبت الغاز مفتوحا .. فالحمام كله غاز .. وستختنق يا ولد اذا لم تفتح النافذة .. أفتح يا سيدى وأبرد .. وحوح يا حبيبى من البرد .. الذى سمى هذا حماما كان ولاشك ابن حرام »

وهكذا الى غير نهاية .. ومن تحصيل الحاصل أن أقول اننا اعتدنا أن نقف قرب الحمام كلما دخل فيه احمد لنعرف ما يجرى فيه ، فنقع على الارض من كثرة الضحك . ولا بد أن يحدث له شىء لا يحدث لسواه ، لأنه كما أسلفت سريع النسيان .. ينسى أين وضع الاسفنجة وأنه رمى الكبريت فى الحوض ، وينسى أنه نسى أن يجىء معه بقروش ليضعها فى الثقب .. فانه يبقى فى الحوض ساعة وساعتين وهكذا . ولولا أنه نساء لعابثناه عامدين لنضحك ، ولكنه أغنانا عن ذلك

وكان حسن قد استيقظ ونهض ليلحق بنا ويجلس معنا ، فألفانا عند الحمام واقفين وان كانت المقاعد فى الدهليز ، فحيا بيده .. فأشرنا اليه أن اسكت .. ورآنا نبتسم وأحس من هيئتنا أننا نتسمع ، فمشى على أطراف أصابعه ووقف معنا يصغى أيضا ، وكان احمد يقول : « العقد ضاع .. قال ضاع .. كلام فارغ يا حبيبى .. والله ما أخذه الا هذا الحرامى الذى نزل فى ضيافتنا .. بالطبع سرقه . . فى عمر أمه ما رأت مثله . . الأقارب عقارب يا سيدى .. ضاع العقد يا ستى .. أنا المسكين يا حبيبتى

.. هات لى عقد غيره يا سيدى .. طبعا يا ماما .. من يدرى .. لعل العقد لم يضع .. أيوه يا سيدى .. لم يضع . الأرجح .. والمعقول أن يكون فى الدولاب .. أخفته الزوجة الصالحة لأشترى لها عقدا سواه .. النسوان ملاعين يا روحى . قالوا العقد ضاع .. ضاع فين يا أهل القونطة . لا يا ستى العقد فى الدولاب ، والغرض مرض »

وكان يبدىء ويعيد فى هذه المعانى .. فأما حسن فلم يفهم وكان ينظر منى الى أختى ، وكان يرانا نضحك فيتكلف الضحك مثلنا .. وأما أختى فضحكت أولا ثم لما سمعته يتهمها بأنها خبأت العقد لتطالبه بحلية .. تجهمت ، فشددت على ذراعها ، فنظرت الى مبتسمة وهزت رأسها ، وعاد الى وجهها الاشراق .. ولكنها لم يسعها الا أن تقول لنا ونحن نمضى عن الحمام قبل أن يخرج هو علينا : « شف .. ينسى أين وضع العقد ثم يدعى أنى خبأته .. طيب .. »

وقال حسن : « ألا تقول ما هى الحكاية ؟ »

فضحكت ، وقلت : « الحكاية باختصار أن أختى لا تجد عقدها .. وأحمد يتهمك بسرقة العقد .. لقد سمعته بأذنك .. والآن أفهمت ؟ »

وكانت هذه صدمة ، فان معرفة حسن بأحمد يسيرة ، وان كان من أقاربه الأدنين .. ولكنه احتمل هذه الصدمة ، وأسرعنا نحن فعرفناه بأساليب قريبه ، فضحك معنا . ولكنه مع ذلك صار يطرق من حين الى حين

وخرج احمد أخيرا ودخل علينا وفى يده صحيفة يتأملها وينظر الى الصور التى فيها فما كانت له عناية بقراءة الصحف . وجلس الى المائدة وأدار عينه فيما عليها ، ثم سأل : « ماذا أعددت لنا يا امرأة ؟ »

فاغتنمت أختى هذه الفرصة ، وصاحت : « ألا تنتظر حتى يستعد الباقون للأكل ؟ . ما هذه الشراهة .. ثم كيف

تزعم أنى أخفيت العقد لتشترى لى سواه ؟ ! »

فقال ببطء : « الجواب على السؤال الأول بالنفى .. النفى البات .. أما الشطر الثانى من السؤال ، فان الرد عليه يكون بعد الأكل .. فانه يحتاج الى عقل ، والعقل يذهب به الجوع » . فعادت تصيح به : « ولكن كيف تجرؤ ؟ »

فقال بهدوء : « من الغريب أنى جئت الى هنا لآكل لا لأتكلم أولا يا امرأة » . فقالت : « هل عنيت بالبحث فى ثيابك ؟ . بالطبع لم تعن .. »

فالتفت الى حسن ، وقال : « شف يا حسن .. شف .. احذر يا ابنى أن تتزوج .. لا عذر لك وقد رأيت بعينك ما تصنع الزوجات ببعولتهن »

فقال حسن : « أظن أنى سأتزوج .. وعلى فكرة كيف تسمح لنفسك أن تتهمنى بالسرقة ؟ »

فرفع احمد يديه الى السماء ، ثم التفت الى حسن وقال : « وأنت أيضا ؟ .. لم يبق لى عيش فى هذا البيت .. فلأرحل » . ونهض ، وقال : « يا امرأة ، انى فى المكتب »

لم ندع مكانا فى البيت الا بحثنا فيه ، ولا ثوبا فى خزانة أحمد الا نفضناه وقلبنا جيوبه .. حتى السجاجيد رفعناها ونظرنا تحتها .. حتى الستائر نحيناها وأجلنا عيوننا فيما وراءها وفيها أيضا مخافة أن يكون حبل العقد قد علق بشىء منها . فلم نجد عقدا ولا حبة من عقد ، فيئسنا وحل الاكتئاب محل البشر ، فقد كنا الى ما قبل ذلك نعتقد أن العقد موجود فى مكان ما ولكن أعيننا لا تراه . وقد أعدنا البحث مرة أخرى لظننا وتوهمنا أننا تخطيناه بعيوننا ونحن نديرها كما هى العادة فى حالة الاضطراب . ولم يكن احمد يعفينا من مزاحه فى خلال هذا البحث المتعب .. فلما كففنا ، قال وهو يضطجع ويشعل سيجارته : « لا فائدة .. لقد كنت أعلم من أول الامر أن لا فائدة .. قلت لكم مائة

مرة أن هذه الزوجة تعرف أين يوجد العقد .. نعم ، هى خبأته » . فصاحت به : « ألا يمكن أن تسكت ؟ »

فقال : « أسكت كيف .. وأنت تحملينا كل هذه المشاق من أجل خرزات ؟ » .. ولم يتمها . فقد هجنا به احتجاجا على وصف حبات اللؤلؤ بأنها خرزات

ولما هدأت الضجة ، قالت أختى : « اسمعوا .. انى لم أعد أطيق البقاء هذا النهار فى البيت ، فلنذهب الى أى مكان آخر ولنتغد هناك »

وكان هذا اقتراحا حسنا ، فان بقاءنا فى البيت كان خليقا بأن يغرينا باستئناف البحث مرة وأخرى ، فنشقى على غير جدوى . فمن الخير أن نخرج وأن نقضى النهار فى مكان آخر ثم نعود .. ومن يدرى ؟.. فقد نجد العقد تحت عيوننا حين نعود كما يحدث كثيرا . وما زلت أذكر كيف كنت أبحث مرة عن قلمى وكانت أختى معى ، فلما تعبنا جلسنا على الكراسى وهممت بأن أخرج سيجارة واذا بالقلم بين أصابعى .. ومن الغريب أن أختى لم تره فى يدى كما لم أره . وقد ذكرت أختى بهـذه الحـكاية أو الحادثة ، وفى مرجوى .. أن أبعث فى نفسها الأمل ، فلا تقضى النهـار يائسة ، وان كانت تتشجع وتتجلد ولا تبدى جزعا

وقمت الى حمامى على حين راح غيرى يلبس الثيـاب استعدادا للخروج .. وكان طبيعيا أن يفرغوا من شأنهم قبلى وأن يستبطئونى ، فانى أنا فى حركة دائمة فى الحمام ، وهم لا يصنعون شيئا بعـد أن لبسوا الثيـاب ووقفوا ينتظرون .. وليس أشد على المضطرب القلق من الانتظار . فأقبلوا على باب الحمام يدقون عليـه بأيديهـم وينقرون بأصابعهم ، ويدعوننى أن أسرع ..

وأخيرا خرجت .. فما يمكن أن تكون لمستحم راحة أو لذة وعلى بابه من يصيحون به ويسمعونه ما يكره ، فلحقوا

بى فى غرفتى ولكنى أخرجتهم منها بجهد .. فانى مستعد أن أحتمل كل شيء الا أن يحيط بى هؤلاء الصائحون الصاخبون وأنا ألبس . على أنى أسرعت وعجلت لأتقى شر هجومهم على كرة أخرى ، وكانت ساقى لا تزال أحسها ثقيلة مما أصابها فى السويس وهاضها ، وان كانت لا تؤلمنى . فلما صرت اليهم فى الردهة وقفت هنيهة أدعكها بكفى لألينها ، فسألتنى أختى : « ألا تزال تؤلمك ؟ »

قلت : « كلا .. لا ألم ولكنى أحسها ثقيلة »

فقال ابن عمى : « كلك ثقيل يا أخى .. تعال »

فقلت : « ولكنى حقيقة أشعر أنها أثقل مما كانت أمس »

فقالت أختى : « طبيعى .. هذا من الجهد الذى تكلفته اليوم فى البحث »

فاقتنعت ونزلنا الى الباب ، وكان ابن عمى قد جاء بالسيارة قبل ذلك وتركها أمام الباب ، فجلست أختى ومعها حسن على المقعد الخلفى ، واتخذ أحمد مكان القيادة ، وقلت له وأنا أفتح الباب الآخر لأجلس الى جانبه : « لعل درس الأمس نفعك ، فلا تكرر أخطاءك المعتادة »

فزام أولا ، ثم قال : « ولكن اذا كنتم تريدون أن أشرفكم بتولى القيادة العامة .. أفلا يحسن أن أعرف الى أين يراد منى أن أحملكم ؟ »

فقالت أختى : « أوه .. الى أى مكان .. الى القناطر الخيرية اذا شئت أو الى أى مكان تحب »

قال حسن : « الى القناطر اذن . اركب يا هذا .. أم تريد أن أنزل وأحملك ؟ »

وكان الركوب يحوجنى أن أحمل ساقى بيدى ، لأن ثنيها كان يؤلمنى فى موضع الركبة .. فجلست على المقعد ووجهى الى الباب وملت على ساقى وهى ممدودة لأحملها وأدور بها لأدخلها فى السيارة . ثم ارتددت ضاحكا ، فسألتنى أختى

عن الخبر ، فقال لها زوجها : « دعيه .. انه يحلم . لا يزال نائما .. ألا ترين ؟.. أعنى ألا تسمعين ؟ »

فمسحت أولا الدموع التى ترقرقت فى عينى من فرط الضحك،ثم مسحت بطنى التى صارت توجعنى..ثم تنهدت وقلت : « أخ .. مسألة ظريفة جدا »

فقالت أختى : « ولكن ما هى الحكاية ؟ . أتظن أن من اللائق أن نقف ساعة أمام الباب ؟ »

قلت : « أظن أن الواجب أن ندخل .. نعود الى البيت دقائق قبل أن نخرج الى رحلتنا »

فنهضت أختى عن مقعدها قليلا وزحفت الى الأمام مقدار شبر ووضعت كفها البضة على كتفى ، وقالت : « لا تعذبنى انطق » . قلت : « لا حاجة بى الى الكلام .. خذى »

وانحنيت فأخرجت العقد المفقود من طية البنطلون عند حرفه ، ورفعته الى عينها وقلت : « لقد كنت أظن أن ساقى اليوم أسوأ مما كانت أمس لأنى أحسها أثقل .. فالآن عرفت السبب ، ولكنى لا أعرف كيف سقط العقد فى طية البنطلون »

ولا أزال الى الآن أجهل كيف أمكن أن يحدث هذا ، وانما الذى أعرفه أن أختى نعمت فى يومها هذا ، وأن ابن عمى حاول أن يركبنى بعبثه المألوف .. فوضعت كفها على فمه ، فقبل أصابعها ، ثم عضها ، فصرخت . فقال : « هذا جزاء من يدافع عن السراق واللصوص والخونة ! »

الجارة

كثيرا ما أطلب العزلة والهرب من الناس لا لأنى أكرههم أو أنفر منهم ، بل ليتسنى لى أن أخلو بنفسى وخواطرى . ولست أعنى أنى أشتهى أن أكون فى مكان خلاء . وانما أعنى انه يحلو لى أحيانا أن أرى أن كل من حولى ممن لا أعرف . ولا أدرى كيف هذا .. ولكنه يخيل الى حين يتفق لى ذلك ، أنى خلعت ثيابى على ساحل بحر ورميت نفسى على مائه ورحت أسبح فيه ، وأضرب بذراعى ورجلى، وأفعل غير ذلك مما يفعل السابح . وما أعرف من السباحة شيئا .. وانى لشبيه بابن الرومى الشاعر الذى يقول فى بعض شعره انه لم يتعلم من السباحة سوى «الغوص» وانه لو ألقى به فى الماء لسبق الحجر . ولكن هذه هى الصورة التى ترتسم بذهنى حين أرانى فى حشد كبير ممن لا أعرف من الخلق . وكثيرا ما يسألنى اخوانى : « أين كنت البارحة ؟ » فأقول : « كنت فى السينما » فيسألوننى : « وحدك ؟ » فأقول : « نعم مع الأسف » ولا داعى للأسف ، ولكنى أقول ذلك لهم على سبيل المجاملة ، فيقول قائلهم : « ولم لم تخبرنا ؟ .. اذن لذهبنا معك وأنس بعضنا ببعض » فأقول : « أى والله .. ولكن هذا هو الذى كان ، فلندعه الى الحاضر الذى نحن فيه »

وفى نوبة من هذه النوبات ، ركبت سيارتى وانطلقت بها الى سينما « المتروبول » وأنا أحدث نفسى بما أرجو أن أفيده من السرور والمتعة حين أرى تلك الطفلة الفاتنة «شيرلى تمبل» من غير أن يكون الى جانبى أحد يقول لى : « انظر .. يا سلام أما أنها لراقصة .. يا للبراعة . كيف استطاعت أن تجيد التمثيل الى هذا الحد ؟ . ترى كم ينقدونها أجرا لها فى

الاسبوع ؟ .. » الى آخر هذا الهذر الفارغ الذى يفسد على كل متعة

ووقفت أمام الشباك ومددت يدى الى الفتاة بثمن التذكرة ، واذا بيد على كتفى .. فأبيت أن ألتفت الا بعد أن آخذ التذكرة ، ويحل غيرى محلى أمام الشباك مخافة أن يكون هذا صديقا فيلازمنى ، وماذا يبقى لى حينئذ من الوحدة التى أطلبها وأحدث نفسى بحلاوتها . ومن يدرى أى صديق هذا ؟.. فقد يكون ممن أحب وآنس بهم وأرتاح اليهم ، وقد يتفق أن يكون من الثقلاء الذين يفرضون أنفسهم على الناس ، فلا مهرب لمن يقعون عليه . وأحسست أنى نجوت فقد اخترت مقعدا بين مقاعد أخرى ليس واحد منها خاليا ، فأنا على الأقل فى أمان من جيرة هذا الذى وضع كفه على كتفى . ووسعنى أن ألتفت اليه وأنا مطمئن لأرى أى انسان هو .. فلم يخب ظنى ، فقد كان ممن ينبغى أن يهرب المرء منهم ويسأل الله السلامة من صحبتهم ، فسألنى : «وحدك ؟» فكرهت أن أكذب واكتفيت بأن أشير بيدى ، وأنا أمضى عنه ، اشارة قد يكون معناها أن معى غيرى أو أنى ذاهب الى مكان ما أو غير ذلك ، مما يمكن أن يفهمه الانسان من اشارة غامضة كهذه

ونجوت بنفسى ، وكان فى الوقت متسع .. فقلت لنفسى : أنى أخشى أن يلحق بى فلأبعد . فرحت أتمشى على الرصيف فى شارع فؤاد — وهو يغص بالناس فى مثل هذه الساعة — فجعلت أنظر الى الرائحين والغادين أو لعل الأصح أن أقول الرائحات والغاديات وهن مقبلات ومدبرات فى ثيابهن المحبوكة التفصيل التى تبدى منهن أكثر مما تستر . نعم تستر الجسم ، ولكنها تعرض على عينك صورة للقوام هى أبرع من صورة البدن العارى . فقد يكون الثدى مسترخيا

فيرفعه ويبرزه الرباط ، وقد يكون الخصر أكثر امتلاءا مما يجب .. فيرده حسن التفصيل أهيف ويبرز من تحته الردفين . ولم أزل أتمشى حتى آن أن أعود ، واذا فتاة أعرف وجهها ولا أجهل أين بيتها ، فانه قريب من بيتى .. وكثيرا ما رأيتها فى شرفتها أو داخلة أو خارجة من البيت أو نازلة من الترام . وأحسبها تعرفنى كما أعرفها ، فقد لفتت وجهها وأطالت النظر الى – فى عينى – فبيننا معرفة يسهل جدا أن تصبح وثيقة فى أوجز وقت ، اذا أمكن أن يفتح أحدنا فمه بكلمة . ولكن من هو الذى ينبغى أن يبدأ ؟ أما أنا فانه من العسير على – بل من المستحيل كما تبينت ذلك بالتجربة المرة – أن أبدأ انسانا لا أعرفه بكلام ، رجلا كان أو امرأة . وقد خطر لى وهى تنظر الى – لا بل تحدق فى وجهى – أن فى وسعى على الأقل أن أبتسم . ولم لا ؟.. ان الابتسامة تحية ظريفة ، فاذا قابلتها بمثلها انتهى الأمر ، واستطعت أن أنتقل أو أترقى الى الكلام . واذا أغضت عنها كأنها لم ترها ، ففى مقدورى أن أعزى نفسى بأنها خجلت أو أنها خشيت الا تكون هى المقصودة بها . واذا قابلتها بالعبوس أو غير ذلك من مظاهر الامتعاض والنفور ، ففى امكانى أن أزعم لنفسى مغالطا أنى لم أكن أعنيها حين تبسمت، وأن أهز كتفي استخفافا بها كأنما أريد أن أقول أنها ليست المرأة الوحيدة فى هذه الدنيا ، وأنها ليست أجمل الفتيات ، وأنها حرة .. ولها اذا شاءت أن ترفض نعمة الاتصال بى

دار كل هذا بخاطرى ، وأنا أنظر اليها وهى تنظر الى ، وكان ينبغى أن أتبسم .. فما فى ذلك بأس ، ولكنى لفرط شعورى بنفسى خشيت أن أبدو كالأبله ، ووددت فى هذه اللحظة لو أن معى مرآة فأنظر فيها الى وجهى ، وأرى كيف يكون حين ابتسم لفتاة لا أعرفها . ولكنى أرجو أن تفتنها

الابتسامة وتغريها بمثلها ــ على سبيل التجربة ــ وأين المرآة ؟.. ومتى كان الرجال يحملون المرايا معهم كالنساء ؟ وهب مع الرجل مرآة ، فهل يستطيع أن يخرجها ويتأمل وجهه فيها ويروح يبتسم وحده وهو يفعل ذلك كالمجنون ؟!

وذهبت الفتاة وغابت عن عينى ، وأنا أحدث نفسى بهذه السخافات .. وضاعت الفرصة وأزف الوقت ، فعدت الى السينما وأنا أقول لنفسى : « ألم يكن فى وسعى أن أدنو منها وأقول لها مثلا أننا جاران من قديم أو كلاما آخر كهذا .. كلاما أبرع من هذا وألطف وأوقع فى النفس فان كونها على طريقى الى البيت لا يستوجب أن تعرفنى وأعرفها ؟ »

وذهبت أنشىء أحاديث وأتخيل حوارا بينى وبينها من أظرف وأرق ما يمكن أن يخطر على البال ، وكنت وأنا أتخيل ذلك أحس أن وجهى ترتسم عليه المعانى التى تدور فى نفسى .. فخجلت وخفت أن يرى الناس ذلك منى فيتعجبوا ويشكوا فى عقلى ــ أعنى فى صحته ــ وكنت قد بلغت المدخل ، فدفعت « التذكرة » الى العامل فتقدمنى ووقف عند صف ، وأشار الى موضع الكرسى وقال : « السادس » فسألته على سبيل التثبت : « الثالث ؟ » قال : « لا . لا . لا .. السادس .. » فاستأذنت الجالسين ودخلت بظهرى ــ أعنى أن ظهرى كان اليهم وأنا أخطو أمامهم متحرزا ــ فلم أر وجوههم ثم جلست وبدأت أتلفت ، فما راعنى الا أن الفتاة جالسة الى جانبى ..

ولا أدرى لماذا فزعت .. وقد كان المعقول أن يسرنى هذا لأنه يتيح لى فرصة جديدة ، فقد تلتقى يدى بيدها أو تقع رجلى على رجلها فأعتذر بأدب وأعرب لها عن الأسف فيفتح باب الكلام الموصد . أو قد تضحكنا « شيرلى » بنكاتها أو بحسن أدائها فألتفت الى جارتى فأراها تضحك مثلى ، ويمنعها السرور فى هذه اللحظة السعيدة أن تعبس أو تقابلنى بالجفوة . ولكنى فزعت كما قلت ولم أشعر

بسرور . وانما كان فزعى لأنى توقعت أن أعجز عن اغتنام هذه الفرصة الطويلة ــ وهى اذا ضاعت لا يمكن أن تعود ــ فأروح أوسع نفسى بعد ذلك تأنيبا وتقريعا وذما وهجاء .
وأدرت عينى فى المكان لأرى هل فيه من يعرفنى .. أو على الأصح من أعرفه أنا .. فان من عوامل التشجيع أن يشعر المرء أنه غير معروف ، وخجل المرء ممن يعرف أقوى من خجله ممن لا يعرف فى مثل هذه المواقف .. على أنى لست على يقين من هــذا ، فقد يكون وجود الاخوان دافعــا الى الجرأة ، والانسان لا يسره أن يعرف أصدقاؤه أنه جبان

ولم أر وجها أعرفه ، فأخــرجت سيجارة وأشعلتها ، ورحت أدخن . وخطر لى وأنا أفعل هــــذا أنه يحسن أن أستأذنها .. فلعلها لا تحتمل الدخان ، وهذا أدب لا ضير منه ، ثم أنه مألوف . ولكن الوساوس لم تترك لى راحة . فقد قلت لنفسى انى أستطيع أن أستأذن أى فتــاة أخرى فلا تستغرب ولا تستريب ، أما هذه فانها خليقة أن تتوهم أنى أتحكك بها واحتال للكلام معها . ثم عدت فقلت لنفسى أنى أريد أن أكلمها ، وما أظن بها الا أنها تعرف ذلك . نظرتى اليها تشى بهذه الرغبة . ولماذا لا أكلمها ؟.. أى بأس هناك فى ذلك ؟.. ولماذا أقدر أن يسوءها كلامى ؟ . ومن يدرينى أنها لا ترغب فى كلامى ؟. ولكن ماذا بالله يدعوها الى الرغبة فى قزم دميم الخلقة مثلى ؟ . سخافة .. كلا ، لست دميما الى هذا الحد المنفر .. ثم ان رأى المرأة فى الجمال غير رأى الرجل .. أوهوهو .. لقــد وصلت الى الكلام فى الجمال . أما أنى والله لسخيف ..

وضحكت .. فالتفتت الى مستغربة ، فليس من المألوف أن يضحك العاقل وحده ومن غير أن يكون هناك ما يوجب الضحك . فلها العذر اذا كانت قد استغربت .. ووجمت أنا ، وخيل الى أنها تنحت قليلا . ومن المحقق على كل حال أنها لمست طرف المعطف وكان متدليا، فجعلته على فخذها .

فسخطت على نفسى وصببت وجهى فى قالب صارم من الجد ، وجعلت عينى الى الستار لا أحولها عنه

وبدأت الرواية ووضعت كوعى على المسند - عفوا - وكانت كفها عليه أيضا .. فلمسها كمى ، فجذبت يدى وتمتمت بألفاظ اعتذارلم أسمعها أنا ، فكيف بها ؟ ولم يسعنى الا أن أضع يدى على ساقى . ولم أعد أرى أو أسمع شيئا من الرواية . وكانت نفسى تقول لى بصوت غليظ فيما أحس : « انك بليد .. هذا أنت .. وحمار أيضا .. أين جرأتك ؟ .. لماذا تجفل من هذه الفتاة الوديعة التى تتوقع منك أن تكلمها والتى وطنت نفسها على ذلك واستراحت اليه ؟ . هل بلغ من سخافتك وجبنك أن تتوقع أن تبدأك هى بالكلام ؟ . اجترىء يا شيخ . لقد كان أجدادك الأولون يخطفون النساء خطفا ولا يبالون شيئا ، وكان النساء يسرهن ذلك . وقد ذهب زمان الخطف بالقوة ، ولكنه بقى - وسيظل باقيا - ان المرأة تنتظر من الرجل أن يهاجمها ، بالكلام على الأقل .. ثم بعد ذلك بالقبل والضمات والعناق »

فقلت لها : « استحى يا نفس .. اننا فى سينما .. وهذا الكلام .. هذا التحريض على الأعمال الفاضحة لا يليق .. اننى رجل متمدين ولست وحشا كما كان آبائى »

فسخرت منى نفسى ، وضحكت .. نعم ضحكت الملعونة ضحك السخر والزراية .. فكدت أجن ، ولكنها لم تعبأ بذلك وذهبت تقول : « أين المدنية ؟. سبحان الله العظيم ! وهل المدنية تمنع أنك انسان وأن شعورك بالمرأة هو نفس شعور جدك الأعلى الذى كان يسكن الكهوف والغيران ؟ .. أو تخشى أن تغضبها بالتطفل عليها ؟ .. فاعلم أن المرأة انما يغضبها أن ترى الرجل بليدا جبانا . هذه يدها على مسند الكرسى فضع يدك عليها . نعم لا تخف .. وماذا تخاف ؟. انها لن تأكلك ، بل ستترك كفها تحت كفك وتنعم بملامستك

لها .. .. أدن ساقك من ساقها .. انقل اليهـا بعض الحرارة التى فى جوفك . قرب فمك من خدها .. يا له من خد أسيل .. هل رأيت أحلى منه ؟. دع أنفاسك تصافح هذا الخد . قد انتهى الفصل الذى لم ترمنه شيئا وأضيئت الأنوار ، فادع هذا البائع واشتر منه قطعتين من الشكولاتة المثلوجة وقدم لها واحدة وتبسم . تبسم يا شيخ .. هل أنت قطعة من جليـد القطب الشمالى ؟ »

ولكنى استحييت أن أفعل ما تشير به هذه النفس .. فظلت تقرعنى طول الفصل الثانى وتفسد على قصة «شيرلى»

وانتهت الرواية ، فنهض الناس ونهضت .. وأولتنى الفتاة وجهها ، فأفسحت لها لتخرج قبلى ، فقالت «مرسى» فابتسمت ابتسامة عوجاء وتحركت شفتاى ، ثم فتح الله على فقلت لسخافتى : « تفضلى » فابتسمت وقالت مرة أخرى : « مرسى » والخطوة الاولى هى الصعبة ، كل شىء يسهل بعدها .. فلا غرابة اذا كنت وجدت لسانى الذى كأنما كانت به عقلة ، فقلت لها : « أظن أننا جاران » قالت وهى تضحك : « أظن ذلك »

قلت : « اذا كان طريقك الى البيت ، فان معى سيارة صغيرة تحملنى .. فاذا خربت حملتها أنا »

قالت : « أعرفها .. لا تطعن عليها .. رأيتك فيها كثيرا »

قلت : « سنجد السـيارة ترقص » قالت : « ولمـاذا ترقص ؟ » قلت : « طربا .. ألست تثنين عليها ؟ ليتنى أنا السيارة »

وفتحت لهـا بابها وقلت لنفسى وأنا أدور الى البـاب الآخر : « أرأيت ؟.. ان أساليب المتوحشين لا تصلح لهذا الزمان .. انك نفس قديمة .. عتيقة »

فقهقهت اللعينة وقالت : « لولا درسى .! على كل حال العبرة بالخواتيم »

البحث عن الذهب

وجدت صديقى ينتظرنى ـ كما وعد ـ فدخلنا معا وجلسنا متقابلين الى مائدة صغيرة ، وبدأنا بأيدينا ففركناها .. فقد كان البرد شديدا ، وكان كلانا قد خلع المعطف والطربوش ، وكانت الحجرة دافئة ولكنه لم يكن قد مضى من الوقت ما يكفى لانتقال الدفء الى أبداننا . ثم أكب صاحبى على البيان الذى فيه ألوان الطعام ، وجعل يسردها لى لأتخير ما يطيب لى منها . وفرغنا من ذلك بعد طول التردد ، وانصرف العامل بدفتره الذى دون فيه ما طلبنا ، فقال صديقى وهو يميل على المائدة : « والآن ما العمل ؟ »

قلت : « هذا هو السؤال الأبدى .. وما أظن بنا الا أننا سنظل نسأل عن ذلك طول العمر ـ طال أم قصر ـ المسألة مسألة حظ يا صاحبى »

فقال : « كلا .. لا بد أن هناك وسائل لاكتساب المال بسرعة .. كثيرون يفعلون ذلك . وهذا دليل على أن الوسائل موجودة ، ولكننا نحن ـ لسبب ما ـ لا نهتدى اليها »

قلت : « فليكن الأمر كما تصوره ، فلست أرى أن هذا يجدينا شيئا »

قال : « ولكن لا بد أن تكون هناك وسيلة »

قلت : « اذا كان ينفعك أو يريحك الايقان من ذلك .. فأيقن وأرح نفسك »

فقال وهو يهز رأسه : « نحن اثنان .. كلانا محتاج الى مبلغ حسن من المال .. والحاجة ملحة والسرعة لا مفر

منها . لا سبيل الى الاقتراض ، لأن الذين يقرضون يطلبون ضمانا .. شيئا يطمئنون به على مالهم .. سخافة .. ولماذا ينبغى أن نرد شيئا ؟.. ألسنا أحق بالمال من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينفقونه ويروحون يكنزونه ويدفنونه فى خزانات أو فى قدور يدسونها تحت الارض ؟ »

فضحكت ، وقلت : « هذه باشنفية »

قال : « لا تصدق .. آه لو كنت غنيا ، اذن لصارت الدنيا أرغد وأهنأ »

قلت وأنا أبتسم : « ماذا كنت تصنع ؟ »

قال : « أصنع ؟. أتسأل ؟. كنت أضع المال فى صرر وأرمى بها لمن أتوسم فيهم أنهم أهل لأن يكون فى يدهم مال » – وأطرق شيئا ثم رفع رأسه وقال : « هل تعرف انى زرت اليوم أختى ؟. انها غنية كما تعرف .. وكيف لاتكون غنية وهى لا تنفق شيئا ؟ فلما دخلت عليها وفتحت فمى لأتكلم ، رفعت يدها وقالت : « ولا مليم » فغضبت وصحت بها ونهرتها عن هذا السلوك . أكدت لها مائة مرة انى محتاج الى قليل من المال ، فوقفت وأكدت لى انى سأكون محتاجا الى هذا المال حين أخرج من بيتها .. سلوك يطير العقل .. فهل تسمى هذه أختا ؟.. انى أتصور أختا ظريفة لطيفة سخية كريمة تعطينى وهى تعتذر وتملأ يدى وهى مغضية . هكذا تكون الأخت »

فقلت : « لماذا لا تفكر فى طريقة لكسب المال ؟ »

فقال بلهجة الاستنكار : « أفكر ..؟وما الفائدة من التفكير .. لا فائدة ما دامت الدنيا مقلوبة . آه لو كان لى سلطان فى هذه البلاد ، اذن لعقدت امتحانا كل ثلاثة شهور للأغنياء .. يجلس أعضاء اللجنة ويقف أمامهم الغنى ، فيقول له أحدهم : « كم تملك يا مولانا ؟ » فيقول : « ألف فدان ونحو مائتى ألف جنيه فى المصرف ، وعمارتين – كل

منهما ذات سبع طبقات فى شارع الملكة نازلى . فيقول أحد الأعضاء : « وماذا تصنع بكل هـذه الثروة ؟ » فيقول : « أوه لا أصنع شيئا .. كل ما زاد على حاجاتى الضرورية جدا أضيفه الى المدخر » فتقول اللجنة : « شىء جميل .. أهذا رأيك فيما ينبغى أن يصنع المرء بالمال ؟.. لا بأس.. اسألوا احمد ـ أى العبد الخاضع المطيع ـ ماذا يكفيـه ، فأقول ردا على السؤال : « أوه يكفينى القليل .. خمسون ألفا . كفاية .. أعنى مؤقتا » فتقول اللجنة : « احمد هذا رجل يحسن انفاق المال .. أعطوه ما يطلب » فأقبض المبلغ وأشكرهم وأفرك يدى وأقول : « اذا سمحتم لى يا حضرات الأعضاء الموقرين ، أستأذنكم فى لفت نظركم الى رجل يعرف كيف يعطى.. بارع جدا فى الانفاق » فيسأل أحدهم : « من هذا ؟ . قل بسرعة » فأقول : « انه المازنى » فيقول : «آه صحيح .. كيف نسيناه .. هاتوه حالا .. علينا به . اقبضوا عليه فى حيثما تجدونه » فيقبض عليك الشرطة ويجرونك مصفدا الى اللجنة ، فيضحك الاعضاء ويقولون : « خذ .. خذ .. خذ أيضا » فتخرج معى مسرورا .. وتروح تنفق باليمين وبالشمال حتى يحين موعد الامتحان التالى . ما قولك ؟ »

فقلت وأنا أضحك : « شىء عظيم جدا .. ولكن الى أن يتيسر أن تلى أمور الناس ، ماذا تصنع ؟ »

فقال : « آه هذه هى المسألة .. ما رأيك أنت ؟ »

قلت : « يمكننا أن نكسب الورقة الاولى الرابحـة من يانصيب المواساة أو اليانصيب الارلندى »

قال : « هذا ممكن .. ولكن ذلك يتطلب أن ننتظر بضعة شهور والعجلة من الشيطان »

قلت : « صدقت .. يمكن أن نخترع شيئا ونحتكر بيعه ـ وصنعه بالطبع ـ فنغتنى »

قال : « صحيح .. فكرة لا بأس بها .. سأدون هذا فى مذكرتى .. تنفع فى المستقبل .. وعلى ذكر ذلك ، ماذا نخترع ؟ »

قلت : « باب الاختراع واسع .. واسع جدا : مثلا نخترع طريقة تجعل السيارات تستغنى عن البنزين وتكتفى بالماء — أو حتى بالهواء — أو نخترع بديلا من النقود فان النقود هى أصل البلاء فى هذه الدنيا .. أو نخترع .. »

فقال : « يكفى .. يكفى . ولكن هذا كله يحتاج الى زمن .. والمطلوب هو الاهتداء الى وسيلة تكفل اعداد المال اللازم فى أربع وعشرين ساعة .. أنا أقول لك ! »

فقلت وأنا أضطجع وأرسل الدخان من فمى خيطا ملتويا ، بعد أن فرغنا من الطعام : « يظهر أن الضرورة تفتق الحيلة حقيقة »

فقال : « معلوم .. اسمع .. أترى هذا الرجل القاعد هناك فى الركن الأيمن ؟ أترى كيف يأكل ؟ أترى كرشه المدورة كالكرة ووجهه المنتفخ ، وكيف يفتح عينا ويغمض أخرى ، وينظر حوله قبل أن يدس اللقمة فى فمه كأنما هو يخشى أن يراه أحد ؟ . الحق أقول لك انى أكره وجهه ولا أرتاح الى النظر اليه »

قلت : « يا أخى لا تنظر اليه .. دعه وحول عينك عنه »

قال : « ولكنى لا أستطيع .. أنه وجه سوء ، لا يمكن أن يكون هذا الرجل من أهل الخير .. انه ممن لا يؤتمنون على القصر والأيتام والآرامل . . هذا الرجل لا بد أن يكون منطويا على أسرار يكره أن تذاع .. لأن وجهه ناطق بأنه شرير . فلو قمت اليه الآن وهمست فى أذنه انى أعرف سره الذى يجاهد لاخفائه ، ألا تظن أنه يفزع ويضطرب ويشترى سكوتى بأى ثمن ؟ »

فقلت : « أها !. أهذه طريقتك ؟. أتريد أن تبتز المال من الناس بهذه الوسائل ؟ »

قال : « المصيبة أنى لا أستطيع .. تنقصنى الشجاعة ، ولكنى واثق انى أنجح اذا استطعت أن أصنع هذا .. ومع ذلك لكل انسان سره القبيح .. ولو أن واحـدا جاء الى ووقف على رأسى الآن وحدق فى وجهى ، ثم هز رأسه هزة العارف بكل ما هناك ، ثم قال : انى أعرف سرك يا احمد ، لما وسعنى الا أن أضطرب .. على كل حال يظهر أنه لافائدة .. لا أمل فى مال كثير نحصل عليه بالسرعة اللازمة »

قلت : « صدقت لا أمل »

قال : « خسارة .. سأظل أتحسر لأنى لم أجد الشجاعة الكافية للوقوف على رأس هذا المجرم ــ هو مجرم ولاشك ــ وابلاغه انى أعرف باطنه كما أعرف ظاهره البادى لنا .. خسارة .. نهايته .. نقوم ؟ » . قلت : « تفضل »

ودفع الى الخادم ثمن الطعام وخرجنا ..

وقلت لصاحبى وأنا أودعه : « على فكرة .. من قبيل الاحتياط للمستقبل ما هو الجواب الصحيح أمام اللجنة ؟ »

قال : « آه .. انفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب »

قلت : « أهو ذاك ؟ .. أما مافى الجيب فلست أحتاج فى أمر انفاقه الى التكلف .. وأما ما فى الغيب فهل تعرف متى يأتى ؟ »

فأشار لى بيده .. ومضى عنى وهو يضحك

تفيدة

نشأت فى بيت لم أكن أجد فيه من يكلمنى ، لا لقلة فى أهله ولا لبكم يعقد ألسنتهم .. بل لأن مشاغلهم كانت تصرفهم عنى . فهذه جدتى ، لأبى ، كانت لاتفارق السجادة ـ أو الفروة على الأصح ـ وفى يدها السبحة التى لا أذكر أن الخيط الذى ينظم حباتها انقطع ، وشفتاها لا تكفان عن الحركة والتمتمة بما لا أعرف من الأدعية والصلوات على النبى . وما أكثر ـ وأطول ـ ما كنت أقعد أمامها محدقا فى هاتين الشفتين الدائبتين دؤوب الليل والنهار . وكانت ربما التفتت الى فتتبسم وتدنينى منها وتمسح لى رأسى ، ثم تبسط يديها بالدعاء الى الله بصوت يبريه الضعف وتبحه الحسرة ويهدجه الألم والأسف لما صرنا اليه بعد وفاة أبى ، ثم تربت على كتفى وتميل على وجهى الصغير بفمها الأدرد وتقبلنى ، فتخرج شفتاها صوتا كهذا «مق» . وتلك أمى لا تزال مصروفة عنا بشئون البيت من طبخ وغسل وكنس ونفض ، ومن حمام تسقيه وتطعمه ، ودجاجات لا تنفك تجس حويصلاتها أو تصبعها لترى أفيها أم ليس فيها بيض أو تنتف ريشها . وكثيرا ما كنت أقف أنظر اليها وهى تتناول فراخ الحمام وتزقزقها ، أى تمج فى مناقيرها الماء والحب .. ولا آخر لعمل السيدة فى البيت . ولم يكن لنا فى ذلك الوقت خادمة ، وكانت أمى تنهض بالأعباء كلها اقتصادا فى النفقة .. فكانت هى تطبخ الطعام ، وتكنس الغرف ، وترتب الأثاث ، وتخيط لنا الثياب ، وتصنع كل شىء الا أن تخرج لتشترى الأشياء التى نحتاج اليها لطعامنا . فقد كان رجل من أتباع أقاربنا الذين يقيمون فى أجنحة أخرى من هذا البيت الكبير ، يقوم لنا

بذلك . وكانت عمة أبى معنا ، ولكنها كانت عجوزا ناهزت المائة .. وكانت تجلس وساقاها ممدودتان أمامها ورأسها مستند الى وسادة ، ولسانها لا يمل الدوران ، وكان كلامها هذيانا فكنت أضحك منها أحيانا ثم أمل ذلك فأتركها لهذرها الذى لا ينقطع

وكنت اذا شعرت بالشوق الى مكالمة أحد ، أنحدر الى فناء البيت .. وكانت فيه غرف كثيرة ، يقيم فيها أتباع الشيخ قريبنا ويحيون الليل بقراءة الأوراد . وكانت هناك أيضا ميضة ومصلى ، فكنت اذا رأيت الشيخ مقبلا أندس بين المصلين وأروح أقف وأركع وأسجد كما أراهم يفعلون . ولكن هؤلاء كانوا يروننى صبيا صغيرا ، فينظرون الى ويبتسمون - لأن أفواههم مشغولة بالتمتمة - ولكن لا يكلموننى . غير أنه كان هناك فى أكبر غرفة فى الفناء ، رجل ليس من الأتباع ولا هو يعنيه أمرهم أو يشاركهم فيما يصنعون . ولا أدرى الى هذه الساعة كيف سكن هذه الغرفة .. فما كان يعطى الشيخ شيئا ، وكان الشيخ يستنكف أن يؤجر بيته أو بعضه . وكان هذا الرجل يصنع أزرار الطرابيش ، فكان يطيب لى أن أجلس اليه ألاحظه وأحادثه أو أستمع الى حديثه وقصصه وكان يحادثنى كأنى رجل كبير لا طفل صغير ، وكان يبرم خيوط الحرير المصبوغة ويفتلها ويعقد أطرافها ويجمع كل بضعة خيوط معا ثم يثنيها ويربطها ويصمغها ويدقها على قالب من القوالب التى تتخذ لكى الطرابيش . وكانت لهذه الخيوط رائحة لا أزال أذكرها ، وانى لأجدها الآن فى أنفى وأنا أكتب ذلك . وقد علمنى صناعته ، فكان يدع لى الخيوط فأفتلها وأرتبها وأعقد أطرافها وأفعل مثل ما أراه يفعل بالمدق على القالب . ثم يعود الى فينظر فيما صنعت ويصلح لى أخطائى ، أو يثنى على حذقى . وكان يكل الى ذلك كلما قام

لاعداد طعامه أو خرج لشرائه . وفى وسعى أن أقول بلا مبالغة انى قلما تعشيت الا معه ، فكنت أصعد فأجىء بطعامى وأضيفه الى ما عنده ، فنأكل معا . ولكنى لم أكن أصنع هذا الا اذا كان عندنا طعام يليق أن يقدم الى غريب .. أما اذا كان فولا أو عدسا أو ما هو من هذا القبيل ، فقد كنت أخرج فأشترى زيتونات وشيئا من الجبن « والحلاوة الطحينية » وأعود بها اليه ، فيؤنبنى على فعلتى وينهانى عن العود الى ذلك ، فأصارحه بأن طعامنا الليلة فول أو عدس .. .. وانى لا أحبه . فكان يحدث أن يقول لى انه يحب هذا الطعام ، ويرجو منى أن أصعد وأجيئه بشىء منه ، فاستغرب .. ولكنى أطيع . فلا عجب اذا كنت قد أحببته وألفته . ولم يكن أغرب من هذه الصداقة بين رجل جاوز الأربعين وطفل فى التاسعة من عمره . وقد ألفنى كما ألفته ، وتعلق بى كما تعلقت به .. فكان ينادينى اذا أبطأت عليه ، فأستبطىء النزول على الدرج وأركب الدرابزين لأن التزحلق عليه أسرع ..

وكانت له بنت أخت تزوره من حين الى حين .. رأيتها أول مرة فى ليلة شتوية كثيرة المطر شديدة البرد ، وكنت ألعب فى الحارة .. فلما أخذ المطر ينهمر فجأة ذهبت أعدو الى البيت . ولمحت ، وأنا أجرى ، ضوءا فى غرفة صديقى .. فاشتهيت أن أخبره أن السماء تمطر وأن الريح تعصف . ودخلت الغرفة ثم وقفت على العتبة ، فما رأيت المصباح المألوف وانما رأيت نارا موقدة ، وكانت ألسنة اللهب عالية .. فرأيت ، أول ما رأيت ، كفا بدت لى كأنها – ولسان النار من ورائها – مرجان شفاف . وطالعنى محيا فتاة صغيرة على هذا الضوء المضطرب ، فرأيت شعرا أسود يتوهج هنا وهنا ، وضفيرتين فى طرفيهما خيوط من الصوف نسج عليها الشعر واستراحتا على جانبى الصدر ، وأنفا فى

عرنينه نتوء قليل ، وفى مارنه لين ، وفى أرنبته انثناء الى فوق ، وعينين ضيقتين مائلتين بعض الميل . وكانت الحدقتان تلمعان كأنما تطلان من شقين ، وفى نظرتهما من وراء الاهداب الوطفاء معانى الرضي التام والسكون العميق والاغتباط الذى لاسبيل الى العبارة عنه . وكانت هذه المعانى على الفم أيضا ، وكانت الشفتان رقيقتين وفى العليا منهما نثلة بينة ، وهنة دقيقة نابتة فى وسطها ، وكانت عليها ابتسامة أبلغ فى العبارة عن السرور من الضحك المجلجل ، وكان خط الشفتين موازيا لميل العينين ، وقد خيل الى وأنا أنظر الى هذه الابتسامة المرتسمة على الشفتين المتلامستين كأنما هى معلقة على ما تغضن على جانبى الفم ، وكانت صحيفة الوجه عريضة عند الوجنتين ولكنها تنتهى بذقن دقيق ، وفى الديباجة حسن ، وفى الخدين رى واسالة وبضاضة . أما العنق فطويل مستدير ، وأما الذراعان — وكانا معتمدين على الركبتين — فمستدقان

وقفت أحدق فى هذا الوجه الذى أضاءته لى النار المضطربة الخفاقة اللمعان ، وخيل الى وأنا أنظر أنى لم أر قط أجمل ولا أبرع من هذا الحسن ، وراعنى على الخصوص ماعلى الوجه من آيات السرور الباطن .. فألفيتنى أتساءل : ماذا ترى يسرها وهى قاعدة وحدها تتدفأ ؟.. ومن أين جاءت ياترى هذه السعادة التى تومض بها عيناها وتشى بها هاتان الشفتان الصامتتان ؟ وأحسست أن أنفاسى أسرعت وأن الدموع تجول فى عينى ، فقد كانت الفتاة جميلة وكانت الروعة قد غمرت صدرى ، بل ملأ قلبى الخوف كأنما أشهد الحياة نفسها لا انسانا فانيا مثلى . وارتفع لسان النار فجأة وخفق ضوءها على محياها المبتسم ، فخيل الى أن الدم يجرى كالمجنون تحت جلدها الرقيق . وكانت هى ساكنة لا تتحرك ، ولا تزايلها ابتسامتها الهادئة المرتسمة

على عينيها الضيقتين المائلتين وفمها المطبق الشفتين . نعم .. كانت الحياة نفسها تنظر الى من عينيها .. وبعينيها

رأيتها بعد ذلك مرة أو مرتين فى نحو عام ، وعلمت من صديقى — خالها — أنها يتيمة وأنها تقيم مع عمها وتزور خالها أحيانا ، وأكثر ما تكون الزيارة فى الصباح حين أكون أنا فى المدرسة .. ولكنها لا تبقى معه الا ساعة أو بعض ساعة . وقد حاولت أن أكلمها ، ولكنى كنت أستحيى أن أطيل الوقوف معها أو الجلوس اليها ، وكانت هى تحدق فى وجهى ولا تطرف حين تكلمنى ، ولا أذكر ما كانت تقول وانما أذكر كيف كانت لهجتها هادئة وحالها بادى الوثاقة .. كما ينبغى أن تكون الحياة

وكنت أسألها أحيانا وأنا لا أجد كلاما أقوله لها غير ذلك : « هل تلعبين الحبل ؟ » .. ولا أصغى الى جوابها ، بل أروح أفكر فى جمالها وأعجب له .. وأسأل نفسى مستغربا ماذا وراء هذه العين ياترى ؟ .. لماذا أراها سعيدة دائما بلا سبب أعرفه ؟ وأشتهى أن أسألها عن ذلك ، ولكنى آنس من نفسى جبنا فأسكت

ومضت الايام وتعاقبت السنون وكبرت وعرفت الادب والقراءة ، فصار كل ما أقرأه عن الحب فى شعر الشعراء وفى وصف الروائيين ، يدور حول ذكرياتى القليلة منها ، وابتسامتها الساكنة ووجهها الجميل وسعادتها الهادئة . وكان زملائى فى المدارس يذكرون مغامراتهم ويتحدثون بها ويباهون ، وكنت أنا أسمع وأسكت وأتعزى بأن هذا الذى يلهجون به ليس من الحب فى قليل أو كثير ، وأقول لنفسى انى أعرف ما لا يعرفون ، وأعرف ما أعرف بالتجربة . ومع ذلك لم يخل هذا الصدر من أيامى مما يسمونه المغامرات ، ولكنها لم تكن كثيرة أو باعثة على الرضى .. بل كانت على النقيض سببا فى السخط على نفسى واحتقارها ، فآليت

لأنصرفن عن هذا العبث . وأقبلت على الدرس والتحصيل واشتغلت بالشؤون العامة ، فصرت أحضر جمعيات الخطابة بل ألفت مع اخوان لى جمعيــة للخطابة . وعنيت بقراءة الصــحف فكنت على صــغرى أقرأ كل يوم ثلاث جرائد سياسية ، وكنا جميعا من أنصار مصطفى كامل وعشاقه فى ذلك الزمان

ثم جاءت الحرب العظمى ، فشغلنا بأنبائها وبالاختلاف على نتــائجها المحتملة وبالخوف على أنفســنا من الجواســيس والاعتقالات التى كنا لا نأمنها ولا نستطيع أن نعرف الطريق الى اتقائها . . ولكن يوما من أيام تلك الحرب أذكره ولا أنساه . وكان لى صديق داره قريبة من دارى ، ولم يكن معه أحد فى بيته وكان السهر محرما بعد الساعة التاسعة ، فكنت أقضى عنده السهرة فى الأغلب ، ولا سيما فى الصيف . . فأرانى يوما مسدسا ورصاصــات ، فجعلنــا نتدرب على اطلاقها ونرمى بها باب الحمام ، ولم نكن نخشى أن يسمعنا أحد لأن البيت كان بعيدا عن العمار . ثم افترقنا ، واتفق أن زارنى بعد ذلك ونسى عندى مسدسه . . ولا أدرى كيف كان يجترىء على حمله معه ؟ . . فوضعت المسدس فى درج المكتب ونسيته فيه ، وتكدســت فوقه الاوراق على مر الايام . فحدث يوما أن جاءنى صديق وثيق الصلة بالسلطة العسكرية ، وأخبرنى أن بيتى سيفتش الليلة . . فشكرته ، ولم أعر الأمر اكتراثا . . لأنه ليس فى بيتى ما أخشى على نفسى منه . فلما كان العشاء ، جاء ضابط انجليزى ومعه من المصريين ضباط وجنود ، فدخلوا المكتب أول ما دخلوا . ورأى الانجليزى الكتب الكثيرة على رفوفها ، فأقبل عليها يتأملها . . فألفاها كلها كتب أدب ، فجعل يقلبها وينظر الى ثم سألنى عن عملى ، فقلت : « مدرس » فاطمأن واعتقد مما رأى انى رجل مأمون الجانب ، وأرسل المصريين يفتشون

بقية البيت ، ووقف هو معى فى غرفة المكتب ، ثم دنا من المكتب وجعل يقلب ما عليه من الاوراق المنتشرة بغير احتفال، ثم فتح درجا وألقى عليه نظرة ثم رده وشد الدرج الثانى .. ولم تكن للأدراج مفاتيح ، فجمد الدم فى عروقى ، فقد تذكرت المسدس فجأة ، ولم أستطع من فرط الجزع أن أدعو الله أن ينقذنى . وكان الاعدام عقوبة من يحمل سلاحا كهذا بلا ترخيص ــ أو هكذا أعلنوا ــ ولكن الله سلم .. فرد الرجل الدرج ، وكان زملاؤه قد عادوا ، فحيا وانصرف وهو يبتسم . ولعله كان يعتقد أن تكليفه تفتيش هذا البيت سخافة مطبقة

وما كادوا يذهبون حتى أسرعت الى المسدس ، فقذفت به فى بستان مجاور لبيتنا ، وتشهدت .. ولم أطق البقاء فى البيت بعد ذلك من فرط الاضطراب ، فخرجت أتمشى على غير هدى واذا بى فى بعض الطريق ــ طريق حدائق القبة ــ ألتقى بفتاتى القديمة . عرفتها على الرغم من طول الزمن .. وعرفتنى هى كذلك ولم تنكرنى ، فصحت بها كالأبله : « تفيدة .. انت ..؟ »

فابتسمت لى ابتسامتها القديمة الهادئة ولم تزد ، فقلت لها : « من أين ، والى أين ؟ » قالت : « الى البيت » فمشيت معها اليه . وكان شقة فى عمارة عند « المحمدى » فدعتنى الى الدخول فلم أتردد .. فأنا صديقان قديمان . ولم أر فى بيتها غيرها فلم أستغرب فانها يتيمة ، ولكنى لم أعرف من أين جاءت بهذا الاثاث الحسن وان كان قليلا وعلى قدر الحاجة ، واتفقت معها على يوم نخرج فيه للتنزه فى القناطر أو حديقة الحيوانات ، فهزت رأسها أن نعم .. فتركتها ولم أسألها عن حالها وكيف تعيش

والتقينا فى الموعد المضروب .. وكان النساء يتقنعن فى ذلك الوقت ولا يخرجن الا فى الندرة القليلة بوجوههن

سافرة ، فركبنا عربة يجرها جوادان هزيلان ، ومضينا الى حديقة الحيوانات ، وجلسنا على دكة منعزلة .. وقضينا أكثر الوقت صامتين ، ثم فتحت فمى فحدثتها عن الزمن الماضى وحبى الصبيانى لها ، وكيف طال عمر الحب وامتد الى الحاضر ، فلم تزد على أن تبسمت – كعادتها – وقالت : « لا أدرى لماذا أرى الناس يجنون بى »

فأحسست ان لوحا كبيرا من الثلج يوضع على قلبى .. الناس يجنون بها .. الناس .. اذن هناك مجنون .. أو مجانين بها غيرى . ودار رأسى ، وذهبت أسأل نفسى عنها كيف تعيش . ولم يخطر لى هذا من قبل ، ولكنه خطر الآن نعم كيف تعيش هذه التى يجن بها الناس .. وأين وكيف ترى هؤلاء المجانين كلهم .. لا بد انهم كثر .. فمن أين يجيئون .. انى أنا صديق صباها ، فلا عجب اذا كنت أعرفها .. ولكن غيرى .. غيرى

وقطع على هـذه الخواطر المزعجة سـودانى فى ثيـاب الردنجوت . وكان كهلا ، ولكنه يمشى معتدل القامة كالرمح .. فدنا منها وحياها باسمها وسألها عن حالها وعينه تومض ، فردت عليه برزانة وسكون ومن غير أن تفارقها ابتسامتها المطبوعة . ولم يطل الوقوف ، فمضى عنا وقد عرفت منها انه ضابط فى الجيش وانه الآن فيما يسمى الاستيداع ، وان بيته فى العباسية – قرب « المحمدى » فلم أقل شيئا ولكنى قلقت – أو على الاصح زدت قلقا وصرت أناجى نفسى بأن لعل هذه طريقة حياتها ..

وتعددت المقابلات بيننا والخروج الى الحدائق العامة ، وكنت أعود بها الى بيتها فى الليل .. فتدعونى الى مقام قليل ، فألبى ونذهب نتحدث كأننا رجلان لا رجل وامرأة . فرأيت منها – شيئا فشيئا وعلى مر الايام – ما أقنعنى أنها ليست الفتاة التى أحببتها فى صغرى ، وانها لا أكثر ولا أقل

من امرأة كغيرها من النساء . ولا أدرى الآن وأنا أكتب هذه السطور أى شىء كنت أحسبها قبل أن أتبين أنها ليست سوى امرأة ، ولكن الذى أدريه انى ظللت أحبها على الرغم من ذلك وانى جعلت أحاول أن أقنع نفسى بأنها كما كنت أتصورها ــ على الاقل فى حقيقتها الكامنة ، ولكن حبى القديم لها تغير .. فلم يعد فيه تعلق بخيال ، بل صار حبا لامرأة معينة . وليس فى هذا مايدعو الى العجب ، فان الرجل يحب المرأة لأنها امرأة ولأن فيها من بواعث الاغراء مايكفى لاثارة الرغبة فيها والتعلق بها ، ولكن هذا شىء لم أكن قد تعلمته فى تلك الايام ، فرزقنى الله فى شخص « تفيدة » معلما لايفتر ولا يتردد ولا يترفق بالمثل العليا وصور الكمال وغير ذلك من الافلاطونيات السخيفة . وكان أول ما تعلمته ــ أو من أول ذاك ــ أن من الممكن أن يحب الرجل حبا عميقا طاغيا امرأة لايحترمها ولا يرى لها مزية ولا ينطوى لها على اكبار أو مودة أو صداقة ، ولا يستطيع أن يتفاهم معها ويشركها فى نفسه وخواطره وآماله ومخاوفه وعواطفه .. امرأة لايرى فيها الا أنثى منحطة .. بل امرأة يشعر بالشقاء وهو الى جانبها وبالملل والضجر من قربها وحديثها . نعم تعلمت ذلك .. وكان هذا لما تعلمته شيئا فشيئا يبدو لى مدهشا ، ويخيل الى ان الحال فيه مقلوب والآية معكوسة ، ولكنى الآن أضحك من نفسى وأسائلها ولم لايعشق الرجل بالله امرأة كهذه .. وأين ترانى كنت أعيش يومئذ ، فلم أر ان كثيرين من الرجال يعشقون نساء ليست لهن أية مزية .. نساء هن فى الحقيقة كوم عظيم من صنوف الانحطــاط .. ونســاء يحببن رجالا ســاقطين منحطين لايساوى الواحد منهم ملء أذنه نخالة . ولكنى كنت فى ذلك الوقت أعتقد ان الحب شىء سام جدا ، وانه سماوى لاينبغى أن يخالطه الا الاعجاب والعبادة

وكانت كل لحظة أقضيها مع تفيدة ، تزيدنى ايقانا بأنها عاجزة عن السمو بنفسها الى المرتبة التى وضعتها فيها فى حداثتى . وكان يزعجنى وينغص عيشى ويسود الدنيا فى عينى هذا التباين بين الواقع والصورة القديمة التى احتفظت لها بها فى نفسى .. وتغير حبى لها كما قلت واشتهيتها وصبوت اليها ، ولكن هذا التحول لم يعفنى من التنغيص والعذاب . وقد كنت أخجل مما صرت أحسه لها ، وأعنف نفسى على ذلك وأزجرها عنه . وكانت هى ترى ضبطى لنفسى ورياضتها لها على العفة ، وتعلقى بخيالاتى وسخافاتى وأوهامى ، فتمتعض وتظهر لى التأفف والتبرم ولا تكتمنى الضجر الذى يثيره حديثى ، ولها العذر . وقد كنت أرتفع بالكلام عن طبقتها .. وأتركها على الارض ، وأذهب أحلق فى أجواء لا تستطيع أن تذهب ورائى فيها . وكنت أنشدها ما أقوله فيها من الشعر ، فيسرها انها وجدت شاعرا يحبها كل هذا الحب ويتغنى باسمها ، وأن يقرأ الناس ما يقوله فيها وما يصف به وجده لها . ولعلها كانت ترى فى هذا اعلانا .. ولكنها لم تكن تفهم ما أنظم أو تقدره ، وكثيرا ما كانت تمط شفتيها ساخرة . وربما قالت لى : « ألا تستطيع أن تقول كلاما حسنا » فأهز رأسى وأقول لنفسى انى وقعت وقعة سوداء ، وانى يجب أن أصد عنها فانها لا تصلح لى ولا أصلح لها لأنها لا تفهمنى .. ولا أنا أيضا مع الأسف ، أستطيع أن أفهم هذه الطبيعة المادية التى يكون فيها الجمال ستارا لكل ما هو منحط .. وكانت تدعونى كل ليلة الى دخول بيتها حين نعود اليه ، وكنت ألبى فى بعض الأحيان .. فأقعد معها كالصنم من شدة الكبح ، فلا تلبث أن تتثاءب فأقوم وأنصرف فلا تعنى بأن ترافقنى الى الباب .. فيسوءنى ذلك ، ولكنى أراجع نفسى وأقول انه ليس بيننا كلفة فاننا صديقان قديمان . وقالت لى ذات ليلة ، وقد

دنونا من البيت : « لا تغضب اذا لم أدعك الى الدخول » فسألتها بوقاحة : « هل هناك غيرى ؟ » فلم يسؤها ذلك ولم يظهر عليها الامتعاض منه ، وقالت بابتسامتها الهادئة : « يخيل الى انك لا تحب الوجود معى فى البيت .. انك شاعر ، تحب الرياض والبساتين والماء والسماء والنجوم .. أليس كذلك ؟ » فضحكت وان كنت لم يفتنى ما فى كلامها من التهكم والزراية ، وحدثت نفسى ان هذه دعوة صريحة لايليق أن أغضى عنها مخافة أن يؤدى الاغضاء الى القطيعة والجفوة .. وكانت هذه مغالطة منى لنفسى ، فقد كنت أنا أريد ذلك ولكنى كنت أصرف عنه نفسى وأفطمها بجهد ، فقلت لها : « بل سأدخل الليلة — اذا سمحت بالطبع — وسترين انى أحب بيتك كما أحبك »

قالت : « صحيح ؟.. »

وأحسست من نبرة صوتها أنها ارتاحت الى كلامى ، وانها استغربته فى الوقت نفسه .. ودخلنا ، وأغلقت الباب وراءها كعادتها .. فلم أمهلها بل طوقتها بذراعى فى الدهليز وقبلتها على خدها ، فأدارت وجهها ومنحتنى فمها ..

وكنت أسخط على نفسى بعد كل ليلة وأرميها — نفسى — بالانحطاط ، ولكنى ألفت ذلك — فصار الأمر عادة كالتدخين وغيره مما يعتاده المرء ويتأفف منه ويود لو كف عنه ، ويمضى فيه مع ذلك ولا يكلف نفسه جهد المقاومة وعناءها . وبقينا هكذا زمنا غير قصير ، وعرفت ان لها أصدقاء غير قليلين .. فقد كنا نلقاهم فى الطريق ، فيومئون اليها بالسلام فتبتسم لهم، ولكنهم كانوا لايدنون منها ولايكلمونها كما فعل الضابط السودانى فى حديقة الحيوان . ولم أكن أعبأ بذلك ، فقد كنت أرى انى منفرد بها وان كنت لا أعلم ماذا تصنع فى غيابى ، فما كان يسعنى أن أظل معها كل ساعة . وكنت أروض نفسى على الاطمئنان والثقة لحاجتى

اليهما ، لا لأنى واجد ما يدعو الى الثقة والاطمئنان ..
ولم يكن هذا المنطق يقنعنى أو يريحنى ، ولـكنه كان المنطق الذى اضطررت اليه .. على ان الأمر لم يطل ، فقد جاء يوم اعتذرت لى فيه بأنها مسافرة .. فاستغربت ، فما أعرف لها من تسافر اليه ، ولكنى سكت ولم أقل شيئا . ورأيتها بعد أيام ، فسألتها عن رحلتها ورجوت أن تكون كما أشتهى لها .. فقالت بضجر متكلف لم يخف على : « أوه أبدا .. كانت رحلة مملة .. انك تعرف هؤلاء الفلاحين وكيف يعيشون .. ليس فى حياتهم أى تسلية »

ومضت أيام ، فعادت تعتذر من التخلف عن لقائى لأنها مدعوة فى بيت صاحبة لها . فلم أجادل ، وتركتها ، وتكرر بعد ذلك الاعتذار ، وتوالى انقطاعها عنى . وكنت أحيانا أقسم أن أهملها وأبقى أياما لا أسأل عنها ، لأعرف أعادت أم هى لاتزال مع هؤلاء الذين ظهروا فجأة فى حياتها ، ولم أسمع بهم مرة واحدة قبل ذلك كل هذه الشهور . وأحيانا كنت أضعف فأذهب الى بيتها .. فتفتح لى وتلقانى كأنها كانت معى قبل ساعة ، ولا تسألنى لماذا غبت ولا ماذا كنت أصنع وكيف كنت أقضى الوقت .. لا .. لاشىء من هذا على الاطلاق ، فأشعر بالغصة ولكنى أكتم الألم ..

وكنا قد دخلنا فى الشتاء ، وكنت أعرف انها لا تحب أن تكون فى غير بيتها بعد العشاء على الأكثر .. فذهبت الى قهوة قريبة من مدخل الحارة ، كى أرى مايكون . وانحدرت الشمس وأنا لا أرى شيئا .. نعم رأيت ناسا كثيرين راكبين أو ماشين وباعة متجولين ومركبات الخ الخ ، ولكنى لم أرها تدخل أو تخرج . وكانت نفسى لا تفتأ تنازعنى أن أنهض منصرفا ، وكنت أحدثها بأن من السخافة والحماقة أن أتعب نفسى بهذه الجلسة المضنية لأعرف ما أعرف . وهل فى الأمر سر ؟ .. أليست قد ملتنى ونبت

بى وجفتنى واعتاضت منى سواى كائنا من كان هذا السوى؟ وما حاجتى الى علم ما أعلم ؟ ولماذا أحقر نفسى وأمرغ وجهى فى التراب وأضعه عند قدمى امرأة سوء كهذه ؟ وأهم بالنهوض ولكنى أحس انى قد سمرت الى الكرسى أو لصقت به .. ويتجسد وهمى ويضحكنى أمرى أحيانا ثم تغلبنى الكآبة والحزن — على نفسى وعليها — ثم أرانى غضبت وثرت وهاجت نقمتى على هذه المستهترة التى لاتبالى ولا تدرك . ثم أراجع نفسى فأسألها : « ماذا تريدين منها أن تبالى .. أمن العدل أن أطالبها — أو أتوقع منها — أن تحفل ما لا تدرك ؟ » وأستسخف من نفسى أن أروح أنتظر من هذه العامية — على الرغم من انها تعلمت شيئا — أن ترتفع بنفسها الى حيث ارتفعت أنا . ثم أرجع فأقول ان المسألة ليست مسألة تعليم أو ثقافة ، وان كان التعليم يهذب ..

وانقضى النهار فى هذه الهواجس أو الخواطر ، وأقبل الليل ومعه البرد .. فاحتجت أن أقوم وأن أتمشى لأشعر بالدفء ، فرحت أتمشى فى الحارة وعينى على بيتها وأنا فى حماية الظلام . فسمعت بعد قليل صوت باب يفتح ويغلق فدنوت على أطراف أصابعى فاذا هو بابها ، واذا الخارج منه هو الضابط السودانى . وكاد يختفى فى الظلام ، ولكن الباب فتح مرة أخرى وخرج منه صوت كهذا : « هسسسس » فوقف الرجل وتلفت ثم كر راجعا ووقف أمام الباب . وكنت على مسافة مترين منه ، فأدرت ظهرى اليه ولويت عنقى لأكون أقدر على السماع ، فسمعتها تقول له : « الساعة الثالثة تماما .. فانى أخشى أن يجىء ذلك الثقيل للسؤال عنى »

فمشيت .. ولم أقف لأسمع رده

الهارب

دخل « سعيد الميدانى » على مدير دار الكتب ــ حين أذن له ــ وهو يحيى وينشر الجريدة التى كانت مطوية تحت ابطه ، وقال وهو يقدمها له : « هل قرأت هذا يا بك؟ ان الحملة واضحة التلفيق ، ولهذا جئت وفى مرجوى أن أظفر منك ببيان للرد عليها »

فتناولها منه المدير وألقاها على طرف المكتب ، ولم يكتم ضجره وهو يقول : « تفضل .. تفضل .. ان كل ما يعنى رواد الدار هو أن يجدوا ما يطلبون ــ كل ما يطلبون ــ فيها وأن يهتدوا اليه بسرعة وسهولة وبغير عناء أو تضييع وقت . ومتى كان هــذا حاصلا فلست أبالى ما تكتب الصحف أو يقول غيرها . وهذا حسبى وحسبك بيانا ، فاذا اقتنعت به فذاك .. والا فأمرى الى الله ، فما أستطيع أن أضيع وقتى فى الكلام الفارغ »

وكان أمامه وهو يقول هــذا كتاب ضخم وضــع بين صفحتين منه قلما أحمر غليظــا . وكان ينظر الى احدى الصفحتين ويشير بأصبعه الى سطور فيها كأنما يتلو منها ما ينطق به . بل لقد خيل الى سعيد أن الأمر كذلك ، ولكنه هز رأسه كأنما يريد أن يطرد هــذا الخاطر ، فقد استأذن من غير أن يبين الغرض من المقابلة . وكان سعيد من أحــدث خريجى كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ومن أنشطهم وأشدهم اقبالا على التحصيل والاطلاع ونزوعا الى الاســتقلال والعمل الحر . وخال فيه صــاحب جريدة « الأحوال » الخير من لمحاته ، وآنس الرشد من أعماله ..

فألحقه بمساعديه الكثيرين ، وما لبث أن صار يعتمد عليه في تعقب الأخبار وتقصى الحقائق

ورأى المدير أن سعيدا ينظر الى الكتاب الذى بين يديه ، فمسح جبينه العريض بأنامله ثم قال : « على فكرة . . هل عندكم في « الأحوال » ملفات خاصة بترجمة المشهورين ؟ »

ثم كأنما تذكر أمرا ، فقال : « متى أسست جريدة الأحوال ؟ »

فقال سعيد : « بعد الحرب العظمى . . سنة ١٩١٩ — أو ١٩٢٠ »

وقال المدير : « اذن لا فائدة . . »

فقال سعيد : « هل تسمح لى أن أسأل ما هى الحكاية لعلى أستطيع أن أساعد ؟ »

فقال المدير : « الحقيقة انها مسألة غريبة . . كنت أمس أقرأ كتابا لعبد القادر التميمى ، وهو كاتب مصرى وشاعر أيضا . . وان كان شعره قد ضاع باهماله — أوعلى الاصح — لأنه هو أبى أن ينشره لأنه كان يستضعفه ولا يرى رأى الناس فيه . وقد كان مشهورا منذ أربعين سنة ، ثم اختفى فجأة ولايدرى أحد أهو حى فيرجى أم ميت فيبكى . . وقد رجعت اليوم الى المستدرك — وأشار بيده الى الكتاب الذى بين يديه — وهو كما تعلم الجزء الرابع من كتاب الاعلام للزركلى ، فوجدت فيه نبذة عن الرجل فيها تاريخ ميلاده وأسماء كتبه الى آخر ذلك ، وليس فيها تاريخ لوفاته . والمفهوم من هذا بداهة ، انه كان حيا حينما صدر الجزء الرابع من الأعلام — أعنى المستدرك . ولعل صاحب الأعلام لم يقف على تاريخ لوفاته اذا كان قد مات ، ولكنه كان حينئذ خليقا أن يذكر تاريخا تقريبيا لوفاته على عادته . لهذا أرجح ان الرجل كان حيا وقت صدور الكتاب . ولكن المسألة تبقى مع ذلك بلا حل . . فهل هو لايزال حيا . . أم

تراه مات .. وأين .. هذه هى المسألة . ولست أعتقد أن فى وسعك أن تساعدنى ، ولكن أدر المسألة فى خاطرك عسى أن تهتدى الى شىء فتخبرنى .. اذا سمحت ولك الشكر »

ونهض واقفا ايذانا بانتهاء المقابلة .. ولكن سعيدا كان مطرقا ، وكان يفرك جبينه بأصابعه ، فلم ير المدير يقف .. فعاد ذاك الى مقعده على مهل وقد جال بذهنه أن لعل هذا الشاب يعرف شيئا يستحق أن يصغى اليه ، وتنبه سعيد ورفع رأسه وقال وعينه على السقف : « عبد القادر التميمى ؟ أى نعم .. أذكر هذا الاسم ، وان كنت لم أقرأ له شيئا . قرأت عنه ولكن لم أقرأ له ، وسمعت من أستاذنا فى الجامعة ان الناس فى عصره كانوا فى حيرة من أمره ، وكان أكثرهم لايعرف له جدا من هزل .. وكان يتهكم بكل شىء .. كل شىء حتى نفسه . وكان أسلوبه جديدا فى بابه فأخذ الناس على غرة وكثر مقلدوه ، ولكنهم أخفقوا فأقصروا »

وهنا تململ المدير ، فما كانت به حاجة الى من يصف له الرجل .. وانما كانت حاجته الى من يدله عليه أو على مكان قبره .

ومضى سعيد فى كلامه غير عابىء بضجر المدير ، فقال : « نعم .. وأذكر أن أستاذنا قال انه رحل من مصر وخلف أسرته بها ، وترك لها كل ما جمع من مال . وكان ابنه قد كبر وصار ذا عمل يكسب منه رزقه ، ولم يرجع الأب بعد ذلك .. ولكن من المحقق انه لم يمت وان كانت أخباره قد انقطعت .. نعم أذكر هذا »

فقال المدير : « أواثق أنت من ذلك ؟ »

قال سعيد : « كل الثقة .. ولكن أين هو .. لايدرى أحد »

قال المدير : « ولكنه اذا كان لايزال حيا ـ لابد أن يكون

الآن قد جاوز الثمانين .. انتظر .. ولد .. ولد .. نعم .. سنة ١٨٥٠ ، فهو الآن فى السادسة والثمانين من عمره . هل تظن ؟ ولكن .. السادسة والثمانين ؟ يالله ! أتظن .. انى لا أكاد أصدق .. لقد كان معروفا عنه انه مسرف فى انفاق حياته .. لايبالى أعاش أم مات .. فكيف يمكن .. »

فقال سعيد : « مثل هؤلاء الذين لايبالون أعاشوا أم ماتوا هم الذين يعمرون »

فقال المدير وهو شارد : « ربما .. ربما .. ولكن ٨٦ سنة .. هذا عمر .. هذا .. »

فنهض سعيد ومد يده الى المدير ، وقال : « سأعنى بالبحث .. واذا وفقت الى شىء فسأخبرك »

فمد المدير اليه يده ، وهو يقول كالمحدث نفسه : « ٨٦ سنة .. أما لو كان حيا ؟ ولكن كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ »

▭

مضى شهران على هذا الحديث لم يسمع فى خلالهما كلمة من سعيد ، ولم يكف هو أثناءهما عن البحث والتقصى ـ عبثاـ فأقصر يائسا وصرف نفسه أسفا عن عبد القادر التميمى . وكان جميل بك ـ أو اذا شئت اسمه كاملا ، جميل بك أحمد القناوى ـ رجلا مخلصا عطوفا رقيق القلب ، وقد شق عليه جدا أن يحدث فى القرن العشرين أن يختفى أديب مشهور وأن تنقطع أخباره نحوا من أربعين سنة ، فتنساه الدنيا التى يسرها ويملؤها حبورا وجذلا ، ولا تعود تعرف عنه حتى أبسط ما ينبغى أن يعرف : « أهو حى أم تراه مات ؟ » . وكان جميل بك يرى أن هذه فاجعة انسانية لأنه لم يشك فى ان اختفاء هـذا الأديب وانقطاع أخباره سببهما يأس عميق آخذ بالكاتب ، وهو مع ذلك الذى يرفه

بكتابته عن الناس وينعش نفوسهم ويهذبها بفكاهته ويفيض على حياتهم البشر والسرور كما تفعل الشمس ، ولم يسعه الا أن يعجب لاختفاء رجل مشهور فى عالم لايكاد يختفى فيه شيء فى هذا العصر ، ورجح عنده لهذا ان الرجل لا بد أن يكون قد لقي حتفه فى أول مراحل هجرته ـ اذا صح أن تسمى هجرة ـ ولا يبعد أن يكون قد تنكر واتقى ألا يحمل معه ما يدل على حقيقته . وأخلق به حينئذ أن يكون قد دفن حيثما اتفق بالاسم الجديد الذى تنكر به ، وهز جميل بك كتفيه ومط شفتيه ، ثم زفر زفرة طويلة وقال : « ايه لاحول ولا قوة الا بالله » وشرع يشعل سيجارة واذا بالتليفون يدق الى جانبه ، فتناول السماعة متثاقلا وقال : « نعم » ولكن ما عتم أن اعتدل فى جلسته ، وصاح : « ايه ماذا تقول ؟ »

ولكن الذى خاطبه اكتفى بما قال ، فوضع جميل بك السماعة ، وقام يتمشى بسرعة ويشعل سيجارة ويضعها فى الطبق وينساها ويروح يشعل غيرها حتى اجتمع فى الطبق أربع سجاير بعضها أقصر من بعض وهو ذاهل عنها جميعا . وانه ليهم باشعال الخامسة ، واذا بالخادم ـ فقد كان فى بيته ـ ينبئه أن « سعيد أفندى الميدانى » قد حضر ، فيقول له بلهفة : « ادخله .. ادخله » ويسبقه هو الى الباب

ويدخل سعيد أفندى ويده فى يد جميل بك ، وهو يقول : « نعم وجدته .. فى غرفة فى ربع قديم فى أعتق أحياء هذه المدينة .. أو هو من أعتقها .. »

فيقول جميل بك : « وكيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد أفندى : « أوه .. هذه حكاية طويلة . وليس المهم كيف وجدته ، بل المهم انى وجدته . ويمكننى

أن أقول لك انى استعنت بابنه ، وقد كان اعتقاده انه مات لا محالة ، ولكنى زعزعت له هذا الاعتقاد بعنف بل بقسوة . . هل تعلم ان ابنه أحيل على المعاش منذ سنتين ، وان له حفيدة تزوجت وولدت بنتا ؟ »

فيقول جميل بك : « ليس عجيبا أن يعتقد ابنه ان أباه مات وشبع موتا ، ولكن كيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد مرة أخرى : « لقد قلت لك ان هذه حكاية طويلة »

فيقول جميل بك : « انما أعنى كيف حاله »

فيقول سعيد : « حاله . . وماذا تنتظر أن يكون حال رجل قارب التسعين وأقعدته شيخوخته العالية عن العمل . . فقر وضعف وعمش . . حال لايعلم بها الا الله »

ـ ولكن كيف يعيش ؟

ـ كان يستعين به طابعو الكتب القديمة لضبطها وهم يجهلون شخصيته لأنه يسمى نفسه عبد القادر ناجى . . أليس اسما غريبا ؟ ان اختياره له يشى بثقته بالله وبحسن المآل على كل حال . . لقد أدهشنى منه انه لايزال يبتسم للدنيا ويؤمن بحسن حظه فى الحياة على الرغم مما هو فيه من الفاقة الشديدة . . ولكن من يدرى ؟ لعله قد خرف فهو لا يقدر سوء ما هو فيه » . فسأله جميل بك : « ألا يعرف أن ابنه موجود ؟ »

فقال سعيد : « يعرف . . ولكنه أبى أن يذهب اليه حين عاد من رحلاته لأنه استكبر أن يجعل نفسه حميلة عليه ، وخشي أن يأنف ابنه من الانتساب اليه اذا وقف على حالته الزرية »

ـ وهل قابل ابنه ؟

ـ بالطبع .. وقال له حين رآه : من يصدق أنك ابنى ؟ انى أبدو أصغر منك .. على كل حال ، يمكنك دائما أن تنسى أنى ما زلت على قيد الحياة .. فما أشك فى أن عثورك على حيا صدمة لك بعد أن وطنت نفسك على موتى . وأحسب أن بعثى الآن قد خيب أملك فى .. كذلك قال لابنه .. مدهش .. ان ذهنه لا يزال حافظا لقوته .. قال لابنه فى جملة ما قال : انى لما كبرت كنت أقول : لو عاش أبى لما عاشرته ، لانى أستنكف أن أكون فرعا وأحب أن أشعر أنى أنا أصل مستقل بنفسه عما عداه وعما غذاه ونماه . ولكن ذهنه يشرد أحيانا فيخلط فى كلامه ، لانه يكر راجعا الى ذكرياته الطويلة فى حياته الحافلة ، من غير أن يشعرك بالانتقال أو الرجعة .. فتحس أنك تهت وضللت طريقك ، وقد تظنه يهذى ولكنه ليس هذيانا بل كر الذهن الى الوراء فجأة بغير انذار . ولما قلت له أنك تبحث عنه ، ضحك وقال هل يريد أن يغلفنى ويضعنى على رف .. وقال عن كتبه لما عرض ذكرها : ان خيرها ما لم يكتبه .. ولاتزال أسنانه باقيا بعضها ؛ وقد قال لى ان متانتها وسلامتها من الآفات هما السبب فى بقائه حيا الى الآن .. ولما قلت له ان من واجبه أن يملى مذكراته على بعضهم ، صاح بى : « أعوذ بالله يا شيخ .. حرام عليك .. اتق الله فى يابنى »

فسأل جميل بك : « وماذا كان يعمل كل هذه السنين الطويلة ؟ »

ـ أوه كل شىء .. قال لى انه لم يعش لنفسه ساعة واحدة أيام كان يشتغل بالأدب ، وان كل ما كان يرى نفسه تشتهيه كان يرى أنه محروم منه . وكان مما يثقل عليه جدا أنه لا يرى نفسه يفعل الا ما يكره فهو لا يحب المجالس التى يكثر فيها الناس ولا يرتاح الى أحاديثها ولا يغتبط

بالزوار ويحب أن يشعر أن بيته حصن منيع لا يقتحم ، ويود ألا يجالس الا الذين يصطفيهم من الاخوان ويأنس بهم ويطمئن اليهم ، ولكنه كان يجد - لسبب خارج عن ارادته بل ضد ارادته - انه يعيش كما يعيش النـاس ، ويفعل ما يستثقل ، ويحرم ما يحب ، وقد كبر فى ظنه أنه سيظل حياته هكذا . ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون الى هذه الحياة أو أن يوطنها على احتمال هذا التقيد الذى لا يعرف ماذا يفرضه عليه ، وشق عليه أن يظل هكذا .. يعرف أنه حر ولا ينعم مع ذلك بحريته ، فكره هذه الحرية الظاهرية ، ومل السخط على نفسه .. وود لو أنه مقيـد حقيقة بارادة غيره ليتسنى له على الاقل أن ينحى باللائمة على هذه الارادة الخارجية ويجعلها غرضا لذمه وطعنه . ولهذا فر من مصر والتحق بشركة أجنبية للملاحة ، وركب على بواخرها البحار .. وأقام فى الموانىء مندوبا لها ، ثم ترك ذلك وعمل وكيلا تجاريا يجوب المدن ويذرع الارض داعيـا مرغبا ، ثم انقلب مدرسا للغة العربية فى بلاد الأفغان حتى أقعدته الشيخوخة ولم تقعده فى الحقيقة ، ولكن الناس كانوا يرون أن سنه علت فهم يزهدون فيه من أجل ذلك ويؤثرون من هم أدنى منه سنا ، وكان قد جمع مالا فى رحلاته الكثيرة فصار ينفق من رأس ماله حتى قارب النفاد فعاد الى مصر فدخلها ومعه نحو تسعين جنيها .. قال لى وهو يضحك أنه حدث نفسه أنه ينبغى أن يموت بعد أن تنفد ، فما له رزق سواها . ولكنه كان يخرج ويتردد على المكاتب التجارية ، فانس به أصحابهـا وادركوا أنه عالم وأن فى وسعهم أن يستغلوه ، فكان يضبط لهم الكتب القديمـة التى يعيدون طبعها ، وساعده ذلك على اطالة عمره ، فقد أغناه عن الانفاق من رأس ماله أو ما بقى منه . ومعنى ذلك عنده أن عمره طال لانه يحسب عمره بما لديه من المال ، فعلى حسب كثرته

أو قلته يكون ما بقى له فى الدنيا من السنين .. فهل رأيت أعجب من هذا ؟ »

فأطرق جميل بك شيئا ، ثم رفع رأسه وقال : « لا شك أن الامر عجيب ولكن ابنه . . ألم يأخذه بعد أن اهتدى اليه ؟ »

فقال سعيد : « أوه .. ان الرجل شاذ كما تعرف وقد أبى كل الاباء أن يذهب الى بيت ابنه ، لأن هذا خليق أن يحدث فى رأيه اضطرابا لا داعى له فى حياة ابنه . وقد أطال النظر الى البذلة الانيقة التى يلبسها ابنه ، ثم ألقى نظرة على الجلباب البسيط الذى يرتديه هو وأشار بيده المعروقة الى الثوبين ، وقال : « دعنى لشأنى ، فانه غير شأنك » ولم يزد بعد على الابتسام كلما ألح عليه ابنه فى القيام معه »

فقال جميل بك : « والآن ألا نستطيع أن نصنع شيئا لهذا الرجل الذى كشفنا عنه .. ان رجال الآثار يملأون الدنيا ضوضاء كلما وقعوا على حجر قديم ، أفلا ينبغى أن ننبه الناس الى حقيقة هذا الرجل الذى لا يزال حيا وان كان محسوبا فى أهل القرون الخالية ؟ »

فقال سعيد : « بالطبع نستطيع .. يمكن مثلا أن نقيم احتفالا كبيرا فى أكبر الفنادق ندعو اليه رجال الادب والعلم والصحافة وطائفة من كبار الرجال ونقدم اليهم صاحبنا .. غرابة الموضوع نفسه كفيلة وحدها بنجاح الحفلة »

فهز جميل بك رأسه ، وقال : « لا شك .. ولكن صاحبنا لا يبالى هذا ولا فائدة له منه على كل حال ، وأنا أخشى اذا دعونا الى الاكتتاب أن لا نفوز بشىء يستحق الذكر .. فنكون قد أهنا الرجل بلا داع .. ثم من يدرى .. فقد يأبى هذا وذاك .. »

فقال سعيد ، وهو ينهض : « أقول لك .. دع هذا لى . والله الموفق »

لم يكن الاستاذ عبد القادر التميمى يبرح بيته ، وكان

يجلس طول النهار على سريره الضيق تحت النافذة ويطل منها ولا يكاد يحول عينـــه عنها . ولم يكن يرى شيئا فى الحقيقة الا أشكال المبانى القريبة ، وذاك لضعف بصره .. ولكنه لم يكن ينظر ليرى شيئا ، ولا كان يعنى بأن يرى أو أن تأخـــذ عينه المناظر ، وانمـــا كان يحدق كالذاهل . وكانت أسارير وجهه المتجعد تنبسط أو تعمق الاخاديد التى حفرها الزمن ، فيخيل الى الناظر اليه أن هذا وقع ما يشاهده . ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك وعلى نقيضـــه ، فما كان يبصر شيئا وانما كان يدير عينه فى قلبه أى فى ماضـيه ، فيبدو عليه السرور أو الالم أو غير ذلك ، كما يبدو على وجه من يشاهد قصة معروضة فى دار السينما . وكان سعيد يزوره كل يوم مرة — وأحيانا مرتين — فى اليوم ويصغى اليه أكثر الوقت ، وهو يهضب ويسح بذكرياته التى لا آخر لهـــا وقال له مرة : « ما رأيك يا أستاذ .. ان خبر عودتك قـــد شاع وذاع بين الادباء ورجال الصحف وكلهم متلهف على رؤيتك »

فقال بايجاز : « فليتلهفوا » . فقال سعيد : « ولكنهم لا بد أن يصلوا اليك فى النهاية .. كما وصلت أنا .. ولا سبيل الى صـــدهم » . فتجهم الرجل وقال : « ولكن يجب أن يمنعوا .. ان المكان لا يليق .. ما العمل .. أشر .. » قال : « اسمع منى وأطعنى .. خير ما يمكن أن نصنع هو أن يروك كلهم دفعة واحدة » . قال : « ولكن كيف يتسنى ذلك .؟ هذا مستحيل » قال : « كلا .. الضرورة تفتق الحيلة .. وقد رأى المعجبون بك أن خير ما يصنع هو أن يقيموا حفلة يدعون اليها الادباء والعلماء ورجال الصحف ورجال الدولة أيضا .. فنفرغ من الامر كله فى ساعة » . قال : « ساعة .؟ يا حفيظ .. » قال : « هذا أهون من أن تظل كل يوم ساعة معرضا لحضورهم الى هنا وازعاجك .. فكر .. » . قال :

« صدقت .. ولكن حفلة. ؟ حفلة. ان هذا صعب »

قال : « لماذا .. أين الصعوبة ؟ ما عليك الا أن تحضر وتجلس معهم ساعة أو بعض ساعة ثم ننصرف جميعا ، وكفى الله المؤمنين القتال »

فأطرق الرجل قليلا ثم قال : « ولكنى لا أريد أن أختصر حياتى .. انى أستطيع أن أعيش . دعنى أنظر .. »

فعالجه سعيد حتى صرفه عن التفكير فيما تكلفه الحفلة من النفقات للثياب ، فقد كان هذا هو الذى يفكر فيه ويستثقله خوفا على عمره

ولكن المشكل لم يحل مع ذلك ، فقد كان ابنه على بك ــ فقد صار بيكا ــ عبد القادر التميمى ، فى حيرة شديدة من أمره من جراء عناد أبيه .. فانه ــ أى على بك ــ رجل ذو مركز ومقام فى المجتمع ، وقد زوج ابنته منذ عهد قريب لرجل له مركز ومقام فى المجتمع أيضا ، وليس يليق أن يكون أبوه ــ أى أبو على بك ــ هذا الرجل الرث الهيئة الزرى اللباس الرقيق الحال الساكن فى غرفة حقيرة فى ربع عتيق أو جديد اذا أمكن أن يكون هناك ربع جديد ــ وقد استطاع أن يرجىء لقاء بنيه ونسيبه لهذا الاب الذى جاء من حيث لم يكن يحتسب ، فقد زعم لهم أن العثور عليه أو الاهتداء اليه أحدث له رجة عصبية يحسن معها اتقاء ازعاجه الى حين . ولكن الصحف بدأت تكتب وتفيض ، ولا سبيل الى كبح الصحف أو صرفها عن الموضوع .. فما كل يوم يختفى أديب كانت له شهرة واسعة ، ثم يظهر بعد أربعين سنة . وقد حرص جميل بك وسعيد أفندى على اخفاء مسكن الرجل ، ولكن الصحف لا يسعها أن تصبر على ذلك . ومن حقها أن تعرف أين يسكن أو يقيم والا كانت معذورة اذا هى استرابت فى الامر كله . أضف الى ذلك أن حفلة ستقام ويشهدها مئات من الخلق . وقد كانت فكرة الحفلة هى التى

أعانت جميل بك على اقنـاع الصحف بالصبر والانتظار ، وجعلت الموضوع شيقا وخليقا أن يجد القراء فيه مثل لذة الاساطير . ولكن هذا لا يمكن أن يدوم ولا مفر آخر الامر من كشف الحقيقة كلها ، فما العمل ؟

لهذا لجأ الى سعيد وجميل بك ورجا منهما أن ينقذاه ويحولا دون الفضيحة التي يجزع منها ولا يعرف له قدرة على احتمالها ، فاتفق الثلاثة أن يحملوا الرجل ـ ظهر يوم الحفلة ـ بعد أن يلبسوه بذلة الى بيت ابنه ، ومن هناك يذهبون به الى الحفلة فى المساء

□

وجاء يوم الاحتفال ، فذهب اليه سعيد بعد الظهر ومعه ثياب أراد أن يلبسه اياها .. فأبى واستكبر وغضب أيضا ، وقال انه ليست به حاجة الى ثياب ولا الى أحد من الناس ، وأنه لا يريد أن يحضر هذه الحفلة أو يرى وجه انسان ، وأنه ما يعيب ثيابه على كل حال ؟. أليس قد قابل بهـا الناس فى مصر وفلسطين والشام والحجاز والأفغان والعراق وايران .. فاذا كانت لا تكفي هؤلاء المعجبين به والذين يريدون أن يحتفوا ببعثه ، فانه يحسن بسعيد أن يحمـل اليهم ما جاء به من الثياب على مشجب ، ويقول لهم أن هذا ما يطلبون وهو كل ما يستحقون أن يروا

ولم يقل هذه الألفاظ بعينها ولا ما يقرب منها ، بل فاه بما هو أعنف . وكان صوته متهدجا وكلامه متقطعا ، وكانت لحيته الطويلة الكثة تضطرب وأسنانه الباقية تصطك ، فلم يجد سعيد بدا من السكوت والكف عن الالحاح عليه بعـد أن وضـحت له قلة جـدواه ، وسأل الله فى سره الستر والسلامة فى هذه الليلة

وخرجا من الغرفة .. سعيد فى ثيابه الافرنجية التى يلبسها الأفندية من أمثاله ، والأستاذ التميمى فى جلباب فضفاض وجبة قديمة وحذاء أصفر صارت الرقع فيه أكثر من الأصل فكأنه مركوب أبى القاسم ، وطربوش مصرى سوى أنه طرى وعليه لفة كانت فى الأصل مزركشة فأصبحت ألوانها حائلة باهتة

وكان سعيد قد جاء فى مركبة وتركها تنتظر فى الطريق أمام الباب ، فأحاط بها غلمان الحارة .. هذا ينط على السلم وذاك يعبث بالغطاء ويطويه وينشره ويكرر ذلك مرات ، والسائق يصيح بهم أن يكفوا ويلعن الساعة التى دخل فيها هذه الحارة ، ويفرقع بسوطه ليزجرهم ويخيفهم فينفضون متضاحكين ثم يعودون الى غيهم حتى كاد عقل السائق يطير . فلما ركب الرجلان راح الغلمان يجرون وراء المركبة ويتعلقون بها من خلفها ويصيحون ، والسائق يلوح لهم بالسوط ويضرب به ظهر الغطاء حتى خرج الى الطريق العام

ولا نطيل .. ولا نحاول أن نصف لقاء الرجل بأحفاده ، فقد خاب أمل الأسرة كلها حين رآه أعضاؤها وأخذت عيونهم الفاحصة قدم الثياب ورثاثتها . وكان ابنه أعظمهم خيبة أمل وأشدهم قلقا واضطرابا ، ولا سيما حين عرف اصرار أبيه على هذه الثياب الوضيعة المخجلة حتى لأشفق عليه سعيد افندى أن يفلج ، فراح يحاور الاستاذ التميمى ويداوره مرة أخرى عسى أن يهديه الله .. ولكن الرجل كان جبلا لا يتزعزع ، ولما قال : « أنا كما أنا .. فمن كان يقبلنى على علاتى فأهلا به ، والا فانى أرجع الى غرفتى .. فما طلبت أن أجىء ولا أردت أن يعرف ابنى أو سواه أنى على قيد الحياة » ، عندئذ أمسك سعيد أفندى وأقصر

وكانت الحفلة فى فندق من أكبر فنادق المدينة وفى أوسع

قاعاتها ، وقد دعى اليها ـ أو على الأصح اشترك فيهـا ـ نحو مائتين من رجال الأدب والعلم والصحافة والحكم والوجاهة . وكان أكثرهم قد بكروجاء قبل الموعد .. وجاء غير المدعوين ـ أو المشتركين ـ كثيرون ، وقفوا بحيث يرون الداخلين ، واحتشد جمهور غفير على الرصيف ليروا هذا الأديب الذى بعث بعد أربعين سنة ، والذى دأبت الصحف عدة أيام متوالية على الكتابة عنه . واستعد المصورون لاستقباله وتصويره فى القاعة الكبرى بآلاتهم ومصابيحهم القوية

ثم أقبل أحد الشبان يعدو ، وقال : « جاء الاستاذ » ، فساد السكون وانقطع حتى الهمس وتعلقت الأنفاس واشرأبت الأعناق ، واتجهت العيون الى الباب لرؤية هذا الذى كأنما قام من القبر . ودخل الاستاذ فى الثياب التى أبى سواها ، وقد أخذ بذراعيه جميل بك وسعيد افندى ، وأقبل ابنه وراءهم . ولكن الناس لم يعيروا الابن أدنى التفات وانما كانت عيونهم على هذا الرجل الهرم ذى الثياب العتيقة واللحية البيضاء والجبين المقطب والعين الثابتة اللماعة وان كانت لا ترى الا قليلا . وكان قد ثقل عليه ما رأى من ابنه ، فآلى ليرجعن الى غرفته . وعرض جميل بك المدعوين على الاستاذ بأسمائهم ، فصافحوه واحدا بعد واحد حتى كاد ينخلع ذراعه وان كانوا جميعا قد ترفقوا به وحرصوا على الاكتفاء بلمس راحته . ولم يبد عليهم ما خشيه ابنه من الاشمئزاز أو الاستخفاف ، حين تقع عيونهم على ما هو فيه من الهلاهيل

وأديرت ألوان الطعام ، فكان الاستاذ يسأل عما يعرض عليه ، ما اسمه وكيف يصنع .. ولا يتناول الا بقدر . وكان المدعوون فى أول الامر يحدجونه بعيونهم ، ولكنهم ما لبثوا أن انصرفوا الى الطعام والحديث . ولكل شيء

آخر ـ انتهى الأكل وبدأت الخطب والقصائد والاستاذ مطرق كأنه يصغى ، وكان يهز رأسه من حين الى حين كمن سره شيء ـ أو ما يسمع

وانتهى هذا أيضا على طوله ، فهمس جميل بك فى أذن الاستاذ : « ألا تحب أن تتفضل بكلمة ترد بها عليهم »

فقال الاستاذ مستغربا : « أنا ؟.. أقول كلمة ؟.. أرد على ماذا ؟..الحقيقة أنى لم أكن مصغيا..لم أكن مصغيا .. لم يكن بالى اليهم »

فذعر جميل بك ـ فما كان يتوقع هذا ـ وقال : «ولكن يا أستاذ .. لا بد من كلمة .. لا نستطيع أن نقول لهم انك لم تكن مصغيا الى كلامهم .. أرجو يا أستاذ .. كلمة شكر قصيرة .. القليل منك كثير »

فهز الاستاذ كتفيه ، وقال : « ان هذا غريب ! لقد كنت أفكر فى ليلة قضيتها فى كهف .. »

فقال جميل بك مقاطعا : « فيما بعد الحفلة نسمع ماكنت تفكر فيه .. لا بد أنه كان شيئا غريبا .. ولكن الآن .. أرجو يا أستاذ »

فالتفت اليه ، وقال : « ماذا قلت انهم كانوا يقولون ؟. انى لم أكن مصغيا »

فقال جميل بك : « كانوا يثنون عليك ويمدحونك ويذكرون كتبك العديدة ويصفون ما فيها .. كلام كثير يصعب أن ألخصه لك الآن . أنا أيضا قلت كلمة ولكنك لم تسمع مع الأسف .. نهايته .. لا بد من الرد ، فاصنع معروفا »

وكان سعيد ـ حلال المعضلات ـ قد أدرك وهو فى مكانه أن فى الامر شيئا ، فخف الى جميل .. فلما عرف المسألة انحنى على الاستاذ ، وهمس فى أذنه : « ان هؤلاء الناس

خليقون أن يتوهموا أننا ضحكنا عليهم أو أننا مخدوعون ، وأنك لست الاستاذ التميمى وانما أنت رجل غيره ينتحل اسمه ، فقم قل كلمة والا . . » ولم يتمها فقد نهض الاستاذ معبسا ، ورفع رأسه كأنما يحاول أن يقيم ما قوسه الزمن ، وكانت لحيته تضطرب ، وشفته تختلج ، وكفاه لا تثبتان على المائدة التى وقف معتمدا عليها ، وظل هكذا نحو دقيقة كان من الواضح فى أثنائها أنه يعالج نفسه ليردها الى السكون ، ويحاول أن يضبط أعصابه ويفىء بها الى الاتزان ثم فتح فمه ، وقال بصوت خافت : « أيها السادة » وسكت شيئا وثبت حملاقه فكأنه تمثال نصب فى مكانه ، ثم ابتسم فجأة وبدأ يتكلم بلا توقف . ولم يشكرهم كما رجا منه جميل بك ، بل قال لهم فى صراحة سرت فريقا وساءت آخرين ، انه وجد بالتجربة الطويلة أن من العسير أن يهرب المرء فى هذه الدنيا من الناس ــ ومن الأدب والأدباء وعشاق الأدب على الخصوص ــ المخلصين والمتكلفين والذين يظلون يوحون الى نفوسهم أنهم يحبون الأدب حتى يؤمنوا بذلك. كلا ، لا سبيل الى الهرب .. وطالب الفرار لا بد له من الجرى الطويل والذهاب الى أبعد مما كانت الحاجة تدعو اليه قبل نصف قرن . وهو يتكلم عن خبرة فيجب أن يصدقوه، بل ان وجوده الليلة بينهم دليل مادى على تعذر الهرب فى هذا الزمان الذى امتد به العمر اليه . وكيف يهرب الانسان ؟. الى أى مكان يذهب وكل مكان فيه ناس ؟ . وقد صار الناس أكثر والاتصال بينهم أسرع وأسهل .. ومن أى مكان يهرب ؟ ان الهرب الصحيح مستحيل .. وقد يستطيع المرء أن يعيش فى الصين ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أو ينسى أن القاهرة والاسكندرية ودمشق والقدس موجودة . والهرب من الزمان أصعب . نعم يتوهم المرء أنه يعيش لا فى الحاضر بل فى المستقبل وللمستقبل ، ويروح يعزى نفسه عما هو كائن بما يزعم أنه سيكون ، ويذهب

يعمل ليقلب الدنيا ويجعلها كما ينبغى أن تكون ، « انى أؤكد لكم أنى أعرف هذا . فقد فعلته ـ أعنى توهمته ـ وعشت فى سكرة طويلة ونشوة مستمرة وحلم دائم بما سيكون ».

وقال لهم ان هذا كله عبث فى عبث،وأكد لهم أنه لا مسوغ على الاطلاق لأن يفترض الانسان أن للجنس الانسانى مستقبلا .. هذا أولا . وثانيا أن ما نسعى له ونلح فى طلبه أو تمنيه ، قد يكون مستحيل التحقيق . وهب أن تحقيقه ميسور ، فقد يتبين أنه ليس مما يسيغه أو يرتاح اليه أو يرضى به الجنس الانسانى . وسألهم هل هم يعتقدون أن الانسان ينشد السعادة ؟. ولو كانت السعادة الدائمة الخالدة التى لا تزول ولا تتغير ممكنة ، ألا يستفظعها الانسان ويفرق من تحقيقها ؟. على أن التفكير فى المستقبل والسعى له لا يمنعان أن الحاضر موجود وأنه مؤثر بوجوده .. وهناك مهرب آخر اذ يتعلق المرء بالمثل العليا وصور الكمال ، ولكن اللجوء الى الخيال لا ينفى الحقائق المحيطة بالانسان. وانتهى الى أن المهرب الوحيد الصحيح لا يكون فى الحياة وهذا لايعد مهربا ، لأن المرء لا يشعر به ولا ينعم بادراكه أنه استطاع الهرب .. ولو كان هذا مهربا حقيقيا للجأ اليه ! وابتسم وقال انه يرجو أن لا يلجئوه الى هذا الذى ليس مهربا ..

واستطرد بطريقة ما الى كتبه وما يلقى التكريم من أجله ، فقال انه واثق ان أكثر الموجودين لم يسمعوا باسمه ، ولم يكونوا يعلمون أن له كتبا ، وأن الذين قرأوها فهموا منها غير ما أراده ، وقد يكون هذا عيبه هو كما قد يكون عيبهم هم ، ولكنه الواقع على كل حال . والمجتمع لا ينتظم أمره الا بالمجاملة وهى شىء حسن فى ذاته ، ولكنه هو فرغ من ذلك كله وأخرجته سنه من المجتمع وأعفته من ضروراته . وهو ليس من هذا الزمن ، فيحسن أن يرتد ويتراجع الى ما أخرجوه منه لأنه ليس الا قطعة متخلفة من زمن سابق ،

ولا شك أنهم أدركوا غلطتهم حين خرجوا به الى زمانهم ..

وظل يهضب على هذا النحو الذى لم يكن منتظرا ولا كان فى حساب أحد . وطال الأمر فمل النـــاس وأحس هو الهمس .. فلم يترفق بالذين ضجروا كأنما أراد أن ينتقم لنفسه أو أن يبغضها اليهم فيتركوه بعد ذلك فى سلام .. ولم يطق البعض المقام أو طوله ، فتسلل خارجا وتبعـه غيره وغيره حتى لم يبق الا دون النصف

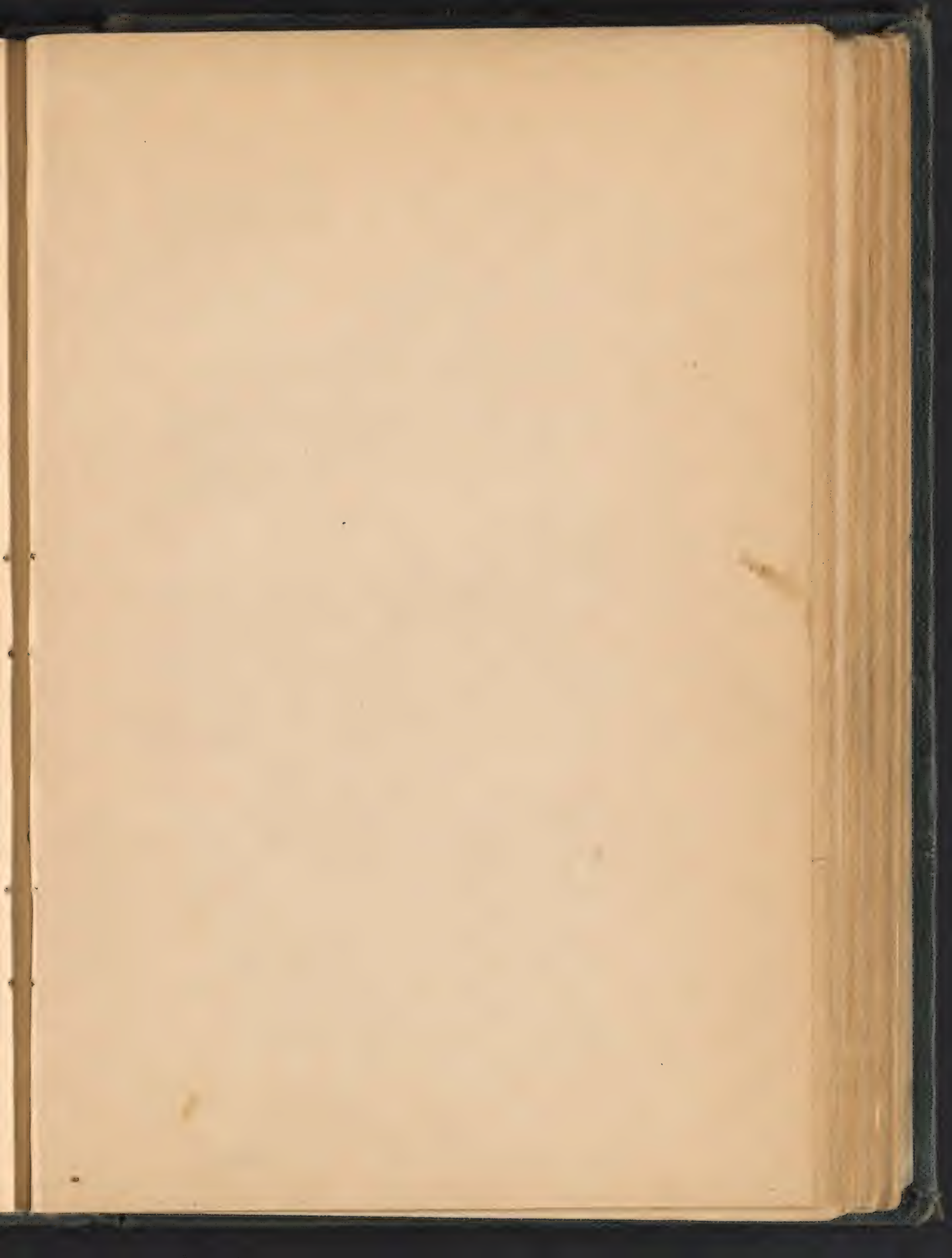
ولكل شيء آخر .. عاد الاستاذ الى غرفته لا الى بيت ابنه واستلقى على فراشه بثيابه ، فقـد أضناه الـكلام والوقوف أكثر من ساعة ونصف ساعة

وفى الصباح جمع ثيابه وأشياءه ، وانتقل الى ربع آخر

وجاء سعيد بصحف الصباح وفيها وصف الحفلة التى ظلت أياما تدعو لها وتروج ، وفى صدر أكثرها خطبته التى عنى سعيد بتدوينها

فلم يجد الاستاذ ، وأعياه أن يعرف أين ذهب .. فأسرع الى ابنه على بك يخبره ويسأله ما العمل ، فقال على بك وهو يرسل الدخان فى الهواء : « أظن أن الواجب أن نحترم ارادته ونعفيه من الاثقال عليه »

فمضى عنه سعيد وهو يهز رأسه ويفكر فى على بك ، أكثر مما يفكر فيمن عاد فاختفى



النسيان

ــ انك قاس ..

ــ أنا ؟.. ياخبر اسود .. وهل فى هذه الدنيا الطويلة العريضة من هو أرق منى قلبا ؟

ــ ولكنه أبى .. وأنا أتألم

ــ أعرف انه أبوك .. وأعرف أيضا انه نادر ، وانه منقطع القرين .. أيكفى هذا الثناء أم تريدين الزيادة ؟ يكفى؟ حسن .. ولكن ذهوله يضحك الثكلى ، فماذا أصنع ؟ .. ما حيلتى ؟

فقالت الفتاة بلهجة مبطنة بالعتاب : « ولكن هل من الضرورى أن تقلده ؟ ان هذا هو الذى يسوءنى منك »

فقلت : « فكرى يا فتاتى .. قولى لى كيف يمكن أن أقص عليك الحكاية وأصف لك ما حدث بغير ذلك .. انى لا أريد تقليده ، ولكن الصدق فى الرواية والفن فى عرضها يتطلبان ذلك .. بل يجىء منى التقليد عفوا وعلى غير عمد » فاقتنعت أو هى لم تقتنع ، ولكنى كنت قبل أن يدور هذا الحوار ، قد شرعت أقص عليها حادثة جديدة من حوادثه التى لا آخر لها .. فلما احتجت الى تقليده فى بعض مواقفها ضحكت ، ثم انقلبت تعاتب وتستهجن التقليد وتعيب المحاكاة . وهذا بعض ما يحيرنى من المرأة ، فقد كان ضحكها وعتابها فى وقت معا ، وكانت تضحك وتشير الى بيدها منكرة ماترى وتسمع منى

وقد عرفتها من أبيها ، وبفضل ذهوله العجيب . وكانت تخرج معه لتقيه عواقب ما يقع منه . فكأنها وهى ترافقه

وتروح وتجىء معه ، ذاكرته الذاهبة . واتفق يوما أن نسيها ـ نعم نسيها ـ وخرج وحده ، واهتدى ـ لا يدرى أحد كيف ؟ ـ الى ناد لم أكن أعرف أن مثله موجود فى بلادنا ، فان حياة الأندية طارئة وعهدنا بها حديث جدا . وكنت قد دعيت فى تلك الليلة الى زيارة هذا النادي ، وقضاء بعض الوقت فيه .. وكان الذى دعانى يرجو أن أنضم اليه ويحثنى على ذلك ويزينه لى ، وأنا أتأبى وأبين له ان حياة الأندية فى مصر جافة ثقيلة ، وانها قلما تكون الا حياة مقامرة أو ما أشبه ذلك ، فيضحك منى وينفى ذلك ويقول : « تعال أنظر بعينك ثم احكم » فذهبت وكان أول من لقينا هذا الشيخ ولم أكن أحتاج الى من يعرفنى به ، فانه صديق قديم .. فأقبلت عليه وجلست معه فصفق ، فلما جاء الخادم نظر اليه مستغربا ثم الى أنا مستفهما . فقال الخادم ، وكان يعرف ذهوله : « هل تريد شيئا يا بك ؟ »

فقال البك : « ا .. ا .. أريد .. أريد .. ماذا أريد ؟ »

فكتمت الضحك ، وقال الخادم : « لقد دعوتنى ياسيدى فهل أجىء لك بقدح من الويسكى ؟ » فنسينى وقال : « ا .. ا .. نعم .. نعم .. ا .. نعم نعم نعم .. »

وذهب الخادم وعدنا الى الحديث الذى لايكون معه الا محاورات ولفا من هنا وههنا ، بسبب هذا الذهول الذى أصيب به . فقال بعد كلمات : « ولكنى أهملك .. ان هذا لايليق .. أعذرنى .. لقد نسيت أن أدعو الخادم »

وصفق مرة أخرى ، فلما جاء الخادم لم أقل شيئا انتظارا لما يكون منه ، فقال له : « ا .. يا خليل .. هل طلبت منك شيئا ؟ »

فقال الخادم : « نعم .. قدحا من الويسكى »

فسأله : « هل جئت به ؟ أعنى .. »

قال : « لا يابك .. سأجيء به حالا »

ومضى عنا فصفقت أنا وطلبت ما طاب لى ، فمال على الخادم وهمس فى أذنى : « اذا سمحت لى يابك فان اسمى عبده ، ولكن البك ينسانى ويطلق على كل يوم اسما جديدا »

وسألنى الشيخ المسكين بعد أن ذهب الخادم : « ماذا يريد هذا الرجل ؟ » . قلت : « لاشيء .. كان يقول ان اسمه عبده لا خليل » . قال : « من هو ؟ »

قلت : « الخادم » . قال : « ماله ؟ » . قلت : « اسمه عبده » . قال : « عبده ؟ » . قلت : « نعم » . قال : « من عبده هذا ؟ » . قلت : « الخادم »

وأحسست انه سيعود فيسألنى : « ماله » وكان الويسكى قد أقبل به الرجل فقلت له : « آه .. هذه كأسك .. ومعها كأسى أيضا »

فنظر الى كأنه لايفهم ما أقول وسكت أنا ، فما أدرى ماذا يدور فى نفسه . وطال الأمر ، فشعرت بالضيق .. فليس مما يخف محمله على النفس أن ترى غيرك يحدق فى وجهك ولا يطرف . فنظرت اليه مستغربا ، ولكنه كان كأنه لايرانى وخيل الى انى فى طريق نظرته ، فتزحزحت عن مكانى الى الوراء قليلا وبقى هو ثابت الحملاق لا يشعر بى ولا بحركتى ، فحولت وجهى الى حيث ينظر فلم أر شيئا — أعنى انى لم أر ما يستوجب هذا التحديق كله — فتركته لشأنه حتى يثوب الى ويمل طول النظر

وبعد هنيهة ، قال وكأنه يحدث نفسه : « لم أر فى حياتى انسانا يأكل هكذا »

فدهشت وقلت : « ايه ؟ كيف ؟ »

فأهمل سؤالى — أو لعله لم يسمعه — وسألنى هو : « هل تعظم اللقمة وتبلعها بلا مضغ ؟ »

فزادت دهشتى ، وقلت : « كلا بالطبع .. من قال لك انى أصنع ذلك ؟ »

قال : « خفت أن تكون ممن يفعلون ذلك .. ليس أضر على المعدة منه .. » . فسكت ، فقد استطردنا الى حديث لم يكن لى فى حساب ، فعاد يقول : « كلا .. لا تفعل .. احذر .. »

فقلت ، وقد مللت : «ما الذى يجرى ببالك هذا السؤال؟» قال : « ايه ؟.. أى سؤال ؟ » . قلت : « المضغ والبلع ، ولا أدرى ماذا أيضا » . قال : « ألا تمضغ طعامك ؟ » . قلت : « بالطبع أمضغه .. لماذا تسأل ؟ »

قال : « خفت ألا تكون تمضغه .. لقد كان الطبيب يوصينى أن أمضغ اللقمة اثنتين وثلاثين مرة أو ثلاثا وثلاثين لا أدرى .. الزيادة احتياط ينفع ولا يضر .. هل تفعل ذلك ؟ »

فقلت لنفسى ان النسيان فى ذاته وبمجرده ثقيل وبلاء عظيم ، ولكنه يكون أعظم وأثقل اذا ألح على المصاب به خاطر واحد يحوم حوله العقل ولا يقع ولا يستقر ، فأردت أن أصرفه عن ذلك فسألته هل له فى كأس ثانية من الويسكى ، وحدثت نفسى وأنا أسأله ان رؤيته مخمورا لا يكاد يعى مايقول أفضل وأشبه بما ينبغى، وأقل استدعاء للعجب والاستغراب من تخليطه وهو مفيق صاح . ولكنه رد على سؤالى بسؤال أذهلنى ، فقد قال مستغربا : « وهل شربت ويسكى ؟ » ووجه العجب فى كلامه انه لم يشعر بالتأثير المألوف للخمر ، فكأنه لا يسكر لأنه ينسى أنه شرب شيئا . ويظهر أن نسيانه هذا يعفيه من تأثير الخمر وينجيه من أسكارها ، وصار السؤال الذى يحيرنى هو : « اذا كانت الخمر لا تؤثر فى نفسه أو جسمه أو عقله ، فلماذا يشربها ؟ »

وبدا لى ان خير ما أصنع هو أن أعود به الى بيته ،

فاقترحت ذلك فوافق ونهضنا . وحملته فى السيارة الى هناك .. ولم يكن ينسى أين يسكن ، ولكن الموقع كان يغيب عنه أحيانا وتخونه ذاكرته فيقف حائرا لايدرى ماذا يصنع حتى يتذكر أو يلقى من يعرف البيت فيسأله ويدله عليه أو يمضى به اليه

وكانت بنته فى النافذة تنتظر أوبته وهى قلقة خائفة عليه .. فأسرعت الى الباب تفتحه ، وكانت ذكية فلم تعاتبه . وما جدوى عتاب من لا يتذكر شيئا ؟.

ودخل غرفته ونسينى مع فتاته ..

وقالت لى : « ماذا حدث ؟.. لاتدعنى معلقة .. طمئنى» قلت : « كل خير .. » وشرعت أصف لها ما وقع منه وأقلده وهو ينظر الى الرجل الأكول المبطان الذى يعظم اللقم ويبلعها بلا مضغ ، وقلت لها بعد ذلك : « انى أحسد أباك فما أشك فى انه قد نسى كل ما يجب أن ينساه المرء من متاعب الحياة ومنغصاتها لو كان الى هذا سبيل غير الذهول»

قالت : « انى أخشى أن ينسى اسمه فلا يعود يعرف من هو ، ألا تكون هذه مصيبة ؟ » . قلت : « يا فتاتى انه ليس أحمق ولا أقل عقلا ممن يحمل هم المصيبة قبل نزولها .. دعى هذا الى أوانه وعسى ألا يجىء . ومع ذلك هل أنت واثقة أنه يعـرف اسمه ؟. من يدرى ؟.. أمن أجل أنا لا نسأله عنه يكون عارفا ؟ » . قالت : « لا تفزعنى » . قلت : « انما أردت أن أبين لك أن ما تخافين ، لو وقع لما كان شرا فى الحقيقة أو أدهى مما هو حاصل الآن ، فلا تزعجى نفسك بلا موجب . وعسى ألا يكون الا كل خير .. والآن فلنتكلم عن شىء آخر .. شىء أحلى من أبيك وان كان يكفيه من الحلاوة انه كان له هذا الفضل العظيم على الدنيا التى تجملينها يا فتاتى »

فقالت وهى تضحك : « انك لا تعرف الا موضوعين حين

تكون معى .. أنا وأبى » . قلت : « وأنا .. أليس لى حساب عندك ؟ ألا أصلح أن أكون موضوعا ثالثا معكما ؟ » . قالت : « بالطبع .. ولكنك لست شيئا ثالثا .. موضوعك هو موضوعنا .. فهما يبقيان اثنين ليس الا »

قلت بابتسامة أردت أن يكون لها معناها : « صحيح ؟ بالذمة ؟ » . قالت : « ياخبيث ليس هذا ما أعنى » . قلت : « هذا الذى لا تعنينه ، ما هو ؟ » . قالت : « طيب أسكت بقى » . قلت : « سكتنا ياستى » ومددت يدى الى كفها الرخص وأطبقت عليه أصابعى الخشنة ، فتركتنى هنيهة ثم سحبت كفها فنظرت اليها فقالت : «أو لاتسكت؟»

فلم أتكلم وأشرت الى فمى المطبق فضحكت ، فهززت رأسى موافقا وأنا أبتسم ، فعادت الى الضحك ، فعدت الى اشارات الاستحسان والرضى . وتكرر هذا مرات ، فصاحت بى : « الا تنطق ؟ .. أين لسانك ؟ » . فقلت وأنا أنظر الى السماء ـ أعنى الى السقف فقد كان يحجب السماء : « حرت والله معك .. أسكت طوعا لأمرك فلا يرضيك الصمت . وأتكلم امتثالا لمشيئتك فلا يروقك الكلام فماذا أصنع بالله ؟.. كونى منصفة »

فضحكت ، فقلت : « عندى اقتراح » . قالت : « ما هو ؟ » . قلت : « هناك ما هو أبلغ من كل كلام وأحسن من الصمت أيضا وان كان مما يحوج اليه ولا يتيسر الكلام معه »

فزوت ما بين عينيها ، وقالت : « ما هذا ؟ »

قلت : « هل أفهم من تقطيبك أنك غير موافقة سلفا ؟ » . قالت : « لست مقطبة ، ولكنى أفكر » . قلت : « لماذا تتعبين هذا الرأس الصغير بالتفكير ؟ . دعيه مرتاحا وتعالى نعمل بالاقتراح أولا ، ثم نفكر بعد ذلك فى جماله وما أفدناه من السرور به » . قالت : « ولكن ما هو ؟. ألا تقول لى

أولا ؟ » . قلت : « هو ذا » وملت عليها فلثمت فمها

ورفعت عينى ، فاذا أبوها واقف فى مدخل البـاب ، فتنحنحت ونهضت وقلت : « لقد كان بيننا رهان .. هى تقول أنك نسـيتنى ، وأنا أقول انك لم تنس .. فهـل نسيت ؟ »

فشغله الامر الجديد عما سبقه ، وأنساه ما رآه ، وبدا عليه أنه لا يعرف أو على الأصح لا يذكر ، هل نسينى أو لم ينسنى . وشعرت الفتاة أن الجو صفا وأن الأزمة انفرجت ، فنهضت اليه وعانقته وقالت : « بالطبع نسيت .. أعترف بالحق »

فعادت ذاكرته تحـاوره ، وسألهـا : « الحق ؟.. أى حق ؟ » . قالت : «انك نسيت» . قال : «نسيت .. نسيت ماذا ؟ » . فقلت لنفسى انك رأيتنى أقبل فتاتك يا مسكين

ولقيت الفتاة بعد ذلك مرة ، فقالت لى : « هل تعرف أنه يخيل اليه أنه رآنى أقبل رجلا أو أن رجلا يقبلنى ، ولكن هذا يطوف برأسه كالحلم .. بل هو فيما يعتقد حلم ؟»

فسألتها : « ماذا قلت له ؟ » . قالت : « قبلته فقط .. وماذا تريد أن أقول له ؟.. »

قلت : « وأنا .. أليس لى شىء ؟. أزعمينى كأبيك أو عمك وقبلينى .. أم يجب أن أرسل لحيتى أولا ؟ »

فصاحت بى : « احذر »

قلت : « اذن هاتيها ... حلوة طويلة »

فتاة الحارة

كنا غلامين صغيرين وجارين صديقين ، وكنت أنا أسن منه قليلا .. ولكن الفرق كان فرق شهور لا تقدم ولا تؤخر ، لا فرق سنوات تباعد بين الناس . وكان الوقت صيفا والمدارس مغلقة ، فلا عمل أكثر الوقت الا اللعب فى الشارع . وكان يفصل بيتينا بيت صغير لأرملة وبنتيها ، واحداهما فى مثل سننا والاخرى أكبر بسنوات وأضخم جسما ، وكنت أسميها فيما بينى وبين صديقى « السقاء » لأن ثدييها كانا - فيما يبدو لي - كالقربتين . ولم أكن أرتاح اليها ، ولكن أختها الصغيرة كانت أثيرة عندى وحبيبة الى .. فكنت لهذا أصانعها ، ولكن صدرى كان يضيق بها أحيانا فأغضبها وأمرى الى الله . وكنت اذا زجرنى أهلى عن اللعب فى الشارع ، وملوا ترقيع الثياب التى ألبسها فى الصباح نظيفة سليمة فلا يجىء العصر الا وهى ممزقة وعليها طوائف شتى من الأوحال والأقذار .. أقول كنت اذا نهيت عن الشارع ، أصعد الى السطح وأتدلى منه الى سطح الفتاة وأصفر لجارى فيوافينا ، وننحدر جميعا الى غرفة من غرف البيت أو الى فنائه - وكان رحيبا - فنلعب ما حلا لنا اللعب حتى اذا أمسى الليل تفرقنا الى بيوتنا

واتفق يوما أن كانت الفتاة معى فى ساحة الدار ، وكنت قد تخلفت بعد ذهاب صديقى وصعود الأخت الضخمة - أو « السقاء » كما كنت أسميها - وكان باب البيت مواربا ، فطوقتها - أعنى البنت الصغيرة لا السقاء - بذراعى وقبلتها ، وكانت فيما أحس تلين لى فى العناق ، ولكنها عبست فجأة وتفلتت منى ودفعت ذراعى عنها بعنف ،

وذهبت تعدو الى السلم .. فتعلقت بأذيالها ، ولكنها شدت الثوب أو على الأصح ضربتـه بيدها ، فطـار من يدى وصعدت بسرعة ، وتركتنى واقفا أنظر وأتعجب

وفى صباح اليوم التالى ، قالت لى أمى فجأة ونحن على الطعام : « هل أنت بنت ؟ » . فصحت مستغربا منكرا : « بنت ؟ » . فقالت : « نعم .. لماذا تلاعب البنات ولاتلاعب الأولاد من أمثالك ؟ »

فأطرقت استحياء وقد أدركت أنهـا تأخـذ على شيئا وتستهجن مصاحبتى لهذه الفتاة ، ولم يخطر على بالى أن فى الأمر أكثر من هذا . وجاء الظهر وجاء معه رجل تركى الأصل عتيق من أصدقاء أخى الاكبر ـ وكان يلازمه من الظهر الى نصف الليل ـ وكان شعره أبيض ووجهه مغضنا، كما تبدو المدينة للمشرف عليها من قمة جبـل شامخ ، فصاح بى وأنا خارج : « تعال يا سيدى .. تعـال » . فوقفت مستغربا لهجته ، وقلت : «نعم» . فقال : «جارتك هذه ، يظهر أنها تعجبك »

فغضبت وتألمت ولكنى تجلدت ، فقد كان اذا اعتبرنا السن يعد جدا أعلى لى ، وقلت : « نعم »

فضحك وتفل وفتل شاربيه الكثيفين ، ثم قال : « لقد رأيتك البارحة تحضنها » . فصحت به : « ايه ؟.. » . فأشار الى بيده المتجعدة المعروقة : « لا تغضب .. كلنا كنا صغارا .. ولكن يا ابنى .. »

فلم أدعه يتمها وانصرفت عنـه ، وأنا أغلى من الغيظ والنقمة على هذا الطفيلى الوقح الذى لا شـك أنه روى لأخى ما رأى منى ، فلم يسع أخى الا أن ينبه أمى .. فقد كان غير شقيق ، وكان يؤثر أن يدع أمر تربيتى لأمى . وخرجت الى الشارع أنفخ ولا أكلم أحدا حتى ولا صديقى الأثير ، وكان يرى ما عرانى فيلح على أن أفضى اليه بالأمر

فلا أجد لساني قادرا على الدوران . وانقطعت عن الفتاة أياما كان صديقى فى خلالها حائرا بينى وبين صاحبته ، يعز عليه ألا يكون الى جانبى وهو يرانى مهموما مكروبا لا أتسلى ولا أقول بشجوى وألمى ، ويكون معى فيمل صمتى الذى لا أخرج عنه ، وتصبو نفسه الى مجالسة السقاء وأخيرا نفد صبره ، فقال لى يوما : « اسمع .. تعال معى الى فوق » .

وكان يعنى «بفوق» منزل الجارة ، فنظرت اليه مستغربا كأنما كان عليه أن يعرف كل ما كتمت عنه فقال : « تعال .. قم .. قم »

فانحلت العقدة وانطلق لسانى ، وقلت له : « ماذا يعجبك فى هذه الفتاة ؟ » . فتلعثم وأخذ يتنحنح ، ولم يزد على أن سأل : « ايه ؟ » . قلت : « أو ماذا يعجبها فيك ؟ »

فرمانى بنظرة عتب ثم ابتسم ولم يقل شيئا ، وخيل الى أنه لو كان له شاربان لفتلهما ، ثم قال ببساطة : « الحقيقة أنى أحبها و و و .. وهى أيضا تحبنى » . فوثبت الى قدمى من فرط الدهشة ، وتناولت كتفيه فهززتهما وصحت : « ماذا تقول ؟.. أعد هذا »

قال : « ماذا جرى لك ؟. ألم تسمع ؟. أحبها وتحبنى .. شىء بسيط جدا » ونحى يدى عن كتفيه

وثابت الى نفسى ، فأطرقت قليلا ثم سألته : « كيف حدث هذا ؟ » . فقال : « لا أدرى كيف حدث ؟. ولكنى أول من أمس سلمت عليها وجلست بجانبها ثم ملت عليها فقبلتها ؟ »

فسألته وأنا فى دهشة : « قبلتها ؟.. هل تعنى أنك قبلتها ؟ »

فضحك وقال : « بالطبع أعنى أنى قبلتها . ماذا تظننى

أعنى غير ذلك ؟ » . فسألته : « ولم يسوءها ذلك ؟. لم تغضب ولم تذهب عنك ساخطة ؟ » . فقال مستغربا : « تغضب ؟. لماذا تغضب ؟. أما انك لغريب » . فقلت وأنا مطرق : « غريب ! » . فقال : « غريب ؟. ما هو الغريب ؟ » . قلت : « أعنى أنى أعرف واحدا قبل فتاة فسخطت عليه وولت منه هاربة » . فقال ببساطة : « لا بد أن يكون له وجه قرد » .. وضحك

وتركته وعدت الى البيت ، فكان أول ما صنعت أن نظرت فى المرآة وتأملت وجهى كما يبدو فى صقالها ، ثم درت حول نفسى وعينى على جانبى وجهى ثم تنهدت وأقصرت

□

وكان للفتاة ـ فتاتى أنا لا السقاء ـ قطة صغيرة عزيزة عليها ، فاتفق أن مر كلب ضال ، وكانت هى ـ أعنى القطة لا الفتاة ـ واقفة على العتبة .. فدنا منها الكلب وهى غافلة ، ولعلها كانت مغفية ، فأحست أنفاسه وهو يشمها ، ففتحت عينيها وهى تتثاءب وانتفضت مذعورة .. وثبت وثبة ، قطعت بها عرض الشارع ، ولم يكف هذا لاطمئنانها ، فدخلت من باب ألفته مفتوحا ، وكان فى ساحة البيت شجرة « جميز » فانطلقت تتسلقها ، ولم تزل تصعد فيها حتى صارت على أعلى فرع فيها . وكانت الفتاة قد بصرت بالقطة وهى تعدو مذعورة ، وتدخل البيت المقابل لبيتها . فانحدرت مسرعة ودخلت وراءها ونظرت فلم تجد شيئا ، فارتدت الى الباب وقد اغرورقت عيناها بالدموع . وأقبل صديقى فى هذه اللحظة فسألها عما بها ، فقالت له ان الكلب أفزع القطة فهربت لا تدرى الى أين وهى تخشى أن يأخذها الجيران

فركل صديقى الكلب ـ أعنى أن صديقى ركل الكلب ، والمعنى واضح فى الحقيقة ولكنى أوثر هذا الايضاح اتقاء لكل غلط ـ ودخل مع الفتاة البيت ووقفا وأرهفا آذانهما، فسمعا مواء خافتا فتلفتا ، ثم عرفا أن القطة على الشجرة فجعلا ينظران من هنا ومن ههنا ويميلان رأسيهما الى اليمين والشمال حتى رأياها ، وجعلت الفتاة تدعوها بأصوات مختلفة أن تنزل والقطة تأبى أن تطمئن وتخشى اغراء الأصوات المهيبة بها أن تنزل ، فتصعد حتى بلغت القمة فدعت الفتاة صديقى أن يتسلق الشجرة ليجيئها بالقطة ، فهز رأسه وقال لها : « حرام عليك .. هل تريدين أن أقع فأموت ؟ » فتوسلت اليه فلم يلن ، وقال ان القطة لا تلبث متى هدأ روعها أن تنحدر من تلقاء نفسها . وكان هذا صحيحا فما يمكن أن تظل القطة على الشجرة طول عمرها ، ولكن قلب الفتاة أبى أن يطمئن فخرجت باكية ورأيتها أنا فانطلقت أعدو اليها ، وقد أحسست أن قلبى يتفطر ، وسألتها ماذا يبكيها .. فقصت على الحكاية ، وقالت ان صاحبى لايريد أن يتسلق الشجرة خوفا على عمره ، فقرضت أسنانى وقلت : « أنا أفعل » ففرحت وأبرقت أسارير وجهها ، وقالت : « صحيح ؟ » قلت : « بالطبع صحيح .. وهل تظنين أنى مثله أخاف على عمرى .. ومم أخاف ؟ »

وخلعت حذائي ورميت الطربوش وشرعت أتسلق الشجرة المخوفة حتى صرت بين أغصانها الغلاظ المتشابكة ، وذهبت أزحف على الغصون السميكة التى يحمل الواحد منها جملا لا غلاما خفيفا مثلى حتى بعدت عن الارض جدا ، وحتى أنها كانت تكلمنى فلا أسمع وأصيح بها أن ترفع صوتها وأحتاج أن أنحنى وأفرق الأوراق لأرى أين هى . ولم أزل أصعد حتى دنوت من

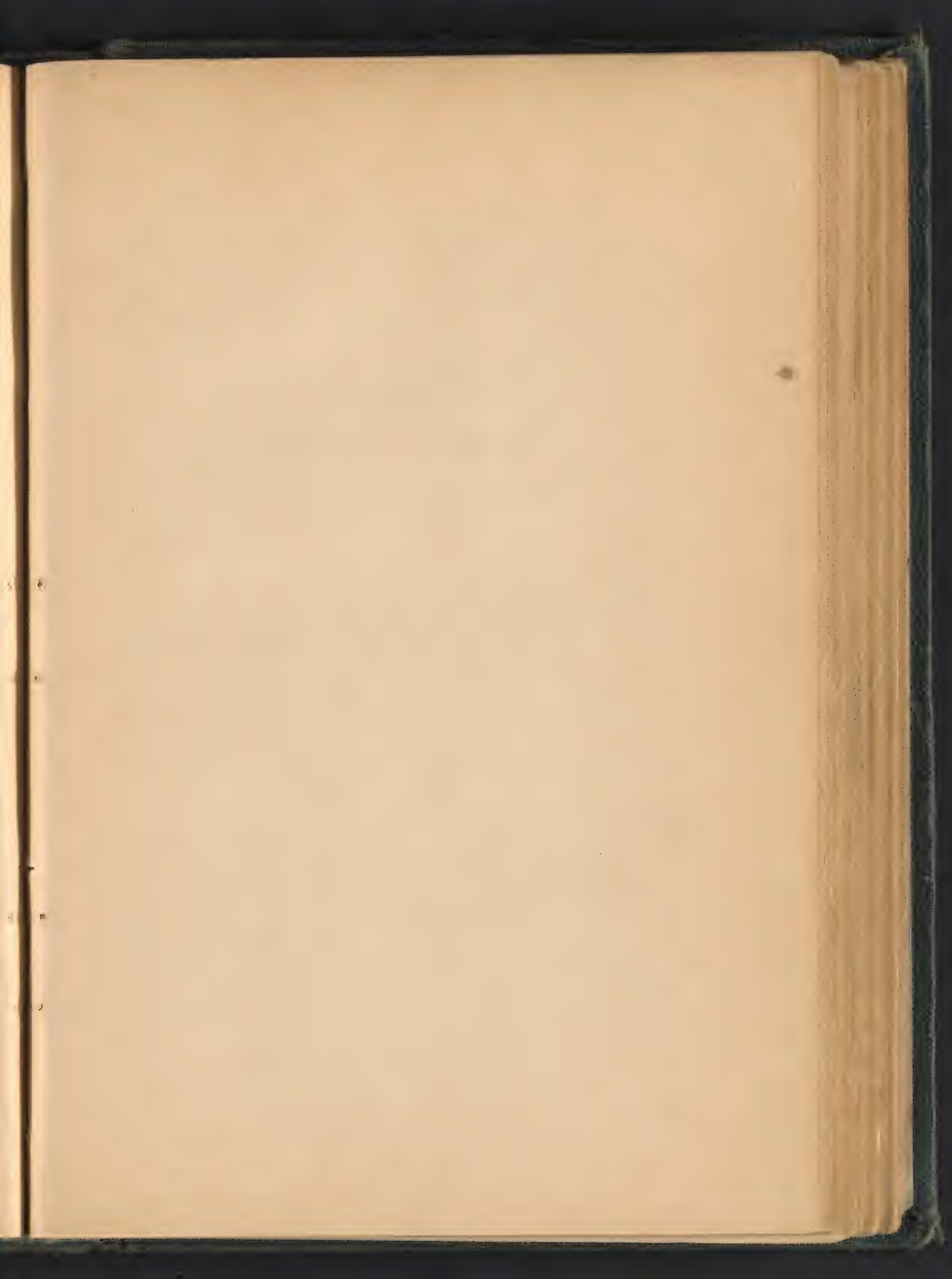
القطة ، ولكنها كانت مع ذلك لا تزال بعيدة ، وشاء الحظ أن تخاف القطة فلفت حول الشجرة وأصبحت على فرع فى الناحية الاخرى ، وكانت الفروع هناك أمتن وأسمك . فدرت كما دارت ومددت يدى فقبضت عليها ودسستها فى جيبى ، وكان الهبوط أخطر من الصعود وأشق .. ولكن الله سلم

وتناولت القطة منى بعد أن أخرجتها من جيبى ، وكدت أخنقها وأنا أحاول اخراجها ـ فقد كان لا بد أن أقبض على عنقها لأتقى أسنانها وأظافرها ـ وأهوت عليها تقبلها وتضمها الى صدرها وتمسح لها شعرها ، كأنهـا طفل رضيع لا قطة لعينة كانت منذ دقيقـة على قمة جميزة ضخمة تحاورنى وتعرض عنقى للدق وأنا ما زلت فى مقتبل العمر . وكنت أنا أنظر اليها راضيا قرير العين فرفعت عينها الى ، والقطة مضمومة الى صدرها ، وقالت انهـا مدينة لى بالشكر ففركت كفى مسرورا ومرتبكا ، فماكنت أنتظر شكرا ولا شبهه واذا بها تصرخ فذعرت ، فقالت : « يداك » فنظرت فيهما فألفيتهما مخدوشتين فأخفيتهما وراء ظهرى ، وقلت ان هذا من لحاء الشجرة وسيزول ولا شك ، فقالت : « لا .. تعال » فقلت : « الى أين ؟ » . قالت : « معى .. أغسلهما لك فى البيت .. مسكين .. »

فنظرت اليهما مرة أخرى ، وقلت : « فكرة .. »

ودخلنا البيت معا .. ونسينا صديقى فى بيت الجار .. تحت الشجرة

ووصلت القطة المستنقذة ما كان قد انقطع ..



في رأس السنة

دهش الثلاثة ووقفوا حيث هم ـ آذانهم مرهفة ، وأحداقهم ثابتة ، وأنفاسهم معلقة . وكانت الليلة ليلة العام الجديد ـ أو رأسه ـ وقد تهيأ حامد للخروج ، ولبس ثياب السهرة وأدار الراديو وراح يتمشى فى الغرفة ، ريثما تجىء جارته فتنقر له على النافذة المفتوحة .. فيمضى بها الى العشاء والرقص والمرح . وكانت الاذاعة فى تلك اللحظة رواية متخيرة ، ولكن حامدا لم يكن باله اليها وانما أراد أن يغرق ضجات الطريق المتقطعة فى ضجة أخرى أكبر لأنها أدنى ـ لا تنقطع ولاتفتر فيألفها ويتسنى له أن يفكر ، بعد أن تسكن أعصابه الى وقعها المتصل ، فى أمره مع جارته أو فيما ينبغى أن يصنع ليحمل أباه العتيق الطراز على الرضى بما تقتضيه حياة العصر الجديد . ولم تكن به حاجة الى أبيه ، ولكنه لم يكن يريد أن يفسد بينهما الحال أو أن يضيف الى عبء السنين التى يحملها عبء الشعور بخيبة الأمل ـ اذا وسعه ألا يفعل . وكان أبوه فى تلك اللحظة قد دخل بالمفتاح الذى أعطاه اياه حامد ليروح ويجىء كما يشاء . ولم يشعر به حامد لأن خواطره كانت تستغرقه ولأن الراديو كان أعلى من أن يسمح بالالتفات الى باب يفتح أو يغلق ، ثم لأن الرجل لم يكد يرد الباب حتى وقف مذهولا ، فقد سمع ضحكات نساء ولغط رجال ، وكان ريفيا ساذجا فيه ورع وتقوى يعرف الراديو ويصغى بخشوع الى ما يذاع من كتاب الله ، وقد يتفق له أن يسمع بعض المقطوعات الموسيقية .. ولكنه لم يشهد فى حياته رواية تمثل ، ولم يخرج عن عادته فى

التبكير فى النوم الا فى الفلتات القليلة . فاذا كان قد وقف الآن مستغربا منكرا ، فلا شك أنه كان معذورا . ولم يكن يفهم شيئا من الاصوات التى تتأدى اليه أو يفطن الى دلالة الكلام . وكان المذيع يصف حركة الروليت بعد أن توضع النقود ، وتذهب العجلة تدور وتخفت الاصوات انتظارا لوقوف الكرة عند الرقم السعيد .. ولكن الرجل لم يكن يعرف أن هذا مذيع يصف للسامعين ما لا يرون ، بل كان يظنه أحد رفقاء حامد ابنه فى سهرة جمع فيها طوائف شتى من الرجال والنساء .. نعم والنساء فما فى هذا شك ، أليست هذه امرأة تقول : « أسرع يا ميمى .. أسرع .. بين الـ ٧ والـ ٨ .. »

وهذا صوت رجل يصيح : « لا لا لا .. هذا من حق لولو .. نعم فقد رأيت ما حدث .. البيك نقل الورق عن موضعه بكفه ، وهو لا يدرى »

وها هى الفتاة تعود الى الكلام مرة أخرى ، وتقول : « مرسى يا حبيبى .. ميل مرسى »

فيقول الرجل الاول ، هو بعينه بالتأكيد فان الصوت واحد : « العفو .. لقد رأيت كل شيء ، واذا كنت تسمحين بأن أقدم اليك نصيحة رجل مجرب .. فنصيحتى أن تكفى عن اللعب ، فان مثل هذه الغلطة فى العادة تكون ايذانا بانتهاء حظ اللاعب »

لعب .. نصيحة .. حظ .. نساء ورجال .. ما معنى كل هذا يا ترى ؟ فى هذا وقف الرجل المسكين يفكر . وكان يفكر فى شيء آخر هو هل يدخل فيعرف الحقيقة كائنة ما كانت أو يخرج ويدع ابنه لشأنه ؟ ولكن كيف يستطيع أن يخرج ويدع ابنه .. وكيف يدخل ومعه نساء غريبات ؟

ولم يكن هذا الأب الساذج هو الحائر الوحيد فى تلك

اللحظة ، فقد كان هناك رجل آخر من طراز غير طرازه وجد باب المطبخ مواربا .. فتسلل منه ودخل على أطراف أصابعه وفى مرجوه أن يخفف عن صاحب البيت – وعن نفسه أيضا – ولم يكد يبلغ باب الدهليز حتى صافح سمعه هذا اللغط الكثير المنبعث من غرفة الاستقبال ، ولم يكن كالآخر ساذجا فلم يلبث أن فطن الى أن ههنا أناسا يقامرون ، فسمرته الدهشة والحيرة ، فقد كان يظن البيت خاليا فاذا هو عامر بل غاص بالخلق . وكان سبب حيرته أن وجود هؤلاء اللاعبين جميعا يجعل فرصة الغنم فى ليلته هذه « أكبر » والورق أخف محملا وأخفى أمرا ، وحامله أقل تعرضا للاعتقال ، ولكن كثرة الموجودين تجعل تعرضه للوقوع فى المحذور أشد فماذا يصنع ؟ أيأخذ بالأسلم فيعود من حيث جاء ، أم يذعن للاغراء فيبقى ؟ ولا سيما والأرجح أن القوم يشربون وبعد قليل يسكرون .. على أن الامر خرج من يديه ، فقد جاء اللبان فى هذه اللحظة ووقف بباب المطبخ كعادته ، ورفع صوته بكلمة واحدة ولكنها طويلة ممطوطة « لبن » فريع الرجل ووثب ودار حول نفسه ، فقال اللبان : « اللبن . . عايزين لبن الليلة ؟ »

فمشى اليه الرجل كالمضروب على أم رأسه ، فعاد اللبان يسأله : « عايزين لبن والا ايه ؟ .. ما ترد »

فأفاق الرجل وأشار اليه ، وقال : « هس .. هس » فاستغرب اللبان وقال : « هس ايه .. عايزين لبن .. أنت مين قبله ؟ »

فألهم أن يقول : « أنا الخدام الجديد »

فقال اللبان : « طيب ما تقول كده من الصبح ! عايز كام ؟ »

– واحدة

فناوله سلطانية ووقف ينتظر وصاحبنا ينظر الى

الدهليز ، ثم قال اللبان : « ماتجيب امال خلينى أروح لحالى »

قال المسكين : « أجيب .. ايه ؟ »

ــ حق السلطانية

فألهم مرة أخرى أن يقول : « الصبح .. عندنا ضيوف .. ما أقدرش أنادى سيدي دلوقت »

فمشى اللبان ومسح الرجل عرقه ووقف يستعيد انتظام أنفاسه ، وقد دار برأسه أن خير ما يصنع هو أن يخرج وراء اللبان وأمره لله فى هذه الليلة المنحوسة ، ولكن القدر أبى الا أن يعد له مفاجأة أخرى أدهى وأمر

ذلك أن الفتاة كانت قد وصلت ونقرت على حافة النافذة، فخف اليها حامد وانثنى على النافذة يقبلها ، ثم اعتدل وهم بأن يقول لها انه سيخرج لها حالا واذا بها تستوقفه وتسأله : « من عندك ؟ » وتشير الى الدهليز ، فقد رأت بابه يختفى فيه شبح ، فعجب حامد لسؤالها ونفى لها أن أحدا عنده ، ثم نظر الى حيث كانت تنظر محدقة فخيل اليه أنه يسمع أصواتا، فقال : «انتظرى» وخرج .. ولكنها لم تنتظر، فقد كانت فتاة عملية ، وكانت تحب حامدا وتقرأ الروايات البوليسية ، فجمح بها خيالها وجسم لها الامر ، وأوهمها أن خطرا عظيما قد أحدق بفتاها .. فذهبت تعدو الى أقرب شرطى وجرته من ذراعه جرا ، فقد كانت خطوته بطيئة وهى تريد أن تطير

وفى أثناء ذلك كان حامد قد خرج ، فألفى أباه واقفا وراء باب الشقة ، فقال حين رآه : « يا شيخ ظنناك لصا »

فسأله أبوه : « من عندك ؟ » فخطر لحامد أن هذا هو الليلة سؤال الناس كلهم ، فضحك وقال : « لا أحد .. لماذا لا تدخل .؟ . لماذا تقف هكذا ؟ »

وتذكر أن الفتاة واقفة عند النافذة ، ولم يدر كيف يفسر

لابيه وجودها . نعم ، يستطيع أن يقول انها جارته ــ وهذا صحيح ــ وانها مرت به فوقفا يتبادلان التحية ، ولكن أباه رجل محافظ ثم أنه يريد أن يعرف أباه بها أحسن تعريف . على أن تفكيره فى هذا لم يطل ، فقد سمع حركة فى المطبخ فمشى اليه مستغربا وضغط زر الكهرباء .. فاذا صاحبنا الذى تركناه هنـاك حائرا بين البقـاء والهرب يمد يده الى سلطانية اللبن ، وقد خطر له أن خير ما يصنع هو أن يأكلها قبل الخروج ، فلا يكون قد خرج من المولد بلا حمص كما يقول المثل

وبقيت يد الرجل ممتدة لا هى تصـل الى السلطانيـة ولا هى تنثنى الى صاحبها ، فقال حامد : «ماذا تصنع هنا ؟» فتلعثم قليلا ، ثم قال : « جوعان ! »

قال حامد : « أهو ذاك ؟ . ومن أين دخلت ؟ »

قال : « رأيت اللبان داخلا ، فلما خرج .. وقفت أنادى فلم يرد أحد فدخلت »

فمال حامد الى تصديقه وكان مستعجلا ، فقد ترك الفتاة عند النافذة فقال : « طيب كل واخرج .. خدها كلها على السلم »

ودفعه وأغلق الباب وراءه وهم بأن يعود ، فسمع وقع أرجل .. ولكنه لم يعبأ بذلك ، وكر راجعا الى الغرفة ، فاذا أبوه واقف ينظر الى الراديو ويضحك فلم يفهم ومضى الى النافذة وأطل ، فلم ير أحدا،فالتفت الى أبيه يريد أن يسأله، ثم آثر العدول . وسمع دقا على باب المطبخ وصوتا ناعما يناديه ، فذهب يعدو وفتح البـاب واذا به يرى شرطيا ضخما مفتول الشاربين وفتـاته ، والرجل بينهما وفى يده السلطانية فارغة ، فارتد حامد خطوات وقال : « ما هذا ؟ »

قالت صفية : « لقد صح ظنى .. الحمد لله .. »

فقال حامد ببلاهة : « تفضلوا .. » وأفسح لهم الطريق ثم أردف : « ولكن لماذا الشرطى ؟ »

فقالت صفية وهى تدخل : « لماذا ؟ . أو تسأل لماذا ؟ . ألا تعلم لماذا ؟ . للص يا روحى » فكاد يضع يده على فمها ، ولكن أباه كان قد خرج فلم تبق أى فائدة

وقال حامد : « بابا .. هذه صفية .. جارتنا .. بنت أحمد بك .. لا ليس هـذا لصا .. أنا أعطيته السلطانية ليأكلها .. »

فقال الشرطى : « اذا كان الامر كذلك فلا داعى لوجودى. سعيدة »

وخرج وهو ينظر الى صفية نظرة محنق . وقالت صفية: « شرفت يا عمى .. »

فتمتم الرجل وهو مطرق ، وقال حامد : « ا .. ا .. نحن .. أعنى صفية وأنا .. اء .. خطيبان .. اتفقنا على الزواج .. بعد موافقتك طبعا .. »

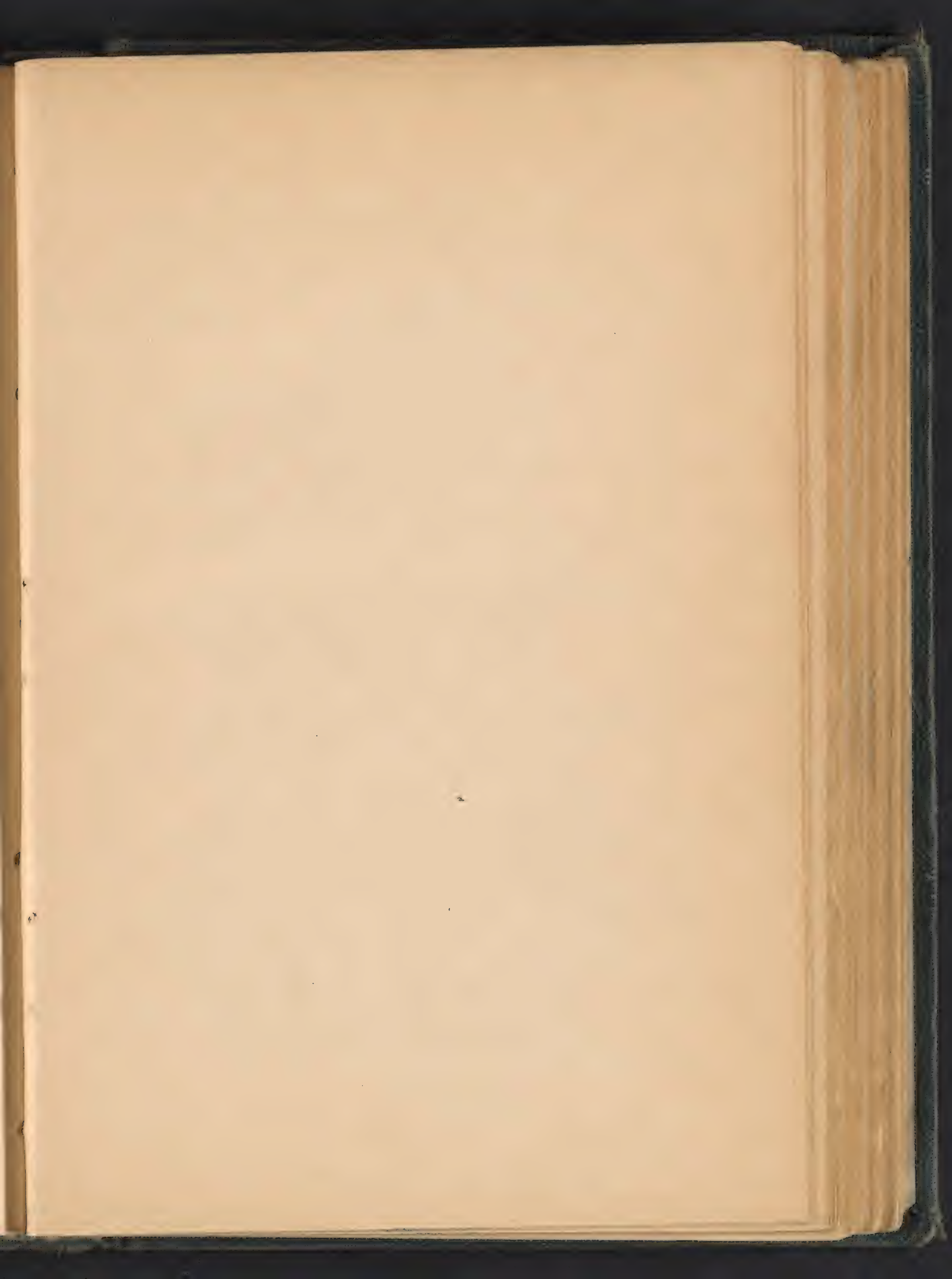
فدنت منه صفية ومالت على كتفه وهمست فى أذنه : « قل انك موافق .. »

فقال الرجل : « أنا متوضىء .. ابعدى قليلا .. »

فضحكت ، وقالت : « اذا لم توافق فانى أنقض لك الوضوء .. »

ففزع الرجل ونهض قائما ، وقال : « لا لا لا أحذرى .. الدنيا برد وأنا راجل كبير ضعيف ، وأريد أن أصلى العشاء» فقالت : « قل أولا أنك موافق .. والا .. هه »

فلوح الرجل بذراعه ، وقال : « أنا مالى .. مفلوقين فى بعض .. فين السجادة يا حامد ؟. »



الذى يضحك أخيرا
يضحك كثيرا

لما جاءنى رسول أختى برقعة منها يدعونا فيها ـ أمى وأنا ـ الى قضاء العيد معها ، لان زوجها سافر الى الاسكندرية .. أدركت أن فى الامر شيئا ، وان خلافا لا بد أن يكون قد شجر بينهما ، ولكن دقة احساسها بالواجب حملتها على البقاء فى بيتها بدلا من أن تجىء هى الينا

ولم تفت أمى دلالة هذه الدعوة ، فقد سألتنى : « أتظن أن شيئا حدث ؟ » فقلت : « لا بد » فقالت : « أترى أن نسألها ؟ » فهززت رأسى ، فليس أكفل بفساد الأمر بين زوجين ـ فى رأيى ـ من الدخول بينهما

وكان وجه أختى وحده كافيا للارتفاع بالظن الى مرتبة اليقين . نعم كانت تبتسم ولكن ابتسامها كان متكلفا، وكلامها أكثر مما ألفنا منها ، وحركاتها أسرع .. وكان لونها ممتقعا حتى لقد احتاجت الى الاحمر لخديها وشفتيها . وكان الجو باردا ، فاحتجنا الى ما ندفأ به .. فجاءتنا بموقد صار الفحم فيه جمرا لانها تكره مدفأة الكهرباء أو البترول لشدة تجفيف الكهرباء للجو ، ولان البترول له رائحة لا تطيقها

وسألتها وأنا أتبسم : « وأين اللعين زوجك ؟ »

وكان لا بد أن أسألها عنه ، والا كان اجتناب ذكره واشيا بالفطنة الى ما عسي أن يكون قد وقع بينهما . وما دامت هى لم تقل شيئا فقد يربكها أن تعلم أننا نعلم

فقالت ببساطة : « أوه .. أظنه مللنا .. سافر ليبحث مع شريكه أمر هذه الشركة الجديدة التى يريد أن يؤلفها .. انك تعرفه .. لا يعترف بعيد ، ولا يطيق أن يقعد بلا عمل »

فسرنى أنها تكذب لتستر حماقته .. وكنت أعرف أن

هذه كذبة لانه أخبرنى بما تم ، فالامر مفروغ منه ولا حاجة به الى سفر جـديد ، ولكنها لم تكن تدرى أنى أعرف هـذا والا للجأت الى كذبة أخرى

وقضينا النهار على خير ما نستطيع ، واذا بنا بعد العصر نتلقى هـذه البرقيـة : « اصطدمت السيارة وتحطمت ، واصابتى خفيفة . فهل تستطيعين أن تحضرى ؟.. سيكون أخى بانتظارك بسيدى جابر **خليل »**

فذعرنا جميعا فقد كان من الواضح أن الحـادثة أكبر مما زعم .. ولم تستطع أختى أن تضبط نفسها ، فبكت وهمت أمى أن تزجرها عن البكاء ، فقلت لهـا : « دعيهـا فما خلق الدمع للناس عبثا » . فقامت ترتب لها أشياءها فى الحقيبة ، وتضع معها ما قد يحتاج اليه زوجها مخافة أن تكون حقيبته قد فقدت فى الحادثة ، أو تركت مع السيارة المحطمة

وقلت لأمى : « اذهبى معها ، وسألحق بكما غدا .. فانى مضطر الى البقاء الليلة ، وأبرقوا الى فى الصباح بعد أن تروه ليطمئن قلبى »

وودعتهما فى المحطة وعدت الى البيت ـ بيت أختى ـ حزينا كاسف البال موجع القلب ، وجلست فى البيت أفكر فى هذا الحظ السيىء وأسخط على خليل ، وأقول لنفسى هل كان لا بد أن يصنع هذا الاحمق ما صنع ، وأن يعلن الى زوجته الجفوة ليلة العيد،ويروح يكسر عظامه أيضا ويرج زوجته هذه الرجة الشنيعة؟. ولكنه لقى فوق جزائه. مسكين. ومن يدرى ماذا جرى له . ؟ ولعله الآن مشرف على الهلاك ، وأنها لقسوة أن ألومه . ثم أنه كان مثال الزوج الصالح ، ولم تكن سيرته معها قط الا سيرة المحب الذى لا يعنيه من الدنيا سوى زوجته ، فماذا يا ترى جرى حتى كانت هذه الجفوة المشئومة ؟

وانى لجالس أدخن سيجارة فى أثر أخرى،وبى ما يعلم الله من الحزن .. واذا بخليل داخل كالقنبلة ! ! فانتفضت واقفا وحدقت فى وجهه مذهولا وفمي مفتوح كالابله ، فلما رآنى كذلك وقف هو أيضا ، وسألنى أول ما سأل : «أين فريدة ؟»

فأحسست أنى سأسقط على الارض ، فانحططت على أقرب كرسى ورفعت يدى الى رأسى ، فأقبل على يهزنى بعنف ويقول بصوت عال جدا : « أين فريدة ؟. قل .. انطق .. ماذا جرى ؟ »

فحاولت أن أتكلم ، ولكن لسانى وقف فى حلقى ، فأشرت الى البرقية المشئومة ، فتناولها مستغربا ولم يكد يقرأها حتى صرخ : « ايه ؟ »

فوجدت لسانى ، وقلت : « ماذا تظن ؟. من أرسل هذه البرقية ؟ » قال : « لا أدرى .. ماذا نصنع الآن ؟ .. فكر .. فكر .. فقد ضاع عقلى .. فريدة .. من يدرى فى أيدى من من الاشرار ستقع الآن ؟ »

فقلت : « وأمى أيضا معها .. رهينتان لا واحدة يا صاحبى »

فقال : « رهينتان ؟. هل تعنى أنك تعتقد ؟. »

قلت : « بالطبع .. أى معنى لهذه البرقية غير ذلك ؟. انها شرك .. وليس المهم الآن حل اللغز بل السفر وراءهما لانقاذهما .. لمنعهما من الوقوع فى أيدى هؤلاء الاشرار كائنين من كانوا »

فقال : « صدقت .. قم بنا » قلت : « سيارتك لا تصلح لهذا .. ألا تستطيع أن تجد لنا سيارة قوية .. تستعيرها من أى صديق ؟ »

وفى هذه اللحظة أقبل أخى فتشهدت واستبشرت ، فقد

كانت له سيارة جديدة من طراز هدسون تستطيع أن تطير بنا ، فدفعته الى الباب وسبقته الى السلم وأنا أناديه وأدعوه أن يسرع ورائى

وكان أخى يكره السرعة فتوليت أنا القيادة ، وجلس هو وكلبه معه وراءنا ، وجلس خليل معى وكان لا بد من التمهل حتى نخرج من المدينة والا عطلنا الشرطة ، وكنت كالجالس على الجمر ، ولكن ما حيلتى ؟ واجتزنا شبرا بعد أن ضاع ربع ساعة ثمين ، فسألت أخى : « هل الانوار قوية ؟ » ولم تكن بى حاجة الى السؤال فانى أنا السائق وأمامى مفتاح النور وفى وسعى أن أجرب ، ولكن السؤال جاء دليلا على مبلغ اضطرابى . ودليل آخر على هذا الاضطراب هو أننا لم نخبر أخى ما الحكاية ، فراح يكلم كلبه ويقول : « روكسى انه يسأل عن الانوار هل هى قوية .. كأنه لا يعلم .. لا بأس .. هل تظن أن من حقه أن ينتظر جوابا .. نعم .؟ الجواب تحصيل حاصل ..؟ بالطبع .. الحق معك .. ثم أنه أرسل النور أمامه وهو يضيىء الى مسافة أميال .. أليس كذلك ؟. ولكن الى أين يمضى بنا يا روكسى .؟ نعم .؟ أتقول أن هذه هى الطريقة الامريكية فى الاستيلاء على السيارات واغتصابها من أصحابها الشرعيين ؟. انهــا كذلك على التحقيق .. وانى أراك مصيبا دائما فى ملاحظاتك يا روكسى أوه .. تسعون ؟ روكسى .. انه يخطف بنا الارض فهل تظن أنهما ارتكبا جناية ؟. »

وهكذا وهكذا ..

ولم أكن أستطيع أن أقول له شيئا لأن عينى على الطريق . وكان خليل يساعدنى فينظر الى عداد السرعة ويخبرنى بالرقم الذى نرتقى اليه وينظر فى الساعة كذلك ، فيطمئننى أو يزعجنى ، وأخى ماض فى هذره حتى بلغنا بنهـــا . ولم أدخلها بل آثرت أن آخذ طريق سيارات النقل لانه أقصر

وان كان غير ممهد ــ اجتنابا للبطء الذى نضطر اليه فى شوارع المدينة . وبعد أن اجتزنا الكبرى الجديد ، ثم جسر السكة الحديدية ــ أو المزلقان كما يسمونه ــ أطلقت للسيارة العنان فجعل خليل ينظر ويقول : « مائة .. مائة وخمسة . وعشر .. وعشرون .. وخمس وعشرون .. أمض أمض . لا شىء .. هذه دجاجة .. »

فقال أخى : « أظنها ذهبت الى جنتها ــ جنة الدجاج ــ قبل الاوان .. أتراه سباقا يا روكسى ؟ »

وبلغت السرعة مائة وثلاثين كيلو ، فلولا أن السيارة كبيرة ومتينة وثابتة لانقلبت بنا وقتلتنا .. ولكن أخى خبير بالسيارات والذى لا يعرفه عنها لا يستحق أن يعرفه أحد . والحق أنها كانت سيارة أصيلة ، بل هى السيارة وكفى . ولكن بالى لم يكن فى ذلك الوقت الى شىء من هذا ، بل الى ما بقى من الوقت حتى يصل القطار الى طنطا أو دمنهور والى مبلغ الامل فى ادراكه قبل أن يبلغ سيدى جابر

وتأدى الى صوت أخى يقول : « هل تعلم يا روكسى أن اسماعيل مهمل ــ يعنينى ــ . . أموافق أنت ؟ . هذا ما كنت أنتظر .. ولكنه ينقصك أن تعلم لماذا .. أتريد أن أسر اليك يا روكسى بالسبب ؟ .. اسمع اذن ولكن لا تخبره .. لقد أردت أن أستعير حقيبته الصغيرة .. أقول لك الحق يا روكسى بينى وبينك يا روكسى .. استعرتها فعلا .. ولكنى وجدت أنه أهمل أن يضع فيها المفتاح ولهذا جئت الى بيت الاخت لعلى أجده فآخذ المفتاح .. أعرف ما تريد أن تقول فانك ذكى .. بالطبع لم يكن ينتظر أن يعطينى المفتاح .. ولكنى كنت سآخذه على كل حال .. أوه بطريقة من الطرق .. من غير أن يشعر بالطبع .. »

وقد هممت مرات أن أصيح به ، ولكنى كبحت نفسى فليس هذا وقت الاختلاف على الحقائب .. ولكنه غاظنى

مع ذلك أنه أخذها وهو يعلم أن فيهـا أشيائى ، فقد كنت أعددتها لرحلة قصيرة ، فلما جاء رسول أختى عدلت وكان ما كان .. ونويت أن أغتنم أول فرصة تسنح لاستردادها . بطريقة من الطرق .. كما يقول .. والبادى أظلم

ولم أكن أطمع أن أدرك القطار فى طنطا ، فلم أستغرب أن أعرف أنه تركها قبل وصولنا بعشر دقائق ، واحتجنا الى البنزين فضيعنا دقائق أخرى ، ثم استأنفنا السير بأقصى سـرعة لنعوض ـ سلفا ـ التأخير الذى لا بد منـه فى كفر الزيات . واعترانى ما يشبه الحمى ، فلم أعد أبالى كيف أقطع الطريق .. وكنت ربما صادفت مركبة أو رجلا على حمار أو جمل فأمرق ولا أعنى نفسى باليمين والشـمال . ولم يكن الطريق بعد كفر الزيات على خير ما يمكن أن يكون ، ولكنى لم أكن أحفل بذلك ولم أترفق بالسيارة . وكان أخى يرى هذه السرعة الجنونية ـ فقد بلغنا أربعين بعد المـائة وأصررنا عليها ـ فيقول لكلبه :

« انظر يا روكسى .. ان الخبيث ينتقم منى ـ أعنى منـا فانك شريكى فى كل شىء ـ لانى استعرت حقيبته .. من أجلها يريد أن يفجعنى فى السيارة .. أى والله يا روكسى . فتعال نبك على ما كلفتنا من مال يضيع الآن فى هذه السكة المنحوسة .. ثلاثمائة وخمسون جنيها خرجت عنها من حر مالى .. وماذا يعنيه هو .. يأخذها بلا استئذان ، وينحينى عن مجلسى فيهـا ، يردنى الى الوراء .. هل هـــذا يليق يا روكسى ؟ »

ولولا أن خليلا صاح فى هذه اللحظة : « القطار . القطار . سنسبقه يا اسماعيل .. سنسبقه بالتأكيد .. الحمد لله » لمضى أخى فى هرائه . وكنا قد قاربنا دمنهور ، فلما بلغنـا مدخلها عاد أخى الى الثرثرة ، ولكنى لم أسمع شيئا لان أذنى كانت تطن . ودنونا من المحطة ، فوقفت وفتحت الباب ،

وقلت لخليل : « انزل .. بسرعة » فشرع يفتح الباب من ناحية وأخي يقول : « ألم أقل لك يا روكسى أنه سباق .. بين السيارة والقطار ؟.. »

ولم أسمع بعد ذلك شيئا لانى ذهبت أعدو الى الرصيف الذي يقف عنده القطار . ولم نكد نفعل حتى دخل ، فركبت - بلا تذكرة ، وماذا يهم ؟ - وخليـل ورائى . ومشيـنا خلال المركبات حتى وجدنا أمى وأختى ، فانحططت بجانبهما بلا كلام

ولو كان فى رأسى أو رأس خليل عقل لنزلنا بهما من القطار وعدنا بالسيارة على مهل ، ولكننا لم نفكر فى شيء حتى كان القطار فى طريقه الى سيدى جابر ، فأدركنا أننا تعرضـنا لغرامة فادحة لم يكن لهـا داع . وكان فى الوسع اتقاؤها لو عنينا أن نخبر المفتش أو أحدا من رجال القطار أننا راكبون من هنا ، وسندفع الاجر فى القطار .. على أن الثقة بأنا أنجينا الفريستين هونت علينا الخسارة

وقلت لأختى : « هـذا زوجك .. البرقيـة مزيفـة ، فما الرأى الآن ؟. »

ولـكنها لم تكن فى حال تسمح لهـا بابداء رأى . وأى رأى هناك يمكن أن يشير به أحد .. لقـد ضاعت الفرصة الذهبية فى دمنهور ، ولو كنا أخبرنا أخى على الاقل لاستطاع أن يبرق الى بوليس سيدى جابر بالموضوع ، ولكان لاستمرار السفر فى هذه الحالة معنى ، أما الآن

وعلى أنا قلنا ان الفرصة لم تضع ، وأن من الممكن اذا تركنا الاثنتين تسيران أمامنا وحدهما وعيوننا عليهما أن نرى هذا الذى سيتقدم لهما نائبا عن أخى خليل ، وقد نستطيع فى ذلك الوقت أن نجعل البوليس يقبض عليه .. على كل حال لم يبق الا هذا ..

ولكنا لم نجد فى سيدى جابر غير الحمالين . ووقفنا بعيدا

ووقفت الاثنتان تنتظران أن يتقدم اليهما أحد ــ رجل أو امرأة ــ حتى البوفيه لم يكن فيه أحد ، فقلنا لعله ينتظر فى الشارع فأومأنا اليهما أن تخرجا أمامنا ، فلم يكن حظنا خارج المحطة أحسن منه داخلها . ولم تبق فائدة من التفرق فركبنا وهممنا بالمضى الى الفندق . ولكن خاطرا خطر لى فجأة فنزلت وذهبت الى مكتب التلغراف وبعثت ببرقيةمنه

وفى اليوم التالى كنا فى مصر ..

ولكن هذا لم يكن كل شىء . وهنا يحسن أن أدع أخى يتكلم :

« لعله يعنيكما ــ يريد أختى وأمى ــ أن تعرفا كيف كانت عودتى البارحة بعد أن تركنى هذان المخلوقان . لا فائدة من قولى انتظرت ، فان هذا القول لا يدل على شىء . فقد تركنى فجأة وذهب يعدو كأنى جرب .. حتى محرك السيارة لم يعن بأن يوقفه . ستقولون جميعا انه كان معذورا. فليكن فان الجدال عبث ، وستسمعون بأشياء أخرى أرجو أن يكون عذره فيها أوضح .. وكان معى روكسى كما لا أحتاج أن أقول ، ولا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم يكن هذا الرفيق معى . لعلى كنت أجن أو يحدث لى شىء من هذا القبيل . ما علينا ، هل أقول ان الامر طال على وأنا قاعد فى السيارة ؟ كلا .. وهل أقول انى كنت ميتا من الجوع ؟ كلا أيضا . وأختصر حكاية مؤلمة ، فأقول انى نزلت من السيارة وسرت فى الاتجاه الذى رأيتهما يقصدان اليه ، ولم يكن الامر يحتاج الى ذكاء .. فقد كان كلامهما دائرا كله على القطار ووجوب سبقه ، وان كان فيما عدا ذلك لا معنى له عندى . ولم أجدهما فى المحطة كما تعلمون ، لانهما شاءا أن يركبا القطار من غير أن يبعثا لى بكلمة . وقد سمعتهما يقولان أنهما أديا أجر الركوب مضاعفا ، وهذا

حسن وان كان قليلا .. ولـكنه يبرد بعض الغلة . وقـد وصفتهما لكل من فى المحطة ، فظن واحد أنهما هاربان من سجن ، واعتقد ثان أنهما مجنونان خطران . واقتنعت أنا بأن لا فائدة من البحث ، وأن أبى ــ رحمه الله ــ أخطأ حين رمانى بهذا المخلوق وزعمه أخا ، وأن أمى أخطأت أيضا فى ربطنا بهذا المخلوق الثانى الذى أخفوا أمره عنى حتى خطف أختى ، فصار واجبى الآن بعد أن عرفته أن أخفيه أنا عن الناس . ما علينا .. فلندع هذا التاريخ القديم .. أظنكم ستضحكون حين أقول انى احتجت أن آكل وأن أطعم روكسى وقد يسركم أن تعلموا أنى أحب أن أنسى فترة هـذا الاكل وأن أمحوها من تاريخ حياتى الحافل بالتضحيات فى سبيل من لا يستحقون شيئا .. ولكنى هكذا دائمـا .. كريم مفضـال ، وجزائى من النـاس بل ممن يمرحون فى ابراد نعمتى الجحود والكفران . ما علينا أيضا ..

وقلت لروكسى : تعـال يا صاحبى ، فان هـذا بلد لا يستحق أن يتشرف بوجودنا فيه ، فلنرجع الى بيتنا فى مصر .. وقد كنت أسلمت السيارة اليـه وهى سليمة لا شىء بها ، ويشهد شريكه فى المؤامرة أنها أنقذتهما ، ولكنى حين أردت أن أدير محركها أبى أن يتحرك ... ولا أطيل . قضيت نصف ساعة فى هذا البرد حتى استطعت أن أقنعها بالحركة والعودة الى دفء البيت

وكانت السيارة كأنما ركبها قبلى ألف عفريت ، ولـكنى صبرت وقلت عوضى على الله ، وهذا جزاء من يكون له أخ كهذا ونسيب كهذا .. وأظن أن الفجر بدأ يطلع حينما بلغنا شبرا ، فتنهدت وتمهلت فى السير واذا بشرطى يستوقفنى ، فوقفت فدار حتى صار الى جانبى ، وقال وهو ينقر على الزجاج : « تفضل معى الى الكركون »

فقلت : « الكركون ؟ » ، قال : « نعم تفضل انزل »

فقلت : « ولكن لمـاذا ؟ . ماذا صنعت ؟ . انى لم أكن مسرعا بل كنت أسير بسرعة خمسة أمتار فى اليوم والليلة »

فقال بلهجـة جافيـة : « انزل ولا تحوجنى أن أجرك بالقوة »

فقلت لنفسى ان المكابرة والجدال عبث ، ولا شك أنى سأجد رجلا يفهم فى مركز البوليس . وذهبت معه ، فقال : « اقعد هنا » ، فقعدت حيث أشار ، وهم بتركى فتعلقت به وقلت : « ألا تسمح من فضلك بأن تخبرنى لمـاذا جئت بى الى هنـا ؟ »

فنهرنى بعنف ، فهويت الى الكرسى وروكسى بين يدى

لم أر أحدا مستعجلا سواى . وأخيرا جاء شرطى آخر ، وجلس الى مكتب وأخرج أوراقا وبدأ يسـتعد للـكتابة ، وسألنى عن اسمى وعنوانى ومولدى وعن السيارة ورقمها ، ثم سألنى بخبث : « ماذا معك فيها ؟ »

فابتسمت وقد خيل الى أنه ظننى من مهربى المخدرات ، وقلت ببساطة : « ليس معى سوى روكسى »

فقال : « ايه ؟ » قلت : «يعنى الكلب.. اسمه روكسى» ، فقال متهكما : « يا حبيبى يخوى .. كمان عامل لى قمع ومعاك كلب .. تعملوها وتخيلوا والله »

فلم أدر ماذا أقول له .. وأعفانى من الكلام ، فسألنى : « هل معك مفتاح السيارة ؟ »

فناولته المفتاح ، فنادى شرطيـا وطلب منـه أن يفتحها أمامى ، وأن يجىء بما يجده فيها فلم يجد الا الحقيبة .. اضحكوا .. اضحكوا .. لا بأس .. سيجىء يوم أثأر فيه لنفسى ..

فلما جاؤوه بالحقيبة ، ابتسم ابتسامة عريضة جدا وتنهد مرتاحا ، وقال لى : « لا شىء .. هه ..؟ طيب »

فابتسمت أنا أيضا وقد صح عندى أنه يحسبنى من المهربين وأيقنت بقرب الفرج . وشرع يسألنى عن الحقيبة ، فقلت له انها لأخى وذكرت اسم الأخ المحترم ، فأدهشنى بأن سألنى هل أنا أعترف بأن الحقيبة لاسماعيل أفندى زفت وقطران .؟ فقلت بالطبع أنا معترف .. انه أخى

فقال : « أخوك ..؟ أواثق أنت أنه أخوك ؟ »

فضحكت وقلت : «بالطبع واثق..ولكن ما هى الحكاية؟»

فقال : « أين المفتاح ؟ »

قلت : « معه..لم آخذه منه ». وهممت بأن أقص عليه القصة ، ولكنى رأيت أنها مما لا يصدق فأقصرت ، فقال : « هل تستطيع أن تثبت شخصيتك ؟ »

فقلت : « بالطبع .. ماذا تظن ؟.. » ودفعت يدى فى جيبى لأخرج له أوراق السيارة ورخصة القيادة وغير ذلك مما عسى أن يكون فى جيبى ، فما راعنى الا أن الجيب خال ليس فيه قصاصة واحدة ! وأظن وجهى فضحنى على الرغم من محاولتى أن أتماسك وأتجلد ، فقد سألنى بعد ذلك مباشرة عن السيارة ولمن هى ؟ فأيقنت أنى وقعت، وقلت له : « اسمع .. انك تطيل بلا داع .. لا بد أن يكون قد حدث خطأ ، ومن سوء الحظ انى نسيت الاوراق كلها فى البيت ، فاذا سمحت فارسل معى شاويشا أو عشرة اذا شئت الى البيت لأجيئك بكل ما يزيل الشك ويريح ضميرك »

فلم يبال بهذا الاقتراح المعقول ، وقال : « هل أنت مصر على دعواك أنك أخو اسماعيل ؟ »

فقلت : « الحقيقة انى مستعد للتبرؤ منه ولكن الى أن أفعل لا يسعنى أن أنكر أنه أخى » . فقال : « اذا كنت أخاه، فلماذا يبعث ببرقية كهذه ؟ » .. وناولنيها ، فقرأت فيها الحكم على

وللرجل العذر لانه اذا كان اسماعيل هذا أخى ، فلماذا

يطلب من البوليس أن يحجز السيارة رقم كذا ، وفيها حقيبة صفتها كيت وكيت . لا تعترض من فضلك .. لقد كانت عبارة البرقية يفهم منها أنك تريد حجز السيارة أيضا . ولا أكتمك أنى لم أجد جوابا لهذا السؤال ، وأنى استحييت أن أقول أنه مزاح بارد

وحرت ماذا أصنع ، ولم يفتح الله على بحيلة تخرجنى من هذا المأزق الثقيل .. وكان النهار قد طلع ولكنا ما زلنا فى البكور ، ولا يليق أن أزعج الناس فى مثل هذا الوقت ، فعدت الى اقتراحى أن يبعث معى من يشاء الى البيت ، فرفضه . فسألته عن المأمور من هو ؟ عسى أن يكون من معارفى .. فانتهرنى بغلظة ، فتساهلت وسألته عن المعاون أو غيره ، فلم يزد على أن قال : «بلاش دوشة» ، فناشدته أن ينظر الى ثيابى ، وأن يفكر هل هذه ثياب مجرم ولص ؟ فقال وهو يضحك : « أن بين اللصوص من هم أشد أناقة منك » فوضعت أصبعى فى الشق ، وأسلمت أمرى الى الله

□

وختم المحضر على هذا .. أى على أنى لص ولا شك وأن البوليس حاذق فطن ولا شك . ولست ألوم البوليس ، فقد كانت كل القرائن ضدى . وأشهد له أنه كان رفيقا ، فقد سمح لى بأن أشترى – أعنى أن يبعث من يشترى شيئا لطعامى وطعام روكسي . ولا أنكر أنى شربت قهوة أيضا ، وان كانت أشبه بمغلى الفول السودانى أو بماء الوحل الساخن . ولكن هذا لم يكن ذنب البوليس

وأخيرا فى الساعة الثامنة دخل ضابط علينا ، فنظرت اليه ببلادة .. فقد فترت ويئست ولم أعد أبالى ما يجرى لى ، ولكنى لم أكد أرى وجهه حتى انتفضت واقفا ، وصحت به

« حمدى .. الحمد لله .. أين المحقق ؟ »

فاستغرب وسألنى عن الحكاية ، فقصصتها عليه فضحك ملء شدقيه . مدهش أن يضحك الناس من هذه الفصول الباردة !!. والباقى لا يحتاج الى كلام . . جئت الى هنا ونمت ساعة أو اثنتين على هذا الكرسى بثيابى .. ولكنه ينقصك يا حضرة الأخ أن تفسر للبوليس مزاحك ، فقد صار الامر مزاحا مع البوليس لا معى »

فما استطعنا أن نتكلم ونغالب الضحك ، قلت : « هون عليك .. فانى أعرف ماذا أقول .. ولكنى أرجو أن يكون ما حدث درسا لك »

فقال وفى عينيه نظرة خبيثة : « وأنا أرجو أن يكون ما حدث لكم درسا كذلك »

فقال خليل : « ماذا تعنى ؟ »

فقال أخى : « أعنى أنكم لو لم تكونوا عميا لعرفتم أن البرقية ليست لكم .. للجار رقم ٢٢٣ ، وقد تشابه الرقمان على الساعى واتفق أن اسم الجار خليل أيضا ، واتفق أنكم عمى لا تبصرون . ولولا ذلك لقرأتم الرقم واسم الذى أرسلت اليه البرقية .. هذا ما أعنى .. فقوموا كفروا عن سيئاتكم يا جهلة »

عقاب اللص

لست أخشى اللصوص .. فما معى ولا فى بيتى ما أخشى عليه الضياع واتقى أن أمنى فيــه بخسارة . ولو أن لصا كريما فيه مروءة دخل بيتى ـ أو حيث أقيم فما هو بيتى ـ وحمل ما فيه من متاع لحملته شكرى ، ولبعثت بنسخة منه الى الصحف .. فان من اللؤم أن يقابل الاحسان بأقل من الشكر .. فما أرى لى متاعا فى شىء مما حولى . وسبب آخر يجرؤنى على لقاء اللصوص وينفى عنى الخوف منهم ويجعلنى لا أتهيبهم ، وذلك أنى كما تعلم ـ أو كما لا تعلم ـ ضامر ضاو ، ظاهر الضآلة بادى الضعف . وأوجز تعريف بنفسى يحضرنى الآن ، هو أنى امرؤ فارغ الثياب .. وأحسب أن هذا تعريف شامل محيط جامع مانع ، فان لم يكن كذلك فأمهلونى حتى يلهمنى الله ما هو أوفى . وأرجع الى اللصوص فأقول ان الذى يجعل لقاءهم خطرا فى ساعات العمل هو أنهم يريدون التخلص مما وقعوا فيه اتقاء السجن وما فيه ، والمفاجأة فى هذه الحالات تذهلهم وتطير صوابهم ، فيحدث أن يضيفوا الى جريمة السرقة جريمة أخرى هى الاعتداء على النفس .. أما اذا كان الذى يفاجئهم رجلا صغير الجسم مأمونا مثلى ، لا خوف من قدرته على منع السارق من الفرار والنجاة .. فان العدوان لا يخطر لهم على بال . وحسبهم أن يشدوا هـــذا المتطفل بحبل ويلقوه فى زاوية أو ركن ، ويمضوا فى عملهم كأنما لم يعطلهم معطل . ومن هنا اطمئنانى ، وهو اطمئنان لم يزعزع الثقة به الى الآن مزعزع

وقد اتفق لى أن كنت مرة فى الاقصر وكان الوقت شتاء ، والاقصر تطيب فى هذا الوقت .. فنزلت بالفندق ومضى يوم أو يومان ـ فقد نسيت لطول العهد ـ واذا بصديق من أغنياء

الاقصر يقع على فى شرفة الفندق حيث يجلس أكثر النزلاء يشربون الشاى قبيل المغرب . وأقول يقع على ــ وأنا أعنى ما أقول ــ فقد كان ظهرى اليه وهو مقبل ، ويظهر أن باله لم يكن الى الارض وهو سائر فاصطدمت رجله بساق الكرسى الذى كنت جالسا عليه فكاد يقع وارتمى فوقى ــ أعنى الصديق لا الكرسى ــ ثم شرع يعتذر وشرعت أنا أيضا أهز له رأسى ايذانا بقبول الاعتذار ، فالتقت العيون واذا به يكف عن الاعتذار ويصيح : « أوه .. أهو أنت ؟ »

كأنما هذا ينفى وجوب الاعتذار ويعفيه من تكاليفه ويجعلنى غير أهل له ، فقلت له : «نعم .. أنا أنا يا صاحبى» قال مستغربا : « وماذا جاء بك الى هنا ؟ »

قلت : « قذفتنى موجة الحياة على هذا الساحل الذى لا أراه أرفق بى من اليم » . قال : « آسف يا صاحبى .. » فقلت مقاطعا : « لان الحياة رمت بى على شاطئكم ؟ »

قال وهو يجلس : « لا لا لا .. انما عنيت انى آسف لانى وقعت عليك » . قلت : « هذا أدهى .. أؤكد لك أنى لم أتعمد أن أكون فى طريقك »

فصاح بى : « يا أخى ، لا .. ليس هذا ما أعنى ... ألا يمكن أن أقول شيئا لا تستطيع أن تؤوله على هذا النحو ؟ انما أعنى .. »

فترفقت وقلت : « أعرف ما تعنى .. وأعرف أيضا أنك حمار .. والآن هات حديثا آخر »

وعرف أنى مقيم بالفندق ، فدعانى الى النزول ببيته فأبيت .. وشكرته فألح، فقلت له أنى هنا حر أفعل ما بدالى ولا أتوخى الا راحتى . وحريتى أعز على من أن أقبل ضيافتك الكريمة ، فأبى فأصررت ، ثم مضى وفى ظنى أن الامر انتهى .. واذا بى أعلم حين هممت بالعود الى غرفتى لحاجة لى ، أن الصديق حمل حقيبتى ومضى بها الى بيته

وترك لى مركبته ، وأنه لم تبق لى فى الفندق غرفة

وأوجز فأقول أنى لم يسعنى الا أن أذهب الى البيت على فرط استثقالى لذلك ، فاذا البيت شيء مهول واذا هو بيتان فى الحقيقة.. واحد للرجال وآخر بعيد عنه للنساء ، وبينهما بستان واسع وحديقة زهر فيحاء ، وفضاء رحيب .. ألفيت أبناء صديقى يلعبون فيه - أو خيل الى فى أول الامر أنهم يلعبون - ولكنى لما دنوت منهم رأيت رجلا معروفا لم أرتح الى وجهه ولم يعجبنى شارباه المفتولان وصلعته الناصعة ، وكان قصيرا مثلى .. ولكنه أشد منى دمامة وأضيق عينا . وكان هذا الرجل يصيح بالغلمان وهو واقف لا يتحرك ، فيحركون أيديهم أو أرجلهم وينثنون ويعتدلون ويستلقون على ظهورهم ويرفعون سيقانهم وأذرعهم ، وكان صديقى واقفا يهز رأسه راضيا مرتاحا ، فقلت له : « ما هذا الذى أرى ؟.. ومن هذا الرجل القبيح ومن هؤلاء الصبية ؟ هل نويت أن تقيم فى بيتك (سيرك) ؟ »

فقال وهو يضحك : « لا لا لا .. هؤلاء أبنائى »

فقلت مستغربا : « ابناؤك ؟. ولماذا تترك هذا الرجل القبيح يمرغهم فى التراب ؟ »

فقال وهو يجرنى : « لا تصح هكذا لئلا يسمع.. انه معلم الرياضة فى المدرسة.. يدرب الاولاد على الحركات الرياضية »

فقلت : « أولا يكفى تدريبه لهم فى المدرسة ؟.مدهش.. أمن أجل أن الله رزقك مالا تروح تبعثره فى هذا الكلام الفارغ ليقال انك متمدين ؟ »

قال : « لا ، انك لا تعرف .. أن الحكاية طويلة ولكنى أختصرها لك فأقول ان أحد السياح الامريكيين كان هنا فى الشتاء الماضى ، فاتصلت به بطبيعة الحال - صديقى تاجر عاديات - ورأى أبنائى فنصح لى - وهو طبيب - أن أعنى بحياة أبنائى الرياضية ، وأن أتخذ لهم معلما . هذه هى

الحكاية .. وقد نسيت أن أقول ان أحدهم كان مريضا »

قلت : « هذا ما قلت .. تقليد ليس الا .. ما علينا .. أين الحقيبة ؟.. فلست أنوى أن أقيم فى مصحة »

ولكنى أقمت فى المصحة وان كنت قد استطعت أن أتقى هذا « التصحيح » الذى يجرى على أبناء مضيفى ..

□

والاقصر ـ اذا كنت مقيما فى بيت لا فى فندق ـ مملة ، لأن الحياة كلها فى الفنادق ، وقد حزمنى صاحبى وألقانى فى بيته . فلم أكن أخرج الا نهارا لأزور الآثار ، فاذا جاء الليل ذهبنا الى شرفة الفندق ومكثنا قليلا ، ثم عدنا الى البيت لنتعشى حتى ولو كنت غير جائع والا عد نفسه مقصرا فى حقى ، ولا أدرى لماذا .. ولكن هذا هو الاعتقاد الشائع . وضقت ذرعا بهـذا الكرم ولم أعد أطيقـه ، فغافلته مرة وانطلقت أعدو الى الفندق ، ودخلت البار وشربت حتى ارتويت ثم خرجت الى الحديقة الرحيبة ، وذهبت أتمشى فيهـا وأطوف فى أرجائهـا . وكانت الليلة مقمرة والهواء لا رطوبة فيه ، فطال تجوابى فلما نظرت فى الساعة اذا هى الحادية عشرة ولم يكن هذا ظنى ، فبادرت الى العودة الى البيت وقد سرنى أنى استطعت أن أروح وأجىء وحـدى وكما أحب وفى حيث أريد والسـلام ، وان لم يكن هـذا ـ بمجرده ـ خيرا مما فررت منه .. فما كان ثم أى حرج فى أن أشرب أو أفعل ما آشاء وهو معى ، ولكن الوحـدة أشعرتنى حرية كنت افتقدتها معه اذ أراه الى جانبى ، وكان هو يتوخى مرضاتى فى كل شىء كبر أم صغر . ولكنى لم أكن أرتاح الى هذا ولا كان يسرنى أن أرى رجلا يقيد نفسه بى ، وكان يخيل الى أنه فى سريرته كاره غير راض ، وأنه مثلى لا يريد أن يكون غير مرتبط أو مشدود الى أحد . ولم يكن

هذا كذلك فى الحقيقة ، فان الرجل كريم عظيم الاريحية ، ولكن هذا هو الذى قام فى نفسى وكبر فى وهمى

وعدت الى البيت وأنا أشعر أن الحياة تستحق أن يحياها المرء وأن الدنيا جميلة ، وشعرت بشىء من الظمأ على كثرة ما شربت .. وكنت أعرف الطريق الى حيث أطفىء ظمئى ففتحت بابا ودخلت الى حيث الشراب ، وهو مكان رحيب فيه خزانات شتى ، فيها ما لم أحصه من الزجاجات المختلفة الالوان والحجوم ، وفى الوسط مائدة مستطيلة مغطاة بالمخمل الاخضر وحولها الكراسى الوثيرة .. فأدرت مفتاح النور ، واذا بى أرى ذاك الرجل الدميم القصير الذى يقيم الاولاد ويقعدهم ويعذبهم بالانحناء والانثناء والقفز والوثب والنط الى آخر ما كرهت منه ومن منظره ، فندت عنى صيحة استغراب وانكار ، وماذا يجىء به الى هنا فى الليل — فى منتصف الليل — وهو لايبيت معنا بل يذهب الى بيته ؟

ولم يخالجنى شك فى أنه لص شرير ، على أنه خطر لى مع ذلك أن بيت الرجال أو الضيوف ليس فيه ما يسرق غير الاثاث وهو ضخم لا يسهل حمله أو نقله ، ورجح عندى أن هذا المعلم الرياضى لص خمر وأنه جاء متسللا ليشرب كأسين أو ثلاثا بلا ثمن .. وسواء أكان هذا أم ذاك هو الصواب ، فقد شعرت أن من واجبى أن أنغص عليه ليلته

وصحت به : « من أين دخلت أيها اللص الجاحد الناكر للجميل ؟ » وكنت أتكلم بعنف وفى يدى عصا ضخمة وفى عينى لمعة أظن الفضل فيها لما سقانى صاحب « البار » فى الفندق ، فرأيت الرجل يستخذي ويتضاءل ويتراجع الى النافذة ، فأطلقت عليه صيحة عالية : « قف » فوقف كالجندى ، وكان الفضل فى سرعة الوقفة واعتدالها وجمال منظرها لتربية الرجل الرياضية أو العسكرية لا لقوة الصيحة ، ولكنه أطاع على كل حال .. فسررت وقلت له مرة أخرى : « قل من أين دخلت فى الليل .. فى منتصف الليل ؟ »

فقال بذلة وضراعة : « من النـافذة .. فقد وجـدت الأبواب موصدة ، والخدم نياما » . قلت : « آه .. ولكنى أنا لم أجد الباب موصدا »

وأيقنت أنه كاذب وأنه تعمد أن يدخل من حيث لا يراه أحد ، وهم فى هذه اللحظة أن يقول شيئا فأطلقتها عليـه صيحة أخرى مدوية .. فى أذنى أنا فما أظن أحدا سمعها أو سمع بها خارج الحجرة : « اخرس »

فخرس ووقف ساكتا لا يتحرك ، فسرنى مرة أخرى أنه يطيع على هذا النحو ، وقلت لنفسى ان للرياضة نفعا على ما يظهر . ولو لم يكن هذا الرجل رياضيا ، لكان الارجح أن يحاور ويجادل ويكابر ويناقش ويوجع لى رأسى ، ويسلب الأمر كله ما أجد الآن فيه من المتعة

وقلت له : « الست أنت الرجل الذى يكلف هؤلاء الاولاد المساكين أن يتلووا ويتعوجوا وينطوا ويقفزوا ؟ »

قال : « نعم يا سيدى » . قلت : «أرنا اذن بعض ما أتقنت يا صاحبى » . قال : « نعم »

قلت : « تلو .. تعوج .. انثن .. انحن .. افعل كل ما رأيتك تأمرهم أن يفعلوا .. تفضل »

فتردد برهة لا أدرى لماذا أو كيف ، ثم كأنما بدا له أن خير ما يصنع هو أن يطيع وأمره لله .. فراح ينثنى ويعتدل ، وأنا واقف أنظر اليه معجبا مسرورا ، وكلما نظر الى استزدته حتى خيل الى أن ظهـره سيقصم .. فدعوته أن يقف ، وشـرعت أفكر فى عذاب آخـر أنزله به ، ففركت جبينى ثم تذكرت فقلت : « آه .. لقد كنت واثقا أنى سأتذكر .. اصنع من جسمك عقدة كعقدة الحبل »

فلم يفهم ، فقلت له مرة أخرى : « ألا تعرف العقدة ؟. تلف الحبل وتصنع منه دائرة وتدخل طرفا منه فى هـذه الدائرة ثم تشد الطرفين فتعقد العقدة .. هكذا أريد منك

الآن أن تصنع بنفسك .. اصنع من خصرك دائرة وادخل ساقك فيهـا .. أو لا أدرى كيف تصنع ذلك .. المهم أن تصنع ذلك وأن أراه .. تفضل »

فرقد الرجل على الارض ، وراح يقوس ظهره كما لم أكن أتوقع أن يستطيع أن يفعل .. وأنا متكىء على المائدة ، وفى يدى سيجارة أشعلتها ورحت أدخن وأنظر معجبا مغتبطا . ورأيته يحاول أن يعقد العقدة التى أمرته بها ، فلم يسعنى الا أن أضحك .. فقد كان منظره يغرى بذلك وهو يتلوى على الارض ، ولكنى لحماقتى ضحكت والدخان فى فمى ، فكادت روحى تزهق .. وجعلت أسعل سعالا شـديدا ، فاغتنم الخائن الماكر هذه الفرصة ووثب الى رجليه ثم الى النافذة ، ومنها الى حيث لا أعرف

وبينما كنت أوصد النافذة .. وأنا آسف على المتعة التى لم تطل ، اذا بمضيفى يقول : « يا أخى انت كنت فين .. لقد حدثتنى نفسى أن أبلغ البوليس والله »

فقصصت عليه القصة وأنا أكاد أقع من الضحك ، فقال : « يا شيخ حرام عليك .. هذا رجل مسكين »

فصحت به : « أما أنك لرجـل مدهش .. اذا كنت تعتقد أن تكليفه هذه الحركات البهلوانية تعذيب له فانهـا تكون أيضا تعذيبا لأولادك »

فقال : « لا .. ولكنه كبير السن وأولادى صـغار .. ثم انه لا يكلفهم أن يلووا أجسامهم ويصنعوا منها عقدة كعقدة الحبل .. كيف خطرت لك هذه الفكرة الخبيثة ؟ »

قلت : « لم يخطر لى شىء ، وانما كان هذا ما بدا لى أنه يكلف أولادك أن يصنعوه حين رأيتهم »

قال : « قم لتنام ، وحسبك هذا طول العمر »

وقد صدق .. فما أزال أضحك الى الآن كلما تذكرت تلك الليلة

ثمن سيجارة

كم تظن السيجارة كان ثمنها فى سنة ١٩٠٩ ؟

لا أدرى ممن القـــارىء .. أمن الايفاع الذين يزدان بشبابهم الغض هـذا القرن العشرون ، أم من المخضرمين الذين أدركوا ــ مثلى ــ القرن الماضى وهو يجود بأنفاسه ، وأبوا الا أن يركبوا هذا الزمن بشبابهم الدائم الذى يأبى أن يدركه الهرم أو يرده الشيب الى تكلف الوقار ، وأن كان أعنى شبابهم المتلكىء ــ لا يمتاز لا بغضاضة ، ولا ببضاضة . وليكن القارىء من شاء ــ من المحدثين أو ممن هم أحدث منه وان كانوا أعلى سـنا ــ فهذه فذلكة تاريخية يستطيع أن ينتفع بها اذا كان له من الذكاء حظ . وهل أحرص منى على فائدة القراء ..؟

كنت فى تلك السنة ــ سـنة ١٩٠٩ ــ قد تخرجت فى مدرسـة المعلمين العليـا ، ومن كان يشك فى ذلك فليسأل وزارة المعـارف فلن تحابينى . وكنا فى مقـدمة الصيف ، وكنت متعبا مرهقـا ــ لا أدرى لماذا ؟ فما أعرفنى عنيت بحفظ درس فى حياتى ــ فاستشرت طبيبا أو على الأصح ألح أهلى أن أستشيره ، فقد صارت لحياتى قيمة بعـد أن حملت هذه « الدبلوم » وبلغت بهـا مبالغ الرجال الذين يكسبون رزقهم وينفقون على سـواهم . فلما فحصنى الطبيب ، قال : « لا شىء .. يكفى أن ترتاح وتتنزه » قلت : « أين ؟ » وكان ضيق الصدر فقال : « وهل أنا أعرف .. فى أى مكان غير البيت » فلم يحسن وقع جوابه فى نفسى ، فقلت له : « وهل كنت تحسب أن بيتى منتزه يا أخى ... أم خيل اليك أنى بنت لا أعرف غير غرف البيت .. سبحان الله العظيم » وانصرفت ساخطا

وأوسعته ذما فى الطريق الى بيتى ـ مزقته ونثرت لحمه وجلده للكلاب .. حتى الشعرات القليلة التى بقيت فى رأسه الأصلع انتزعتها واحدة واحدة ، وسرنى أنه كان يتألم ويتلوى وأنا أشدها بأظافرى وأقتلعها من جذورها ـ بخيالى ـ وكنت أقول له : « هذا جزاؤك يا وقح .. عسى أن يعلمك هذا أن التهكم على الناس غير جائز »

ويظهر أنى كنت أكلم نفسى فى الطريق بصوت عال ، فقد استوقفنى قريب لى وقال لى : « مالك ... ماذا جرى ؟ »

قلت له مستغربا : « نعم .. ماذا جرى ؟ »

وتجهمت له فقال : « من الذى تشتمه وتسبه هذا السب القبيح ؟ »

فأفقت وارتد الى عقلى .. وكان قريبى هذا له نسيب عندنا له بقية من مال قليل استودعناه اياه ليجريه مع ماله فى تجارته، فقلت له : « يا أخى هذا الطبيب الذى أرسلتمونى اليه يقول لى أنه لا دواء لى الا أن أذهب الى لبنان ، وأنه لا أمل لى فى الشفاء بغير ذلك .. ولا أدرى ما أصنع ، فقد ذهب أكثر نصيبى فى نفقات التعليم والباقى لا يكفى للسفر الى الشام . ولست أحب أن أجور على نصيب أمى أو أخى وان كان من السهل رد ما أقترض بعد أن أقبض مرتبى من وظيفتى .. وعلى ذكر ذلك ، أقول لك أنى عينت مدرسا فى المدرسة السعيدية الثانوية »

وكان الذى أخطر الشام على بالى فى هذه اللحظة ، أن لى صديقا أصابه صداع ملح أعيى الأطباء شهورا .. فبعثوا به الى لبنان فاستراح من آلامه ، وكتب الى من هناك يصف لى جمال البلاد ويدعونى الى اللحاق به

وكان لا بد من موافقة أمى على الاستدانة من نصيبها أو نصيب أخى من هذه البقية الباقية من المال القليل ،

وكانت ـ رحمها الله ـ قوية ذكية ، ولم أكن أجرؤ أن أكذب عليها .. ولو أنها كانت سألتنى لما وسعنى الا أن أحدثها بما دار فى نفسى من أساليب الاحتيال عليها ـ لا خوفا منها ، بل لأنها عودتنى أن أصدقها والا يكون جزائى على الصدق الا الخير . غير أنها لم تسألنى شيئا بل وافقت وقالت : « اقتراح حسن ... اذهب الى ... وخذ منه ما يكفيك »

ولو كنت ذكيا لأدركت أن فى الأمر سرا ، وأن وراء هذه الموافقة السريعة التى لم أكن أتوقعها تدبيرا خفيا .. ولتذكر أنها كانت تحبنى حتى لكانت لا تستطيع أن تفارقنى يوما واحدا فكيف بشهر أو شهرين ؟ ولكن خفة الشباب صرفتنى عن النظر فى شىء من هذا ، فصدقت وذهبت الى الرجل فقال : « ليس معى الآن الا خمسة جنيهات فخذها ، ولولا أنى مريض لخرجت معك لأجيئك بكل ما تحتاج اليه .. ولكن بضعة أيام لا تقدم ولا تؤخر »

فخرجت مغتبطا فما كنت رأيت قط قبل ذلك اليوم خمسة جنيهات ـ ذهبا ـ فى كفى أصنع بها ما أشاء ولا أسأل عنها . وأنسانى الفرح أن كونى لا أسأل عن هذه الجنيهات ماذا صنعت بها هو التدبير الذى لجأت اليه أمى اعتمادا على ما تعرف من تبذيرى واسرافى اللذين أعياها علاجهما

ومضت أيام ثلاثة نقصت الجنيهات التى معى بعددها ، فقد أبقيتها فى جيبى .. فطارت واحدا بعد واحد كأن لها أجنحة ، فعدت الى صاحبنا وقلت له انى أريد بقية المبلغ اللازم لأنى أخشى الضياع على كل ما يعطينى .. فأبدى الاستغراب وسألنى عما بقى معى من الجنيهات الخمسة ، فقلت لم يبق الا اثنان فقط .. فهز رأسه ولم يقل شيئا وناولنى خمسة أخرى وقال : « الى أن أشفى »

فكبرت فى عين نفسى ، فقد كنت فرحت بخمسة وأحسست أنى رجل عظيم .. فكيف وقد صار معى سبعة لا خمسة

فقط .. ولم أعد فى تلك الليلة الى البيت الا قبل الفجر متسللا ، فألفيت أمى قاعدة تدخن وتنتظرنى ، ولكنها لم تقل شيئا واكتفت بالنظر والابتسام . ولو كنت ذكيا لاستغربت أن تبتسم لابنها الذى لا يكاد يقوى على الوقوف على قدميه ـ لا من السكر فما كنت سكيرا بل من التعب والاعياء والسهر ـ وكانت هى تعرف أن الخمر لا تعنينى فلم تكن تخشى شيئا من هذه الناحية

☐

ولا أطيل على القارىء ، فانى أخشى أن أستطرد الى غير ما أردت .. والحديث ذو شجون كما يقولون ، ويكفى أن يعلم أنى أضعت خمسة عشر جنيها فى خمسة عشر يوما . وكان الذى عنده ما بقى من مالنا يتماثل للشفاء ، وكنت أزوره لأعوده كل يوم فما بَقِىَ غير ذلك ، فاتفق يوما أن كنت عنده ـ معه فى غرفته ـ فجاءه الطبيب على عادته فى كل يوم فخرجت الى الشرفة وجعلت أتمشى فيها ـ وكانت رحيبة ـ الى أن يفرغ الطبيب من فحصه ، وكنت قد اشتريت « علبة » من الفضة للسجاير ـ فقد صار هذا البذخ فى وسعى ـ فأخرجتها من جيب البنطلون حيث رأيت أبناء الوارثين يضعونها ، وأشعلت سيجارة وانطلقت أدخن وقال لى الطبيب : « هذه قسوة »

فاستغربت وسألته عن معنى كلامه ، فقال انه ـ أى الطبيب ـ حرم التدخين على نسيبنا هذا ، وقد كانت رائحة الدخان تدخل الغرفة . وكان يرى المسكين تجحظ عيناه ويهتز رأسه على الوسادة ، ولكنه لا يستطيع أن يقول شيئا لأنه ـ أى الطبيب ـ واقف ، وحذرنى من أن أعطيه دخانا ، وقال ان مريضه لا شك سيتعلق بى ويلحف فى رجائى أن أعطيه ولو سيجارة واحدة .. ولكن مصلحته تقتضى أن لا أرق له . ثم انصرف

وعدت الى صاحبنا وقد اختمرت فى رأسى فكرة ــ آخذ عشرة جنيهات دفعة واحدة ، فان أخذ الخمسات لا فائدة منه ــ وأسافر بها بلا تريث ، وأطلب من هناك كل ما أحتاج اليه .. فما يعقل أن يضنوا على بشىء فى الغربة . ودنوت منه ، وفركت كفى وقلت : « أظن أن لا فائدة اليوم من طلب شىء »

فوافق ــ وهو عابس ــ على أن لا فائدة

فقلت : « حتى ولو كان الطلب لا يعدو عشرة جنيهات لا أكثر »

فزاد وجهه عبوسا وهز رأسه هزات متوالية بلا مناسبة فما كان ثم ما يقتضى هذا العنف وهو المحتاج الى الراحة التامة . ثم انى لم أتعود منه الا التلبية السريعة ، فاقتنعت بأن رائحة الدخان ــ أو الطباق كما علمنى المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ــ هى المسئولة عن هذا السلوك الجديد الذى لا عهد لى به منه

فقلت : « الامر لله ثم لك .. ولكنى آسف .. آسف جدا .. على كل حال لا أظن أن الامر ليس فيه نظر . هه.؟»

قال بلهجة الجزم : « أبدا » ولم يزد

قلت : « لا حول ولا قوة الا بالله »

ومددت يدى الى جيبى ، فأخرجت العلبة الفضية منه وفتحتها ببطء ــ وكانت ملأى بالسجاير ــ وخفضت يدى بها وأملتها وأنا أتناول منها ــ ليرى ما فيها من صفى السجاير ، وأخرجت واحدة ورددت العلبة الى مكانها ، وأشعلت السيجارة

واذا بالنائم ينتفض ويقعد على السرير ويصيح بى بصوت كالرعد : « هات العلبة .. هات العلبة »

فصحت به وأنا لا أريم مكانى ولا أظهر اكتراثا لانتفاضه : « ايه ؟ »

فصاح وهو يلوح بكلتا يديه : « هاتها . . أقول لك هاتها . ألا تسمع ؟ . »

فقلت وأنا أتظاهر بأنى لم أفهم مراده الا الآن فقط : « آه تقصد السجاير . . . »

وأخرجت العلبة وفتحتها له وأنا فى مكانى — على نحو مترين منه — « هنا — فى هذا الجانب سجاير الفيل . . وفى هذا الجانب سجاير جناكليز »

فصاح : « هات . . هات . . هات »

قلت ببرود : « هى لك كلها اذا شئت »

فصاح : « أو لم أشأ . . لقد قلت لك هات مائة مرة فهل أنت أصم . . هات . . أقول لك هات »

قلت ، وأنا فى مكانى : « وهل تظن انى أضن عليك بشىء ؟ اذن أنت لا تعرفنى . . ولكنى أشعر بحاجة شديدة الى عشرة جنيهات . . عشرة ليس الا . . مبلغ زهيد فى الحقيقة وقد جئت اليك وفى مأمولى أن أبلغ عندك مقصودى ، فما قولك ؟ »

قال : « خمسة . . مثل كل مرة »

قلت : « عشرة . . والعلبة كلها لك . . اذا شئت . . أما اذا لم تشأ ، فالامر على كل حال لك »

قال : « اجعلها سبعة . . وهات بقى »

قلت : « انى أكره المساومة . . طباعى تأباها . . وتربيتى تجعلنى أنفر منها . . . أوه أنفر جدا منها . . انك لا تستطيع أن تتصور شدة نفورى من المساومة . . . يبلغ من كرهى لها أن أزهد فى الامر كله فلا أعود أقبل الكلام فيه مهما كان الذى يبذل لى »

وطويت العلبة على سبيل التأكيد لهذا النفور ووضعتها فى جيبى وقلت : « والآن . . أستودعك الله . . ان شاء الله .

ان شاء الله أراك غداً بخير » وأدرت وجهى وهممت بالخروج، واذا به يصيح بى : « تعال يا مجنون .. خذ العشرة التى تريدها .. هات بقى »

قلت : « حتى تصير العشرة فى كفى هذه »

وبسطتها له حتى لا يساوره الشك .. فتنهد ، وناولنيها وعددتها على مهل ثم رميت له العلبة

وخرجت وتركت له السجاير غير عابىء بأوامر الطبيب ، فما أطيش الشباب وأشد حمقه وأقل رفقه .. ولكن الله سلم ونجا ولم تقتله السجاير . أما أنا فلم يكتب لى الله أن أذهب فى سنتى تلك الى الشام . ولهذا حديث طويل ليس هذا وقته فان أكثر الذين يعنيهم لا يزالون أحياء فموعدنا به بعد عمرهم الطويل



الببغاء والقط

ـ أعوذ بالله من الستات .. انهن لا يرحمن ولا يتركن رحمة الله تنزل

قلت : « لماذا .. ماذا يسخطك على الجنس اللطيف ؟ »

فاعتدل على كرسيه وحدق فى وجهى ، وقال ـ أو صاح على الأصح : « لطيف .. أتقول لطيف .. ؟ أيكون جنسا لطيفا ذاك الذى يلبس هذه الثياب الخفيفة فى البرد ويبدو فيها مكشوف الذراعين الى ما فوق المرفق ؟ اننا نحن الجنس اللطيف لو عقل الناس »

قلت : « يا سيدى .. ثم ماذا أيضا ؟ » قال ـ غير عابىء بتهكمى : « ثم أنه ليس لطيفا فى الحقيقة »

قلت : « هذه ملاحظة سمعناها فهى مكررة .. فاما قلت شيئا جديدا ، والا فاسكت »

قال : « انما أعنى أنه جنس غير لطيف المعاشرة »

قلت : « وكيف كان ذلك ؟.. أعنى ماذا يسخطك عليه اليوم ؟ »

قال : « لعلك تذكر « احسان » .. لقد عرفتك بها . تعلقت بى كأنها ظلى ، فسئمت وأقول لك الحق انى خفت العاقبة .. فقد كنت أستملحها وأستعذب حديثها وأستريح الى مجلسها، ولكن المصيبة أنها تحسب أن الملاطفة والمجاملة حب . الحق أن أمر هؤلاء البنات عجيب .. كل كلمة من الرجل ـ أعنى كلمة ملاطفة أو تودد ـ يتخذنها دليلا على الحب .. فاذا قلت لها أن ثوبها جميل، أو أن شعرها المرسل أو المرجل بديع ، أو أن حذاءها حسن ، أو أن ابتسامتها حلوة أو عذبة ،

أو أن ظل أهدابها على وجنتيها فاتن أو غير ذلك ــ أى كلمة ثناء تنطق بها ــ فما أسرع ما تؤولها بأنها صادرة عن حب وعشق وهيام وتدله .. مصـيبة يا أخى والله ، يظهر أن هؤلاء الفتيات بهن ظمأ شديد الى الحب ، ويخيل الى أن حياتهن تجفف نفوسهن وتذويها وتؤجج فيها الشوق الى الحب .. فلا تكاد الواحدة منهن تسمع لفظا عاديا من ألفاظ المدح التى يستدعيها حسن المجالسة وأدب الحديث حتى يثب خيالها من فرط اللهفة الى سماء الوهم السابعة »

فقلت ــ وقد برمت بهذه المحاضرة : « أتريد أن تقص حكاية أم أن تتفلسف ؟ يجب أن أعرف لأعد نفسى ، وأتهيأ لمـا سأتلقى »

فقال : « طيب .. قلت لك ان هذه الفتاة ــ « احسان » توهمت ــ أو أنا خفت أن تكون قد توهمت ــ انى أحبها . ولست أكرهها أو أستثقلها فانها ظريفة جدا ، ولكنها ليست الفتـاة التى أختـارها للزواج ولا سيما بعـد أن عرفت « حورية » .. »

قلت : « انى أهنئك »

قال بلهفة : « أو تعرفها .؟ أليست بالله مدهشة ؟ ألا ترى أنها ... » قلت ــ وأنا أرفع يدى لأصد هذا السيل المنحدر : « مهلا .. مهلا .. أنى لى أن أعرفها ؟ . انما راقنى الاسم وجرى فى خاطرى أنك .. لعلك .. »

فلوح بيده وقال : « انك ثقيل .. تخجل المرء وتلقى على حماسته ماءا باردا .. ما هذه الطباع السخيفة ؟. لماذا تحب أن تصدم الناس على هذا النحو القاسى ؟ »

قلت : « آسف يا صاحبى .. لم أصدمك .. ولو كنت أعلم أن كلمتى سيسوء وقعهـا فى نفسك الى هـذا الحد لما نطقت بها . والآن ارجع الى حوريتك ، فان اسمها يبشر بحكاية ... »

قال : « أو هذا كل ما يعنيك . . الحكاية ليس الا . . شيء بارد »

قلت : « يا أخى كن منصفا . . هل تريد أن أحب حوريتك هذه من فرط حبك لها واعجابك بها »

قال : « أعوذ بالله » قلت : « انتهينا اذن . . هات الحكاية »

فاقتنع وقال : « الحكاية أن حورية أهدتنى ببغاء صغيرا وقطة أيضا . . لا أدرى لماذا ؟ . ولكن لعلها ظنت أن بيتى حديقة حيوانات . . على كل حال هذا ما حدث . . ثم سافرت ، وخطر لى أنى أستطيع فى فترة غيابها أن أتخلص من « احسان » حتى اذا عادت حورية ، وجدت الميدان خاليا . . فقد كنت أخاف أن ترى احسان معى مرة فنظن بى الظنون وان كان لا محل لها فى الحقيقة ، فما بينى وبين احسان ما يدعو الى أى ظن . . ولكن النساء لا يفهمن الصداقة ، ولا سيما بين الرجل والمرأة . واحسان كما تعلم رقيقة الاحساس جدا دقيقة الحساب والتقدير لكل حركة وكانت أمى تحبها وتخالفنى فى رأيى فيها . . ولكنى كنت أقول لها - أعنى لأمى - انى أنا الذى سيتزوج لا أنت ، فاسمحى لى بحرية الاختيار . وأختصر فأقول انى اتفقت معها - أعنى احسان فى هذه المرة لا أمى - أن تمر بى فى البيت لنذهب معها الى القناطر الخيرية ونقضى يومنا هناك ومعنا أمى . وسافرت فى ذلك اليوم على الرغم من احتجاج أمى واعتراضها ، ولكنى حلفت لها أن العمل الذى يدعونى الى السفر لا يحتمل الارجاء . وطمأنتها فأوصيتها باحسان وألححت عليها - وان لم تكن بها حاجة الى ذلك - أن تكرمها وتسرها وأن تتقى أن « تكسر خاطرها » كما يقولون . . فهل تدرى ماذا صنعت أمى ؟ »

فهممت أن أقول شيئا ، ولكنه منعنى باشارة ومضى يقول : « ان الذى أريد أن أقوله هو أن أمى - على ما يظهر -

سئمت عشرة القطط والببغاوات ـ ولها العذر ـ والحقيقة أنى لا أدرى كيف يمكن ان يوفق بين قط قوى صحيح وثاب وببغاء صغير لا يستطيع أن يتكلم ولا يحسن الا أن يخرج أصواتا كتلك التى قد يخرجها كروان أصابه زكام ـ لا تقاطع أعوذ بالله من هذه المقاطعة ، انما أعنى اذا أمكن أن يصاب الكروان .. أو أى عصفور بالزكام .. هل استرحت الآن ؟ فقد كان القط لا ينفك يثب الى القفص محاولا أن يقتنص الببغاء ، وكان الببغاء لا ينفك يصرخ أو يصيح أو يستنجد أولا أدرى ماذا أسمى هذه الأصوات المزعجة التى يخرجها ويستغيث بها حين يهم به القط . ومن العبث أن تحاول أن تفهمه أنه فى قفص وأن القط يستطيع أن يقتل نفسه وثبا ، فان له ـ أعنى للببغاء ـ من القفص وقاية كافية . وكيف السبيل الى الراحة فى بيت فيه ببغاء لا يكف عن الصراخ ، وقط لا يكف عن الوثب حول قفصه ؟ والقط حيوان خبيث متلصص لا سبيل الى منعه أن يدخل على الببغاء فى حيث يكون من البيت الا اذا وقفت له بالعصى على باب الغرفة طول النهار . ومع ذلك يستطيع أن يغافلك ويتسلل من بين رجليك وأنت غير دار بما فعل ، وان كنت واقفا كالعصى أو المقشة التى فى يدك . وقد حيرنا جدا هذا القط ـ أعنى أنه حير أمى فقد تركت الأمر كله لعنايتها فاذا وضعنا الببغاء على حافة الشرفة لينعم بالشمس والهواء قليلا ، نط القط اليه وراح يحاول أن يدخل من بين القضبان فينأى الببغاء المذعور الى آخر القفص ، ويرى القط أن يده لا تصل اليه فيطوى كفه ويثنى يده ويروح يحكها بالقضبان ـ عامدا بلا شك ـ فينقلب القفص ويصيب الببغاء الرعب ، فيضرب بجناحيه كالمجنون ويطلق أعلى صيحاته المنكرة ، والقط يحوم حوله ويلوب ويموء مواء له دلالته التى لا تخفى ، ويظل الجيران من نوافذهم وشرفاتهم على القيامة التى قامت فى شرفتنا ،

ونسمع نحن الضجة فنذهب نعدو كمركبة الاسعاف . أعنى أننا لا نبالى ما يكون فى طريقنا من الاشياء ، فكم من طاولة انقلبت بما عليها ، ومن زهرية انكسرت ، ومن أطباق سجاير انتثرت فى الغرفة ، الخ الخ ... واذا علقنا الببغاء — أعنى قفصه يا سيدى — راح القط يتوثب حوله غير عابىء بما يسقط عليه حين يهبط الى الارض من وثباته ، ويقلبه أو يكسره .. ولا أطيل عليك فان فى وسعك أن تتصور حياتنا مع القط والببغاء .. وأكبر الظن أن حورية أرادت أن تتخلص من هذا البلاء فأهدته الينا وقيدته علينا فى سجل حسناتها . المهم على كل حال أن أمى فى غيابى أحسنت الاعتذار الى « احسان » وأهدت اليها القط والببغاء جميعا .. ويخيل الى الآن أنها رمت عصفورين بحجر .. لاحظ انى لا أقول أصابتهما ، وانما أقول أنها رمتهما فما أصاب الحجر سوى رأسى .. ذلك أنى بعد أن عدت وعرفت ما كان واضطربت له وقلقت ، انتهيت الى أن الخيرة فى الواقع وأنه ليس فى الامكان خير مما كان . ومضت أيام وأنا مغتبط بالراحة الجديدة التى شعرنا بها بعد أن تخلصنا من هذين البلاءين — القط والببغاء — واذا بحورية داخلة كالمدفع الرشاش . ولست أستطيع أن أقص عليك ما سمعت منها ، فقد دار رأسى حتى صرت لا أعى ما أسمع ، ولكن أمى لخصت لى الموضوع بعد خروجها ، فقالت انها عرفت — لا أدرى كيف — أنى أهديت هديتها ، القط والببغاء ، الى « احسان » فهى لهذا واجدة ناقمة ولا تريد أن ترى وجه هذا الخائن بعد اليوم .. وهكذا طارت من يدى حورية .. ما أظن بأمى الا أنها تعمدت أن تطيرها بهذه الحيلة .. فقد كنت أريد أن أتخلص من احسان فما تخلصت الا من حورية . ولا أدرى ماذا أصنع فانها لا تقبل أن تسمع منى كلاما أو تصغى الى شرح وتفسير ، فهل عندك رأى تشير به ؟ »

فقلت : « قل لى أولا . . هل تعلم كيف استطاعت احسان أن توفق بين القط والببغاء ؟ »

فقال : « الحق أقول لك انى أعتقد أن المرأة أحزم من الرجل ، فان احسان لم تحاول قط أن تحل العقدة . . . وانما قطعتها بحد السيف . ذلك أنها لم تكد تصل الى بيتها وترى كيف ينظر القط نظراته المريبـة الى الببغاء حتى خيرت نفسها فاختارت الببغاء . ثم تناولت القط ودسته فى غرارة ودفعت به الى الخـادم ، وأمرته أن يذهب الى الطرف الآخر من المدينة ويفرغ الغرارة هناك . ويظهر أن حورية عرفت هذا أيضا فانى أرى نقمتها تزيد وتشـتد ولا أراها تفتر فما العمل ؟ »

فقلت : « أوه . . لا شىء . . لا تقطع نفسك حسرات . . دع الأيام تعمل عملها »

فصاح بى : « ولكن عمل الايام زفت وقطران . . فكيف أتركها تعمل عملها ؟ »

فهززت رأسى ومططت بوزى . وماذا أقول لمن يتكلم هذا الكلام . . ثم خطر لى سؤال فقلت : « هل أمك رجل ؟ » فصاح : « ايه ؟ »

قلت : « لماذا لم تحل العقدة كما حلتهـا احسان وهى امرأة مثلها ؟ »

فمضى عنى ساخطا ولم يجب . .



السيارة المسروقة

ـ ان من الواضح أن تربيتك ناقصة . . ناقصة جدا . .
هـذا أنا ـ بجلال قدرى ـ أكلمك منـذ عشر سـاعات
وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية وأنت لاتجيبين

فقالت زوجتى أخيرا وألقت ما بيـدها ـ وكان شيئا تطرزه أولا أدرى ماذا تعنى به : « انى لست اليوم كفؤا لك ولهزلك ، فاسكت من فضلك »

قلت : « هذا بديل جميل من الاعتذار . . . ألا تستحيين يا امرأة ؟ ثم ما هذا الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك وبعلك ؟ »

قالت : « أرجوك . . أرجوك يا مسلم . . ثم ان الطباخة خرجت »

فانتفضت واقفا وصحت : « نهارها اسود . . لماذا ؟ »

قالت : « استحسن زوجها أن يكون ذهابها اليه يوم الجمعة بدلا من يوم الأحد »

فانحططت على الكرسى وقلت : « ووافقت أنت بالطبع ؟ »

قالت : « وماذا أصنع غير ذلك ؟ . وقد أصرا على يوم الجمعة ، فلو رفضت لفارقتنا ولعدنا الى حيرتنا القديمة »

قلت : « يا امرأة . . هل تعرفين أنى أتضور فى هذا البيت ؟ يوم الجمعة الذى أستريح فيـه وأظل أحلم طول الليل بما أطمع أن أنعم به من الآكال . . . أوه ان هذا لا يطاق ! ! هذه . . هذه . . هذه . . نعم هذه بلشفية صريحة ، ومع ذلك تزعم الحكومة أنها تكافحها . . ما عيب يوم الأحد بالله . . لماذا يجب ـ حتما ـ أن تكون بطالتها يوم الجمعة لا غيره ؟ »

فضجرت زوجتى وبدأت تنفخ ، وقالت : « ألا تسكت ؟ مالك أنت .. ان لك أن تأكل والسلام .. ثم أنها مسلمة وكذلك زوجها فيوم الجمعة أوفق لهما »

قلت : « وهل من الضرورى أن تتزوج هذه الدميمة وذلك المغفل ؟ »

قالت ، وهى تتمطى : « انى أشعر بفتور وخدر فاعفنى بالله من وجع الدماغ .. وحسبى هم اطعامك فى هذا اليوم الثقيل »

فقلت ، وقد خطرت لى فكرة : « اسمعى أقل لك »

قالت وهى تضحك : « وهل ترانى اليوم هنا الا لأسمع ؟ تفضل يا سيدى ونور عينى .. وماذا أيضا ؟ »

قلت : « وتاج راسك .. اسمعى .. ان الفتور يغشى جسمك كما تقولين ، وأنا رأسى يكاد يطير مذ عرفت أن هذه الطباخة الكريهة الوجه قد تخلت عنا فى يومنا هذا، فما قولك فى أكلة ناشفة خفيفة نصنعها هنا أو نشتريها ؟ »

فاعتدلت وقالت وقد لمعت عينها : « لماذا ؟ »

قلت : « وندعو فلانة وفلانا — من أقربائنا — ونذهب جميعا ومعنا الاولاد الى القناطر الخيرية ، فنقضى يومنا هناك بين الخضرة والماء »

قالت : « ولكنه سينقصك الوجه الحسن »

قلت : « يا خبيثة .. هل تظنين أنى تزوجتك وأنا مغمض العينين ؟ »

▭

وحشرتهم جميعا فى السيارة ، ودسست السلة التى فيها الطعام والشراب فى مكان مجعول لما يحمل المسافر من زاد ومتاع ، وكانت الساعة الثانية مساء حين انطلقنا فبلغنا

القناطر بعد نصف ساعة ، فحملنا أشياءنا وتركنا السيارة فى حراسة رجل من الواقفين هناك المستعدين لهذه المهمات . وتخيرنا مكانا يشرف على الماء وتظلله أشجار باسقة ، وبسطنا السجادة وألقينا عليها صفحات من جرائد الصباح والمساء ، ووضعنا عليها الصحون والصوانى ثم شرعنا نأكل ، ولم يكن الطعام فيما يبدو لعيوننا الفارغة كثيرا .. فجعل بعضنا يخطف من بعض فكانت ألذ أكلة وأهنأها ، ثم طرحنا الوسائد على السجادة واستلقينا فنام من نام . ولما آذنت الشمس بالغروب ركبنا زورقا فى ترعة أشمون ، ثم بدا لنا أن نعود لندرك الشيخ رفعت وهو يتلو القرآن الكريم - فما نحب أن يفوتنا ذلك منه قط - فرجعنا الى حيث السيارة .. فاذا بها قد اختفت ..

بهت حين رأيت مكانها خاليا فوقفت كالصنم ، وأقبلت على زوجتى تسألنى وتهز ذراعى ، فقلت لها وقد أفقت قليلا : « نعم .. هزى ذراعى بقوة .. ان بى حاجة الى الشعور بأنى لست أحلم وأن هذا ليس كابوسا .. »

قالت : « أين ذهبت ؟ » قلت : « فتشينى .. لقد كانت هنا ... تركتها فى هذا المكان ... وليس فى الارض ما يدل على أنها انشقت وابتلعتها ... ولست أعرف أن لها أجنحة ، فلا يمكن أن تكون طارت . ان الطريقة الصحيحة للاهتداء الى الحقيقة هى أن يبدأ المرء بنفى كل الاحتمالات غير المعقولة ، كما تريننى أصنع الآن »

فصاحت « لولو » قريبتنا : « لقد سرقها اللصوص »

فصحت بها : « تالله ما أذكاك يا فتاتى .. ولكن كيف لم نفطن الى هذا بمثل هذه السرعة المدهشة ؟ »

فقالت لولو : «وماذا تكون مزية العبقرية وفضيلتها اذن ؟»

قلت : « صدقت يا فتاتى النابغة .. »

فقالت زوجتى مقاطعة : « هل هذا وقت الكلام الفارغ ؟
الا تفكرون فى طريقة لاستردادها ؟ »

فقلت : « آه .. هنا أيضا عبقرية ولكن من ضرب آخر
ـ ضرب عملى لا يرتاح الى النظريات .. عبقرية يمكن أن
ننعتها بأنها نابليونية ، ولست أرى أنه ينقصنا ـ لنوقن أن
السيارة عائدة باذن الله ـ الا ضرب ثالث »

فقالت زوجتى متهكمة : « نعم يا سيدى .. تفضل »

فقلت بحدة : « لا تتهكمى يا امرأة .. نعم ينقصنا الضرب
الشرلكمزى »

فصاحوا جميعا : « ايه ؟ »

فقلت : « أعوذ بالله .. مالكم تصرخون هكذا ؟. نعم
الشرلكمزى يا جهلة .. لو كنتم تعنون بثقيف عقولكم الفارغة
قدر عنايتكم بخلافى والمكابرة معى وانكار نعمتى عليكم
وجحود فضلى .. لعرفتم أن الشرلكمزى نسبة الى
شرلوك هولمز »

فقالت زوجتى وهى تضع كفها على فمى : « طيب اسكت
بقى »

فلثمت راحتها وسكت .. كما أمرت

◻

وقال سليم ـ أخو لولو : « أن من الواضح أن علينا أن
نتفرق »

قلت : « بديهى .. حتى لا يرانا اللصوص فيخافوا ..
نعم يحسن أن لا نضع شيئا يزعج اللصوص ويفسد عليهم
متعهم »

فصاح بى : « يا أخى الا تكف عن هذا العبث ؟ »

قلت : « كففت باذن الله .. تفضل .. ولكن اسمح لى أن أسأل هل تعنى أن ترسل الاطفال وحدهم فى ناحيــة وأمهم وأختك فى ناحية ، وتذهب أنت الى حيث ألقت ، وأعود أنا الى البيت وقد تخلصت منكم جميعا ؟ ان كان هذا مرادك فأنا من الآن موافق والسلام عليكم ، ولا تكلفوا أنفسكم ارسال عناوينكم »

وبعد أن هدأت الضجة التى أثارتها هذه الكلمات البريئة ، قال سليم : « تأخذ أنت الاطفال وهاتين أيضا ــ وأشــار الى زوجتى وأخته ــ وتركب تاكسى وتمر أولا بمركز البوليس ثم لا تتكل عليه بل تذهب تبحث .. وأنا أذهب أبحث من ناحية أخرى »

فقالت زوجتى لسليم : « أكون أنا معك فانى لا أكاد أطيق مزاحه فى مثل هذه الساعات .. أنه لا يفرق بين جد وهزل كل وقت عنده صالح للضحك ... شىء فظيع .. »

قلت : « أشــكرك .. على أنى أستطيع أن أهذب لك خطتك العقيمة .. »

فقالت زوجتى : « بالله اسكت .. أرجوك .. أر .. جووووو »

قلت : « حالا . حالا . كل شىء فى وقته يا امرأة .. وهل هذا وقت رجاء ؟ . انه وقت العمل .. ألا تفهمين ؟ اسمع يا هذا . تذهب أنت الى البوليس وتعفينى من هذه المهمة التى لا أرتاح اليها ولا أعتقد أن فيها فائدة ، وتأخذ معك هذه الزوجة الجاحدة الناكرة للجميل ، وافعل بعــد ذلك ما تستطيع .. والى الملتقى فى البيت العامر ان شاء الله »

فقالت زوجتى : « أيوه .. أنا أقول لكم ماذا ينوى أن يصنع .. سيذهب الى البيت مباشرة ولا يكلف نفسه أى عناء فى البحث عن سيارته .. وسترون »

فقلت : « وهبينى فعلت ذلك ، فهل كنت تحسبين أنى شرطى أو بوليس سرى ؟ وماذا أصنع اذا كانت السيارة قد سرقت .؟ هل أجرى فى الشوارع كالمجنون ... أو أقعد على هذا الرصيف وأبكى ؟. ثم ان معى طفلين صغيرين يريدان أن يناما . أليس كذلك ياميدو ـ اختصار عبد الحميد من فضلك ـ ومعى أيضا هذه الفتاة الطويلة البلهاء التى لا رأس فى عقلها ـ أعنى لا عقل فى رأسها »

فمضيا عنى ولم يجيبا بشىء ، وضحكت لولو فقلت : « هذا أحسن .. ما فائدة الحزن واللطم والنــدب ؟ . ثم أنهما مغفلان ـ ولا مؤاخذة ـ فتعالى نسأل أولا الحارس الذى كان هنا متى رآها آخر مرة ، فقد خطرت لى فكرة أرجو من ورائها خيرا كثيرا وراحة تامة »

وبحثنا عن الحارس حتى وجدناه نائما تحت شجرة ، فأيقظناه فقال لنا انها كانت هنا منذ وقت قصير جدا ، وقد ركبها رجل وفتاة وأن الرجل قال حين سأله عن الباقين ـ منا ـ أنه ذاهب ليشترى لهم شيئا ثم يعود . فسألته عن الاتجاه الذى ذهبا فيه فأشار الى القنــاطر وطريق القاهرة

فطلبت أن يجيئنا بتاكسى بسرعة ، وقلت للولو : « اذا حقق الله ظنى فسيخيب أمل السارق وفتاته ، لأن السيارة ليس فيهــا من البنزين ما يكفى الا عشرة كيلومترات . وأنا أرجو أن يخطىء الخطأ المعقول أى أن يتوهم أن من يجىء الى القناطر بسيارة لا بد أن يكون قد تزود من البنزين للذهاب والاياب ، فيمضى معولا على ذلك ومتخوفا من أن يقف فى القناطر لأخذ بنزين آخر فتقف به السـيارة فى الطريق حيث لا بنزين . ولا يخطر له فى أول الامر أن هذه هى العلة فيدور يبحث عن سبب آخر لوقوفها ، ويضيع فى هذا وقتا ثمينا ثم ييأس فيتركها فى الطريق وينجو بجلده »

وكنت مقتنعا بهذا الرأى حتى لقد أشتريت « صفيحة » بنزين من القناطر وضعناها معنا فى التاكسى ، وقلت للولو : « لهذا فائدة أخرى هى أن يعتقد سائق التاكسى حين نتركه ونركب سيارتنا انا ما استأجرنا سيارته الا لهذا السبب ، فلا يروح يعجب أو يسأل عن شىء ولا يبدو له شىء غريب فى عملنا »

وقد شاء الله أن يحقق ظنى ، فما كدنا نقطع خمسة كيلومترات من الطريق بعد أن تركنا القناطر وأخذنا فى سكة قليوب حتى وجدنا السيارة. وأوجز فأقول انا ركبناها فرحين ، وعدنا الى القناطر عسى أن نجد بقيتنا . فلما لم نجد أحدا تركنا لهم خبرا عند الحارس النائم ، ثم حملناه معنا الى مركز البوليس لنسرهم ونعفيهم من البحث ، فعلمنا أن أصحابنا أبلغوهم خبر السرقة ، وأن بعض الشرطة خرج للبحث وأن الخبر طير بالتليفون الى قليوب والقاهرة وجهات أخرى أيضا لضبط السارق فى الطريق . فشكرنا لهم هذه الهمة التى لم تكن متوقعة ثم قلت لهم : « ان المهم الآن هو البحث عن زوجتى »

فصاح الرجل : «ايه ؟» قلت : «انها مع قريبى وقريبها» قال : « انتهينا »

قلت : « كلا لم ننته . . وما أدراك أن هذه ليست سرقة أخرى أفظع وأشنع ؟ »

فضحك الرجل . . وجرتنى لولو وهى تحتج

□

تركنا السيارة أمام رصيف البيت وجلسنا فى الشرفة نأكل لحم الغائبين ـ أعنى ننتظرهما ـ واذا بهما عائدان بعد نحو ساعتين فى سيارة ـ هى أخت سيارتنا بلا فرق ـ

فانحدرت الى الطريق بسرعة فوجدتهما يتأملان هـذه المعجزة ، فقلت : « تمام .. لقد سرقت هـذه السيارة يا صاحبى ، ولم أكن أعرف أن قريبى ونسيبى لص ... ولكن ماذا أصنع ؟.. لقد أخفوك عنى قبل أن أتزوج ، فصار واجبى أن أخفيك عن أعين الناس بعد أن تزوجت»

فهم بكلام فمنعته ودعوته أن ينظر الى السيارتين ، فاقتنع وقال : « ما العمل الآن ؟ » قلت : « تستعد للسجن .. لقد كان هذا واجبا من زمان طويل فى الحقيقة ، ولكن ما أكثر من يستحقون السجن وهم طلقاء ... والآن اذهب بالسيارة الى الجراج ـ السيارة المسروقة ثم أبلغ البوليس بالتليفون وقل له انك عندى تنتظر حضوره للقبض عليك »

وعرفنا منهما بعد ذلك أنهما ركبا القطار ثم الترام الى العتبة الخضراء واذا بهما يريان السيارة عند رصيف ادارة البريد ، فذهبا اليها يعدوان فألفياها خالية فركبا ، وانطلقا بها من غير أن يعنيا بالنظر الى رقمها وانحدرا بها فى شارع فاروق .. وتركا صاحبها المسكين يجرى وراءهما ويصيح ويصرخ ويستنجد ، وهما يضحكان مسرورين .. بارك الله فيهما من لصين جريئين

وقلت لهما : « لا عليكما .. ستكون العتبة الخضراء كلها عندنا بعد دقائق ببوليسها. وصبيانها وباعتها .. الى آخره .. الى آخره .. وسيشهد الجيران وجيران الجيران أمتع رواية رأوها أو يمكن أن يروها فى حياتهم أو حياة هذا الشارع الرزين »

وجاء الشرطة والمسروق المسكين فى تاكسى . وكان لا بد أن يروا السيارة وأن ينزلوا ، وكنت واقفا الى جانبها انتظر هذا التشريف ، فقال الرجل : « هذه هى » ومسح العرق المتصبب ودنا منها وهم بأن يفتح بابها فتصديت له وقلت : « عفوا .. هل من خدمة ؟ »

فصاح : « خدمة ؟. يا حرامى يا مجرم .. أين أخفيت شريكتك ؟. المرأة التى كانت معك ؟ »

فنظرت الى الشرطي وأنا أبتسم ـ فقد كان الموقف يتطلب الهدوء والكياسة ، وقلت : « هذه سيارتى يا حضرة الشاويش ، فما خطب هذا الرجل ؟ »

فصاح الرجل : « سيارتك يا حرامى يا صفيق الوجه ؟ »

ـ انى أسمح لك بأن تتأملها

فدار حولها ونظر اليها من الامام ثم من الخلف ، ثم وقف أمامى وهو يرعد وينتفض ويقول : « أما مجرم .. بسرعة غيرت أرقامها ؟. ولكن هل تظن أن هذا ينفعك ؟.. »

فبدا على وجه الشرطى التردد حينما سمع أن الارقام مختلفة ، واذا كان المفجوع فى سيارته قد طار عقله ، فان الشرطي لا يوجد ما يدعو الى ذهاب عقله أيضا ، وقلت أنا : « المسألة بسيطة . ومن المعقول أن أغير لوح رقم المرور بسرعة ، ولكن ليس من المعقول أن أغير رقم الشاسيه المحفور على محرك السيارة ، فتفضل واذكر هذا الرقم بعد مراجعة رخصتك اذا شئت ، ثم ارفع غطاء المحرك وانظر »

ففعل فاذا الرقم مختلف جدا ، وشعر بالهزيمة وأدرك أنه تجنى على جدا فبدأ يعتذر .. فسألته : « ولكن كيف يمكن أن تخطىء الى هذا الحد ..؟ هل يعقل ألا تعرف سيارتك ؟ »

قال : « انه لا فرق بينهما على الاطلاق لا من الداخل ولا من الخارج »

فقال الشرطى وهو يريد أن يفض النزاع الذى تهور فيه صاحبنا : « ما دامت السيارتان متشابهتين الى هذا الحد فانه معذور »

قلت : « وهل كنت تعذرنى لو كنت أخطأت مثل خطئه وذهبت أسب الناس وأتهمهم بالسرقة ؟ »

قال : « طبعا . . صحيح انه تهور فى الاتهام قبل التثبت ، ولكنه معذور فى خطئه فى معرفة السيارة »

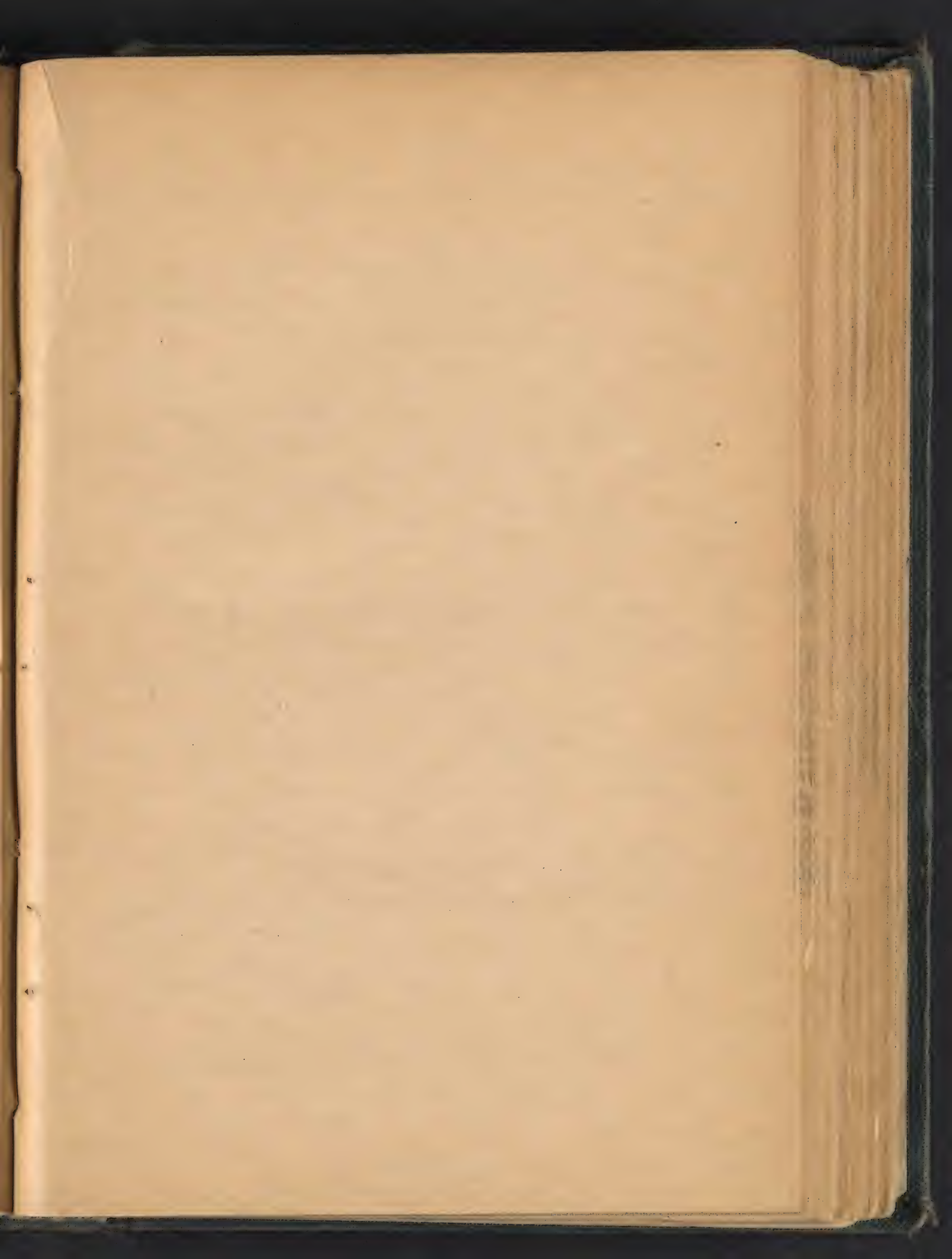
قلت : « واذا دللتك على سيارتك هل تشكرنى . . أم تستأنف اتهامك لى بالسرقة ؟ »

فعاد الى الاعتذار ، وأكد لى أنه يكون شاكرا جدا . فلم يبق داع للاطالة فرويت له وللشرطى القصة من أولها الى آخرها كما وقعت ،وقلت لهما أننا أبلغنا مركز البوليس أنا وجدنا السيارة الاخرى التى ظنها قريبى سيارتنا ، وأن البوليس لا شك سيحضر بعد قليل ليتسلمها . وبهذا انتهى الحادث . .

وقلت لزوجتى وأنا أدخل بعد الفراغ من ذلك : « هل تعترفين الآن أن الذى كان يضحك ويمزح كان هو الحكيم السديد الرأى الصحيح النظر ؟ »

فآثرت المكابرة وقالت انها مصادفة واتفاق ، فشهدت لولو بأنى أحسنت التقدير . . فعادت زوجتى تلوم لأنى كتمت رأيى الحقيقى وتركتها تذهب وتلف وتدور مع سليم، وأنى آثرت لها التعب ولنفسى الراحة

فقلت : « ليكون هذا لك درسا . . ألم أقل لك أن تربيتك ناقصة ؟ » فهاجوا بى وثاروا ، ولكن هذا لا يعنى القراء لا قليلا ولا كثيرا





میمی

ـ أنت أجمل فتاة على ظهر هذه الكرة الارضية .. وأنا أسعد الرجال

وضم اليه زوجته التى لم يمض على بنائه بها أكثر من اثنتى عشرة ساعة ، فالمبالغة تغتفر له ولا ينبغى أن تسوء أحداً من بنات حواء ـ كل ما فيك صاغه فنان .. فخداك من المرمر الناصع ـ وأمر يده عليهما برفق ـ وردفاك حساسان ولجلدهما الرقيق اختلاج حين تمشين كاختلاج الماء صافحه النسيم الوانى .. وثدياك راسخان لينان وأحلى فيما تحس اليد من الكمثرى

وحنا عليها بسرعة وطبع على غلالة شفتيها قبلة حارة.. فلمعت عينا « ميمى » واتقد وجهها وصار صدرها يعلو ويهبط ، ثم قالت : « لكأننا تزوجنا منذ سنين يا سليم .. أليس كذلك ؟ » ولصقت به ، ثم قالت : «تحبنى يا سليم ؟ »

فرفع رأسه وابتسم ابتسامة عريضة ، وقال : « أحبك انى مجنون بك .. لا أدرى ماذا أصنع اذا لم تكونى معى »

فلمعت عيناها وقالت : « من يدرى .. ربما شغلت عنى وألهيت عن ذكرى .. »

فلم يدعها تتم الكلام وأهوى على فمها بقبلة ..

□

وكانت « ميمى » مشهورة بقوة جذبها السريع حتى أيام كانت بنتا صغيرة . وكان غيرها من البنات أجمل منها شعراً أو أحلى عيناً أو أفتن ابتسامة .. أما ميمى فلم يكن

لها ما يمكن أن تقول انه سر جمالها ، وانما كان المرء يشعر أنها فى جملتها أجمل وأسحر . وكانت قوة الجذب هذه تلفت النظر اليها وهى تلميذة فى المدرسة ، وكان كل من يراها يشتهى أن ينظر اليها مرة أخرى . ولكنها هى كانت تعتقد أنها ليست على شىء من الجمال ، وان كان اعتقادها هـذا لم يغرها بالتكلف . وكان الذى وجه خواطرها فى حداثتها الى هذه الناحية أنها سمعت أمها تقول لصاحبة لها مرة : « ان ثديى ميمى كبيران جدا » وكان هذا صحيحا ، فلما أقبل الليل وصارت فى غرفتها وحدها نظرت الى صدرها فى المرآة وسألت نفسها : « أترى هذا من الدمامة .؟ أهما أكبر مما يجب أن يكونا ..؟ » ، وآلت على نفسها فى تلك الليلة أن تهتدى الى الحقيقة

ولو أن ميمى لم تسمع أمها تقول ذلك لكان الأرجح أن لا تجرى خواطرها هذا المجرى ، ولظلت على الأقل سنة أخرى لا تطلب أن تهتدى ولا تشتاق الى هـذا الضرب من المعرفة . وكان أول ما عنيت به هو أن تتأمل صدور البنات من أترابها فى المدرسة ، فألفتهن جميعا الا القليلات ذوات أثداء صغيرة نابتة ولم تكن للقليلات أثداء كبيرة ، ولكنها كانت تقبل المقارنة بثدييها

أما المقياس الحقيقى فأتيح لها فى يوم خرجت فيـه مع لفيف من أهلها بينهم سليم ـ ابن عمها ـ الى القناطر الخيرية فاتفق أن جلست على دكة هناك تحت شجرة على ربوة ، فجاء سليم وجلس الى جانبها .. فقالت لنفسها حين أبصرته يقعد معها ان هذه فرصتها ، وشرعت تحاول أن تعرف منه ما تريد . أليس سليم شابا ؟ فهو خليق أن يقول لها ما رأى الرجال فى حجم ثدييها .. ولكن سليم حيى فهى محتاجة الى اللف والدوران أو الى أن تكون معه كالطلمبة الماصة لتحمله على القول الذى تنشده ، فسألته : « هل تخرج كثيرا مع البنات يا سليم ؟ »

فقال : « ايه ؟. أحيانا »

فسألته : « كم بنتا خرجت معها الى النزهة ؟ »

فأطرق وقال وعينه على الارض : « أوه .. وهل أنا أعرف .؟ ربما كان عددهن سبعة أو أكثر .. »

فسألته : « كلهن من حيكم ؟ »

فقال بايجاز : « تقريبا »

فسألته : «ألا تعرف أحداً من غير الحى الذى أنت فيه ؟»

فقال : « أعرف .. ولكن ما هى الحكاية ؟ ». قالت : « هل هن جميلات .. أعنى هل قوامهن جميل ؟ » فقال : « بعضهن » فقالت : « هل قوامهن أعدل من قوامى ؟ »

وكان صوتها وهى تلقى عليه هذا السؤال يخيل الى السامع أنها ترجو منه أن يكون جوابه « لا » ولكنه خرج من « لا » ومن « نعم » بقوله : « لا أعلم »

ففعلت شيئا لم تكن تظن أنها تستطيع أن تقدم عليه ، ولكنها أقنعت نفسها بأن الامر كله أمر بحث عن حقيقة واختبار لمبلغ الصدق فى قول امها ان ثدييها كبيران ، فقالت له وهى تمنحه فمها : « قبلنى »

وصارت شفتاه على شفتيها ــ لا يدرى كيف ، ولكن هذا هو الذى كان ــ وأحس حرارة القبلة تسرى فى بدنه وتوقد النار فيه وتخزه أيضا . وانتهى الفصل الأول ورجعت ميمى الى بيتها فى تلك الليلة وهى تشعر أن شيئا حصل تحت الشجرة اللفاء ، وأن بابا يفضى الى أسرار عويصة قد فتح لها .. فتحته قبلة واحدة ليس الا .. وصارت تشعر بعد ذلك أنها مخلوق جديد وأن حياتها من طراز آخر غير الذى غبر .. وأصبحت تناجى نفسها وتسألها عما وراء الباب .. وتقول لنفسها ان القبلات حلوة وأنها تحسها معسولة ، ولكن أهذا كل شىء ؟.. لا .. فانها تحس حنينا الى ما لا تعرف وما لا يسعها أن تدرك

واخيرا عرفت بعد أن بلغت العشرين وانتقلت الى بيت سليم وارتمت بين ذراعيه

□

وقالت ميمى وهى بين ذراعى سليم صباح ليلة الجذوة : « لقد ارتفعت الشمس .. صرنا قرب الظهر .. ألا نقوم ؟ »

ففتح سليم عينيه ببطء وقال : « من حسن الحظ أن الزواج ليس كله شهر عسل .. والا متنا »

فزوت ميمى ما بين عينيها وقالت : « لست أفهم ما تقول .. أليس واجبا أن تظل حياة الزوجين شهر عسل كلها .. أى أن يكون الشهر سرمدا ؟ »

فتنهد وقال : « انه ليس كذلك من حسن الحظ .. أوه مستحيل .. أين من يحتمل ذلك .. أوهو .. مستحيل »

ثم عاد فقال : « لا يخب أملك .. كل شىء يفتر على الايام .. هذا عزاؤنا جميعا »

فلم تستطع ميمى أن تفهم لماذا لا يبقى شهر العسل دائما .. ولم تدر ماذا يمنع أن يدوم ولكنها لم تقل شيئا ولم يحاول هو أن يفهمها ، وشغل كلاهما بحياتهما الجديدة فى البيت وخارجه فنسيت أن شهر العسل سيزول كما هددها سليم أو أنذرها . وكانت بعد أن تفرغ من تغيير ثيابها كل ليلة على أثر عودتهما من السينما أو الرياضة أو نحو ذلك تجلس فى حجره وتنحى ما أمامه من الاوراق وتوسعه تقبيلا ، ثم تسأله : « ألا تزال تحبنى ؟ » فيقول : « بالطبع .. يا له من سؤال »

وكان النهار أثقل الاوقات على نفسها لأن زوجها يغيب فيه عنها ، ولم يكن لها فى البيت عمل فان الخدم كثيرون ..

الطباخة وبنتان للكنس والمسح وما الى ذلك . وكان بيتها شقة فى عمارة كبيرة عالية فحدث يوما أنهـا كانت تنتظره ليخرج بها الى السينما ، واذا بالباب يدق جرسه فظنته سليما جاء قبل موعده .. فأسرعت الى الباب تفتحه فألفت سيدة تقول لها : « معذرة اذا كنت أزعجتك .. ولكن خادمتى أضاعت المنفضة ، فهل أجد عندكم واحدة ؟ »

فقالت ميمى : « لا أدرى .. تفضلى حتى أسأل الخادمة »

فدخلت السيدة وهى تقول ان شقتهـا هى التى فوق هذه ، فاستغربت ميمى فى سرها لماذا لم تذهب الى أحد من السكان الآخرين المقابلين لها فى دورها ، وحدثت نفسها أن لعلها فعلت فلم تجد عندهم ما تطلب . وقالت السـيدة ـ كأنما ترد على هذا الذى تحدثت به ميمى الى نفسها : « لقد رأيتك منذ لحظة تخرجين الى الشرفة فى قميصك .. ولايسعنى الا أن أقول ان قدك مدهش »

فسألتها ميمى : « رأيتنى .. كيف رأيتنى وأنت فوق ؟ »

قالت : « رأيتك من الشرفة الاخرى .. من حسن الحظ أن زوجى ليس فى البيت ولم يرك ، والا لـكان من المحقق أن يقذف نفسه عليك »

فدهشت ميمى ولم تقل شيئا وراحت السيدة تسألها عن اسمها كله ، فقد عرفت بعضه من البواب ، وتخبرها باسمها هى وتقول أن من الواجب أن تلتقيا كثيرا وأن تتزاورا ، ثم سألتها : « هل زوجك يسافر ويغيب عنك أياما ؟ »

فقالت ميمى : « يسافر ؟ .. يسافر أين ؟ .. كلا بالطبع »

فقالت الاخرى : « ان زوجى لا يزال على سفر .. وقد كنت فى أول الأمر أقعد فى البيت ولا أبرحه يوما بعـد يوم انتظارا لعودته . وقد ضاق صدرى ولم أعد أطيق ذلك ، فلن تجدينى فى البيت حين يتركنى ويرحل »

فأحست ميمى أنها تحتاج الى حماية من هذه الجارة ، وألفت نفسها تلف الروب دى شامبر على صدرها وان كانت مع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها أن تسأل جارتها : « أين تذهبين حين يغيب عنك زوجك ؟ »

فقالت الجارة بابتسامة وضيئة : « أوه فى أى مكان .. الاصدقاء يتكفلون بذلك »

فصاحت ميمى : « الأصدقاء .. أى أصدقاء ؟ »

فقالت الجارة : « بالطبع يا طفلتى العزيزة .. وأى بأس فى ذلك ؟ »

فقالت ميمى : « ولكن زوجك ؟. ألا يسوءه هذا ؟. ألا يغضبه أن تخرجى مع رجال ؟ »

قالت الجارة : « يغضبه ..؟ وماذا تظنينه يصنع وهو مسافر ..؟ يقضى الوقت فى المسجد ؟. كلا انى أعرف ما يصنع ... »

وصارت هذه الجارة معلمة لميمى . وكرت الايام فأصبحت لا تبالى تقصير سليم معها ، ولا تحفل ما تراه من فتوره حين يعود الى البيت متعبا . وتكررت زيارات الأتراب لها فجأة بفضل الجارة الحاذقة التى أدركت أن ميمى غريرة لا عهد لها بهذا الضرب من حياة المرح ، وما لنا لا نقول حياة الاستخفاف .. فبدأت معها بتبادل الزيارة ثم صارت تزورها ومعها أتراب لها ، فتحتاج أن ترد الزيارات وتخرج اليهن ، وارتقت من ذلك الى دعوتها الى التنزه والخلوات ، ولم تكن الجارة تعدم سيارة تستعيرها بسائقها من بعض من تعرف من الرجال ، وكانت تحرص فى هذه الرحلات الاولى على أن تكون قاصرة عليهن ، ثم صار يتفق أن يلتقين فى هذه الرحلات الى الاهرام أو الماظة أو غيرهما ببعض « أقارب » الجارة ، فيحصل التعريف الذى تقضى به الآداب ، وهكذا الى أن ألفت ميمى أن تكون مع الرجال كما ألفت أن تخرج

مع النساء . وكان الزوج غافلاً عن ذلك فى أول الامر . وكانت ميمى اذا آن أن يناما تدنو منه وتلصق به فيتثاءب ويعرض عنها . وكان ربما زجرها عن ذلك وقال لها بعنف انه محتاج الى النوم ، وكانت هى فى أول الأمر يشق عليها اعراضه وتحس بحزه فى نفسها فتبكى ، فلما توثقت الصلات بينها وبين الجارة لم تعد تبالى هذا الفتور . وظن سليم فى بادىء الامر أن زوجته « هداها الله » حتى كانت ليلة فأقبل عليها يريد أن يقبلها وفتح لها ذراعيه ليضمها ، فلم تحرك ساكنا ولم يبد عليها أنها راغبة فى ذلك فعجب وسألها : « مالك ؟ » . قالت : « لا شىء .. ما لك أنت ؟ » . قال : « ألا تقبلينني ؟.. »

فمطت شفتيها وهزت كتفيها وقالت : « انك تحتاج الى النوم وأنا لا أريد أن أقبل أحدا »

فلم يفهم وألح عليها بالكلام ، فبدرت منها كلمة فهم منها أنها لا تباليه ، فنظر اليها محدقا فى وجهها وقال : « مع من تخرجين ؟ من هؤلاء الاصدقاء أو الصديقات اللواتى ظهرن فجأة ؟ »

فقالت : « لم تعد الحقيقة .. أصدقاء وصديقات .. ومن الجنسين .. ولكنك تكون نذلا اذا أسأت الظن .. ولا أكون أنا بنت أبى وأمى اذا احتملت منك ذلك »

فذهل — وان كان عنفها قد طمأنه — وقال : « ولكن .. ماذا جرى لك ؟ »

قالت : « لم يجر لى شىء .. الى الآن .. لا أزال ميمى التى تعرفها وان كنت قد تعلمت أشياء كثيرة ، ولكنه سيجرى لى على التحقيق أشياء كثيرة اذا بقيت تهملنى .. ثق أنى تعلمت ولكنى لم أعمل بما تعلمت الى الآن .. سأعمل حتما .. فهل ترضيك هذه الصراحة ؟ »

فقال : « لقد كنت طول عمرك جريئة »

وانحط على كرسى ، فقالت : « جريئة أو غير جريئة .. سيان .. المهم أنك دفعتنى الى التعلم .. وأخشى أن تدفعنى الى ما هو شر .. وقد أنذرتك .. وأنت ورأيك .. ولكن لا تلمنى حينئذ »

فأطرق يفكر وطال تفكيره وأحس أنه واقف على حرف هاوية ، وكان قلبه يخفق بشدة وعنف غير أنه كان يبدو للمتأمل هادئا ساكنا ، وجرى بخاطره أن ميمى على حق ، وراجع نفسه وهو قاعد ورأسه مثنى على صدره وعينه على الأرض ، وتذكر أن ميمى كانت أبدا جريئة مجازفة .. ألم تدعه الى تقبيلها مرة ؟ ولكن كيف عرفت هؤلاء الناس .. من الرجال والنساء على السواء .. ولم يرتب قط فى صدقها ، ولم يخالجه أدنى شك فى أن الامر اقتصر على اللقاء والتنزه ، وأنه لم يقع بينها وبين أحد من هؤلاء الرجال ما لا يحمد فان ميمى صريحة لا تهاب شيئا ولا أحدا . ولكن كيف عرفتهم .. وقال لنفسه انها عرفتهم لأنه أهمل أن يكون معها ولأنه كان يتركها وحدها ويقضى سهراته مع الاخوان وفى ظنه أنها ستقتنع برفقة الخدم . هذا هو كيف عرفت هؤلاء .. والمهم الآن هو انقاذها من الهاوية وانقاذ نفسه معها . ونهض ومشى اليها وهو يمد يده ويتناول كفها : « سامحينى يا ميمى .. لن أهملك بعد اليوم »

فرفعت رأسها وحدقت فى عينيه ، وقالت : « صحيح .. ؟ لا تتركنى وحدى ؟ »

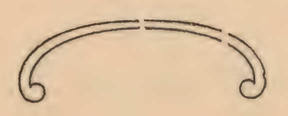
فقال وهو يميل عليها ويدنى فمه من فمها : « كيف يمكن .. ؟ وأنت هل رجعت الى .. ؟ هل أرجو أن أراك كما كنا »

وفى هذه اللحظة دق التليفون فمدت يدها وتناولت السماعة ، وقالت : « اللو .. نعم .. ؟ زكيه .. معك من .. ؟ حمدى .. ؟ آسفة .. يا زكية مشغولة .. نعم .. معى

صديق قديم عاد الى .. تريدين أن تعـرفى من يكون .. اسمعى انه أحب الناس الى .. لا أستطيع أن أعرف أحدا ما بقى هذا الصديق لى .. من هو ..؟ سليم .. ألاتعرفين سليم .. لم تسمعى به قط .. معذرة .. زوجى يا بلهاء.. معذرة .. لا .. لا أمل فى لقاء أحد بعد اليوم . كلا .. لا تتعبى نفسك لا أنت ولا غيرك .. أعنى هذا .. تماما .. مع السلامة »

والتفتت الى زوجها وقالت : « فهمت أنى لا أريد منها ولا من غيرها زيارة فغضبت »

فلم يقل سليم شيئا بل انحنى عليها وحملهـا بين يديه ومضى بها الى الأريكة الواسعة وهى متعلقـة به تضـحك له وتقبله راضية



ليلى

وقفت ليلى أمام المرآة تصلح شعرها ، وتضع فيه المشابك وتسويه براحتها وأناملها ، وتثنى شعرات منه هنا وترد أخرى الى مكانها هناك ، ثم تناولت المشبنه وفتحتها ونظرت فيها هنيهة ثم قلبتها على المنضدة ونفضتها بأطراف أصابعها ، ثم نحتها وراحت تتأمل ما أفرغته منها . ثم هزت رأسها آسفة ، وشرعت ترد الأشياء الى الحقيبة : المشط والمنديل وثلاثة طوابع بريد بثلاثة ملاليم .. لا شيء غير ذلك .. حتى ولا أجرة الترام الى عملها الجديد الذى فازت به . وما غناء ثلاثة من طوابع البريد بثلاثة ملاليم .. لو كانت عشرة لباعتها وركبت ، ان المسافة طويلة من حدائق القبة الى شارع سليمان باشا .. ولو كانت عشرين لباعتها أيضا ــ لتركب ــ فان المشى يسهل أن يحتمل اذا كان معها قرش تأكل به . كلا .. لا بد أن تصبر على الجوع ، وأن تتجلد وتحتمل المشى مع الطوى ، وما بقى سوى يومين ثم تقبض أجرها عن هذا الاسبوع الاول . ولكن هل تستطيع أن تحتمل الجوع وتعب العمل والمشى يومين كاملين ..؟ وأبت أن تفكر فى هذا وأن تدعه يثبط همتها وقالت لنفسها ان حسبها أنها وفقت الى عمل ، وأنه وسعها أن تظل حية الى اليوم . وهبطت على كرسى وهى تقول « آخ » لا من التعب بل مما ستلقى فى يوميها هذين . ومر أمام عينيها كشريط السينما ما كان من أمرها الى الساعة ، فقد تخرجت فى المدرسة السنية ولكنها لم تشتغل بالتدريس .. فقد أحبت فتى رشيقا أغراها بنفسه ووعدها بالزواج وكرر الوعد وأكده وأقسم على الحفاظ ــ وما أسهل بذل هذه

الوعود على الشبان — حتى فاز منها بما يبغى . وألحت عليه تطلب منه الوفاء . وتوسلت اليـــه ، وبكت وقبلت يديه ورجليه . ولم يكن هو ينوى الوفاء ، ولا كان هذا فى وسعه .. فما كان سوى عامل فى مصنع ، وان كان مظهره يوهم أنه من الوجهاء . ولم يكن يدرك ما تورط وورطها فيــه — وماذا عسى أن يخشى مثله ؟ — ولكنها هى كانت لا يخفى عليها ما هى صائرة اليه من الفضيحة لا محالة اذا لم تعجل بالتدبير المنقذ . وليتها أطلعت أمها على ما كان من أمرها مع هذا الفتى .. ولكن ما جدوى « ليت » بعد ثلاث سنوات قضت فيها الحسرة على الأم المسكينة ولم ترقق قلب أبيها الغليظ ؟ وكانت ليلى تخشى ضعف أمها وقوة أبيها فلم تجد أمامها الا فتاها تلقى بنفسها عند قدميه باكية متوسلة ، وهو يرى تضعضعها هـذا فيتجبر ويتغطرس ويتحكم ويدعوها أن تفر معه . وتتردد وتحجم عن هـذه الخطوة الحاسمة التى لا رجعة بعدها الى أهلهــا ، فان أباها عنيف عنيد يؤثر أن يقتلها على أن يقبلها فى بيته . بل هو لا محالة قاتلها اذا عرف الحقيقة ، واذا أطاعت فتاها وفرت . وسيعرف الحقيقــة اذا بقيت فالفرار أنجى . وقد لا يكون أشرف ، ولكنه سبيل الحياة اذا شاءت أن تبقى حية . وقد كان .. فرت مع هذا الفتى وحملت معها فى حقيبة الثياب حليها وشيئا من حلى أمها أيضا ، وقد نفعها ذاك فما أقامت مع الفتى الا أياما فى فندق زرى ، وكان ظنها أنها ذاهبــة الى بيته ، وأنها ستكون زوجة له ، فيكون مما يرجى ، أن تغتفر زلتها على جسامتها .. فاذا بالفتى لا يريد الا أن يقضى أياما فى متعة خالصة ثم يلقى بها عظمة بعد أن أكلها لحمها . فكادت تجن .. واغتنمت فرصة خروجه من الفندق يوما ، فحملت حقيبتها وأدت حساب الفندق ، وانطلقت على غير هدى . وصارت المسألة « أين تذهب » .. بيت أبيهــا لاسبيل

اليه ، وأترابها فى المدرسة .. كلا .. هذا أيضا ممتنع . وتذكرت وهى واقفة فى محطة للترام صديقة لها كانت من جيرانها فى زمن الحداثة ، وهى الآن « حكيمة » فى قصر العينى . ولكن الحكيمات فى هذا المستشفى يبتن فيه ولا يخرجن الا أياما معلومة ، فما العمل ؟.. ولم يطل ترددها فذهبت الى العيادة الخارجية ، وسألت تلميذة لقيتها فيها عن صاحبتها ، واتفق أنها كانت تعرفها فدلتها عليها وأنبأتها أنها تعمل فى قسم الرمد ، وكتبت اليها ورقة بعثت بها مع خادم أو « تمورجى » كما يسمى فدعتها الحكيمة اليها .. وكانت هذه المقابلة بداية الفرج

أقامت ليلى بعد ذلك مع أهل الحكيمة ، وكانتا تلتقيان يوم الأحد ويوم الخميس والجمعة الى المساء ــ كل أسبوعين مرة ــ وكانت ليلى ربما اشتاقت الى صديقتها فى أيام عملها بالمستشفى فتذهب فى الظهر أو فى الساعة التاسعة لتراها وهى خارجة من المستشفى فى طريقها الى «الهوستل» حيث الطعام والنوم، فتحدثها دقائق ثم تكر راجعة الى البيت . وكانت المسألة التى تشغل البنتين هى كيف ينبغى أن تحيا ليلى . فقد كان مفهوما أن اقامتها فى بيت صاحبتها ليست سرمدا ، وان كانت تنفق على نفسها من ثمن ما تبيعه من الحلى .. فان لهذا آخرا على كل حال . وكان مما فكرا فيه أن تعمل فى عيادة أحد الأطباء ، ولكن ليلى أشفقت أن تلتقى عنده بأحد من أهلها أو معارفها . وخطر لهما أن تعمل فى مصلحة التليفون ولكن السعى أخفق ولم تجد وساطات الاطباء الذين استعانت بهم « الحكيمة » فقد تحول التليفون وانقلب « أوتوماتيكيا » فما الحاجة الى بنات جديدات ؟. . وخشيت أن تشتغل بالتعليم فى مدرسة أهلية فيهتدى اليها أبوها ، وكان خوفها من ذلك عظيما . وأخيرا اقترح عليها طبيب أن تتدرب على الآلة الكاتبة ، ففعلت وأتقنت ذلك حتى

صارت تكتب ثمانين كلمة فى الدقيقة ، وأعانها الطبيب، وألحقها بمكتب يتلقى طلبات « النسخ » ولكن العمل كان قليلا لأن أكثر ما كان يطلب كان باللغتين الفرنسية والانجليزية . وكانت تعرف الانجليزية فقد تعلمتها فى المدرسة ، فلم يسعها الا أن تتدرب على كتابتها على آلتها ، وسهل عليها بعد ذلك أن تستطيع « نسخ » الفرنسية أيضا ، فان الحروف واحدة وان كان جهلها بهذه اللغة قد جعلها أبطأ . غير أن السرعة يمكن أن تجىء مع الوقت

واستغنت على الايام عن المقام فى بيت صديقتها ، وان كانت صلتها بها قد بقيت وثيقة فان فضلها عليها كبير ، وجميل صنعها معها ليس مما يجحد ولا مما ينسى ، حتى ولو نزعت نفسها الى الكفران . وأفلس المكتب فانتقلت الى سواه بعد عناء ، على الرغم من أنها أصبحت معروفة فى هذا المحيط .. محيط الكاتبات الناسخات . وكانت حليها قد ذهبت جميعا فى نفقات الحياة وأجور التعليم وسد النقص

وها هى ذى الآن قد التحقت بمكتب جديد ، بعد أن ظلت عاطلة شهرين أكلت البطالة فى خلالهما القليل الذى كان مدخرا

ونهضت عن الكرسى وهى تتنهد ، وتناولت حقيبتها لتخرج الى عملها . وكانت الساعة السابعة .. فأمامها ساعة كاملة للمشي الى المكتب ، وقد عرفت بالتجربة أن الساعة فوق الكفاية ، ولكن فسحة الوقت خير من ضيقه . ومضت الى بابها لتفتحه وتخرج ، واذا بقرع خفيف عليه .. فقالت : « تفضل » ، فدخل رجل بدين وسلم وقال : «أراك خارجة» فقالت : « نعم .. » وهمت أن تقول انها مضطرة الى التبكير ، ولكنها كبحت نفسها فما يعنيه هذا ، فقال : «أجرة الغرفة عن ثلاثة أسابيع .. ألا يمكن أن تعطينى منها شيئا على الحساب ؟ »

فقالت : « آسفة . . وانى لشاكرة لك هذا الصبر كله . . والعطف أيضا . . وبعـد يومين . . أقبض أجرة الاسبوع فأعطيك شيئا »

قال : « انك تحرجينني مع زوجتي . . هذا الصبر الطويل ليس له عندها الا معني واحد . وقد أنذرتني اليوم . . وعبثا أحاول أن أفهمها الحقيقة . . لا تريد أن تفهم . . كل ماتعرفه أن الاجرة تأخرت ثلاثة أسابيع . وكل ما تريده هو أن تؤدى اليها هذه الاجرة أو تخرجى اليوم »

قالت : « ألا يمكن أن تمهلونى يومين اثنين . . أين أذهب اذا خرجت اليوم . . ليس لى مكان آخر » . فهز الرجل كتفيه الغليظتين ، ولم يقل شيئا

فدنت منه ليلى ، وقالت : « أرجو أن تمهلنى . . كن شفيعى عندها »

فقال : « لو كان الامر الى لما تقاضيتك شـيئا قط . . ولكنك تعرفين زوجتى . . ولست أعرف لى حيلة »

قالت : « ولكن كيف أستطيع أن أعطيك اليوم شيئا ؟ . . لا أعرف أحدا أقترض منه . . ولا يمكن أخـــذ شيء من المكتب . . انى جديدة فيه »

فقال : « اسمعى . . لو لم تكونى بلهاء لأمكن تذليل كل هذه المصاعب ، ولكن لم أر فتاة مثلك »

فقالت : « ماذا تعنى ؟ . كيف يمكن تذليل الصعاب ؟ »

فأراح كفيه الغليظتين على كتفيها ، وقال : « أنا أستطيع أن أدبر الامر اذا طاوعتنى » . فهزت رأسـها غير فاهمـة ، فقال : « تعالى »

وطوقها بذراعيه ، وأدنى شفتيه المطوطتين من فمها . . فحاولت أن تنأى عنه ، ولكنه جذبها اليه بقوة ، فحولت

وجهها عنه ، فذهبت شفتاه تعبثان فى نحرها وكتفهـا ، وكانت يده اليسرى تتحسس صدرها وتقف وتتكور على ثديها الراسخ ، فكاد عقلها يطير وتفلتت من عناقه بعنف ، وارتدت راجعة الى آخر الغرفة ، وهى تلهث وتنهج ، كأنما كانت تجرى وصدرها يعلو ويهبط كالموج من جهد المقاومة ومن الغضب أيضا ، وكأن هو ينظر اليها نظر النقمة والغيظ فصـاحت به وهى ترتجف : « اذا لم تخـرج من هنـا فسأصرخ »

فزام وهز رأسه ، وقال وهو يدور ليخرج : « طيب .. سنرى .. أما أن تدفعى اليوم ، والا فاخرجى أنت »

فلم تقل شيئا .. وماذا عسى أن تقول ..

▭

– بونجور

– بونجور .. خذى هذا العنوان واذهبى اليه حالا .. عمل مستعجل .. الرمنجتون ذهب بها احمد .. العمل يستغرق يومين .. ثلاثة .. المهم الاتقـان .. يجب أن يكون راضيا .. فاهمة ؟

فذهبت ولم تسأله أهو عربى أم أفرنجى .. وماذا يهم .. كله عمل .. آلى . ودخلت الشقة فاذا هى بيت لا مكتب ، وقالت للخادم النوبى : « انى من محل .. »

فاكتفى بأن يشير الى غرفة المكتب ، فجلست على كرسى من الجلد كبير وثير .. وأدارت عينيها فى الغرفة ، فلم تر فيها أثاثا غير كرسى آخر كالذى جلست عليه . وحول الجدران رفوف كثيرة عليها كتب لا تحصى ، وفى الركن مكتب أنيق ، وفى وسط الغرفة منضـدة صغيرة مما يستعمـل للشاى وضعت عليها « الرمنجتون » فتوقعت أن ترى رجلا عالى

السن ، وأدهشها أن يدخل عليها شاب يناهز الثلاثين ، وأن تعلم أن هذا هو الذى جاءت لتعمل له ولتنسخ ما يشاء

وقال برقة لا تكلف فيها : « قهوة ؟ »

قالت : « أشكرك .. فيما بعد .. بماذا تأمر ؟.. »

فقال وهو يناولها ملفا ضخما : « فى كم يوم يمكن الفراغ من نسخ هذا كله ؟ »

فقلبت الأوراق ونظرت فى الخط والسطور ، ثم رفعت رأسها اليه وقالت : « صعب أن أقول كم يستغرق .. ولكن .. بعد ورقة أو اثنتين أستطيع أن أحكم حكما قريبا من الصحة »

فهز رأسه وهو يبتسم وتحول عنها ، ثم خطر له خاطر ، فدار على عقبيه بسرعة وسألها : « يهودية ؟ »

فابتسمت وقالت وهى تهز كتفيها : « لأنى شقراء ؟ »

فقال : « اذن أنت .. »

فأراحته من عناء التخمين ، وقالت : « مسلمة »

فقال وهو يهز رأسه بعنف : « أنا أيضا مسلم »

فلم تقل شيئا واجتزأت بالابتسام وشرعت ترفع غطاء الرمنجتون ، وتركها هو وذهب فجلس على الكرسى الآخر ، ثم رآها تتلفت فى الغرفة ، فنهض وهز رأسه مستفسرا ، فنهضت هى أيضا وقالت : « لا تتعب نفسك .. أظن أن فى وسعى أن أجد كرسيا من الخيزران فى .. »

فقال وهو يعدو الى الباب : « بالطبع .. أما أنى لمغفل .. »

وعاد بالكرسى وهو يقول ضاحكا : « لكأنما كنت أظن أنك ستجلسين القرفصاء وتكتبين على حجرك .. لم تشهدى ذلك العهد بالطبع .. لا يمكن فانك ما زلت صغيرة .. أوه جدا .. ولكن أين تعلمت الكتابة على هذه

الآلة ؟.. معذرة اذا كنت أتطفل ، ولكن المصريات يندر .. جدا أن تعنى واحدة منهن بذلك »

قالت : « اضطررت أن أتعلم .. صنعة فى اليد أمان من الفقر .. » وابتسمت ، فقال : « أهو ذاك ؟.. معذرة .. كان سؤالى فضولا منى لا يغتفر .. سامحينى »

فسرها منه هذا الادب ، وقالت : « ليس هذا سرا .. ألست أعمل ؟ لست هاوية بالطبع »

فقال : « اذا كنت تعملين فى مكتب .. فانك ولا شك تعرفين لغة أجنبية أو اثنتين .. ف .. ف .. »

قالت : « أعرف الانجليزية .. وأصبحت أعرف من الفرنسية ما يكفى للنسخ .. وأتكلمها أيضا ، فاننا جميعا نتكلمها هناك .. »

فقال : « أوه لست أريد أن أفتح لك محضر تحقيق .. معذرة مرة أخرى .. » ورفع يده الى جبينه العريض ومسحه ، وقال : « هذه أول مرة أرى فيها مسلمة تشتغل بالنسخ ـ وضحك ـ أرانا نتقدم .. أليس كذلك ؟ »

وكانت قد شرعت تدق على الآلة الكاتبة ، فاكتفت بالابتسام ..

وتركها هو بعد ذلك وخرج بعد أن قال لها ان فى وسعها أن تطلب ما تشاء من الخادم .. اى شىء .. قهوة .. شاى .. أكل .. كل ما فى البيت تحت أمرها ..

ولكنها لم تطلب من الخادم شيئا ، ولم تقلق راحته بل اقبلت على الآلة تدق وتدق بسرعة ثمانين كلمة فى الدقيقة ، وتخرج له من كل ورقة نسختين . واستغرقها العمل ، ووجدت فيه متعة لا عهد لها بها فى مثله .. فقد كانت هذه رواية تنقلها ـ استعدادا لطبعها ولا شك ـ وكانت الصور التى يرسمها المؤلف ـ هذا الشاب الوسيم المؤدب ـ تتجسد

يها ، والمواقف تتمثل وهى تدق وتدق بسرعة ثمانين كلمة فى الدقيقة . وكانت نفسها تجيش بمثل العواطف الموصوفة والاحساسات المصورة ، فتضحك تارة ، وتخنقها العبرة تارة أخرى ، وتعبس حينا .. وترى نفسها تنطق الألفاظ التى تدقها بقوة وعنف كأنها تمثل ما تقرأ أو كأنما كان الامر حقيقة لا خيالا . وكانت ورقة بعد ورقة تلقى فى السلة على المكتب ، وهى ذاهلة عن كل شىء . فما قامت مرة ، ولا تمطت لتريح أعضاءها المكدودة وتحرك أصابعها التى كادت تتشنج وتتصلب أو تتخشب ، ولا شعرت بظمأ أو جوع ، ولا كان لها بال الا الى هذه الرواية التى تقرأها وهى تنسخها . ولقد كانت مشغوفة أيام المدرسة بالروايات والقصص ، ولكنها منذ ثلاث سنوات لم تقرأ رواية ، وان كانت قد ذهبت مرارا الى السينما — وهى مطمئنة — فان اباها من ألد أعداء السينما . ومع ذلك كانت تتحرز وتلقى على وجهها نقابا خفيفا شفافا ، حتى حين تمشى فى الطريق كانت تنتقب زاعمة أن هذا وقاية من الشمس والتراب

ولم تشعر بعبد الحميد — فقد كان هذا اسمه — حين دخل عليها ، ووقف ينظر اليها أكثر من دقيقتين . فلما رآها لا تنظر اليه ولا ترفع عينها اليه عن الورق ولا تتمهل أو تتباطأ فى العمل ، قال : « معذرة .. ان هذا انتحار .. »

فرفعت رأسها حينئذ ، وقالت : « أوه .. لم أرك لما جئت .. كلا .. انى على العكس مسرورة . وأعترف لك بأن هذه أول مرة سرنى فيها عملى .. رواية مدهشة »

فقال وهو ينحى كفيها عن الرمنجتون : « قد تكون الرواية مدهشة .. ولكن أبعث على الدهشة أن لا يحتاج الانسان الى الراحة .. تفضلى وقومى ، أريحى جسمك قليلا على هذا الكرسى » وتناول ذراعها لينهضها ، فقالت وهى تقوم : « صدقت .. أستريح دقيقة »

فقال وهو يمضي بها الى الكرسى : « تستريحين تماما »

فقالت ، وهى تجلس على الكرسى : « ولـكنى أريد أن أعرف بقية الرواية »

فقال : « اضطجعى أولا .. أنا أقص عليك البقيـة .. ألخصها لك فى ألفاظ قليلة »

قالت : « كلا .. هذا يفسدها .. انى أريد أن أقرأها »

قال : « اذن أقرأها لك » . قالت : « تتعب .. دعنى أقرأها أنا وأنا أستريح » . قال : « بعد الغداء .. الوقت طويل »

فقالت : « الغداء ..؟ كلا .. اسمح لى أن أخرج ثم أعود فى الساعة الثالثة كالعادة »

قال : « ولم لا تبقين وتتغدين هنا ..؟ قولى انك باقية »

قالت : « لا أستطيع .. سأعود بالطبع بعد الظهر »

وكانت تعلم أنها مفلسة ، وأنها لا تستطيع أن تذهب الى بيتها ـ حيث ذلك الرجل الخشن الفظيع ـ وهبـه ليس فيه ، فما تصنع هناك ؟ واذا لم تذهب الى البيت فأين يمكن أن تذهب ..؟ هذا شاب يعرض عليها أن يطعمها وأن يريحها من الأنياب التى تمزق أحشاءها ويعفيها من الشعور الثقيل بالقرص والعض فى جوفها ، فلم لا تطيع وتقعـد وتأكل ؟ وأحست وهى تدبر هـذا فى نفسها بالدموع تترقرق فى مآقيها وتخنقها ، وخشيت أن تخونها قواها وأن تغلبهـا العبرة أمامه .. فقرضت أسنانها وشدت أعصابها ونهضت متحاملة على نفسها . فقـال : « الى أين ؟.. لا يمكن أن تخرجى .. عيب .. لا يليق »

فقالت بضعف ، فما بقيت فى بدنها ذرة من القوة بعد أن أنفقت البقية فى المكابرة : « أرجو .. » ولم تزد ، فقد هوت كالجثة أو كأنها ثوب فارغ

ولم يكن هذا مما يجرى لصاحبنا فى حساب ، فلم ينتبه الى ما حدث الا بعد أن ارتمت على الارض .. بعضها على الكرسى ، وسائرها على السجادة . فانحنى عليها وحملها وأراحها على الكرسى ، وخرج يعدو ويصيح : « محمد . محمد . تعال حالا .. » ولم ينتظره بل ذهب الى غرفة النوم ، وجاء منها بزجاجة من الكولونيا رش منها على وجهها الاصفر ، وأقبل على راحتيها يدلكهما وخلع حذاءيها وجوربيها ، وراح يدلك قدميها أيضا بالكولونيا ومحمد واقف ينظر وينتظر الأوامر التى لا تصدر ولا يصنع شيئا

بعد لأى ما،بدأ الدم يعود الى وجهها المتقع .. فتنفس عبد الحميد الصعداء واطمأن . وفتحت ليلى عينيها وأجالتهما فيما حولها بفتور ، ثم تنهدت ووسعها أن تتكلم . فقالت : « لم يحدث لى هذا أبدا »

فقال بشىء من العنف : « كان جميلا جدا أن يحدث لك هذا فى الشارع .. هه » . فابتسمت ، وقالت : « أشكرك .. انى آسفة .. هذه أول مرة » . فقال : « محمد . خذ هذه الزجاجة وضعها فى مكانها .. والآن لا يسعنى — وقد خرج محمد — الا أن أوجه اليك سؤالا ثقيلا .. باردا فى الحقيقة .. ولكنه واجب .. متى أكلت آخر مرة ؟ احذرى أن تكذبى »

قالت : « لا داعى للكذب .. أمس ، الظهر »

قال : « لقد ظننت ذلك .. » . قالت : « كيف عرفت ؟ »

قال : « أوه المسألة فى غاية البساطة .. ليست مسألة فراسة ، ولكنها مسألة ضم قرينة الى قرينة .. مررت بمكتب .. واستدرجت صاحبه الى الكلام عنك ، فقال انك معروفة فى مكاتب النسخ وان كنت من الجديدات عنده .. هذا يومك الخامس فى مكتبه .. وأثنى عليك وطمأننى كأنما كنت أحتاج الى ذلك .. فلما أغمى عليك الآن أدركت أن

هذا من التعب والجوع .. ألا ترين أنى أصلح للقيام بدور سنكلر أو شرلوك هلمز ؟ ! »

فضحكت وقالت : « لماذا سألت عنى ؟ »

فقال : « قبل أن أجيبك ، يجب أن تنتظرى قليلا حتى أعود اليك »

وخرج وتركها ، فراحت تفكر مسرورة فى هذا الشاب . نعم هو شاب ، وان كان الأرجح أنه جاوز الثلاثين . وفى رقته ودعته ، وفى مروءة نفسه وحسن أدبه ، وفى براعته فى فن الرواية ، براعة جعلتها تعمل كما لم تعمل قط فى حياتها .. وفى وسامته ، وفى هذا السحر الذى ينطلق من عينيه فينفذ الى القلب ، ثم تنهدت آسفة .. سحر أو لا سحر .. سيان .. لا شك أنه يعجب بها .. هذا واضح .. ولكن ما قيمة هذا الاعجاب .. وهبه أحبها فما أملها معه الا أمل الخليلة .. وهيهات أن ترضى ذلك . ولو كانت ترضى ذلك ، لما فاتها ما فاتها من الفرص .. ولا كانت خسرت ما خسرت من الاعمال ، فما كان أكثر أصحاب الاعمال الذين طمعوا فى هذا النوع من العلاقة .. فلما خيبت أملهم ألقوا بها فى الشارع ، وحسبها زلة واحدة فى حياتها أورثتها هذا الشقاء الطويل ..

واختصرت زفرة طويلة ، فقد دخل فى هذه اللحظة محمد وأمامه سيده .. الخادم يحمل سلطانية متوسطة فيها مرق ، والسيد يحمل فوطة ، وقال السيد : « اشربى هذا حالا .. »

وطرح الفوطة على حجرها ففعلت كما أمر ، وقال : « هذا يكفى الآن .. بعد طول الطوى ، يحسن التخفيف حتى لا تتعب المعدة »

فقالت وهى تضحك : « لا تبالغ .. انه يوم واحد ليس الا »

قال : « هذه الشجاعة التى تظهرينها تسرنى وتعليك فى عينى .. ولكنها تكلف على كل حال »

فقالت مستغربة : « تكلف .. أبدا »

قال : « أن الذى أعنيه هو أن الشجاعة لا تكون الا تكلفا شىء يحمل الانسان نفسه عليه .. هذا ما أعنى »

فسألت : « ولكنى لست فاهمة »

قال : « نؤجل الدرس الى وقت آخر . ونتحدث الآن عنك .. قولى ما اسمك » . فقالت : « فريدة » . قال : « ينطقونها فى المكتب « فريدا » .. ما علينا .. هل هذا اسمك الحقيقى ؟ »

قالت : « ولماذا تظن أنه ليس أسمى ؟ » . قال : «ما رأيت من شجاعتك يحملنى على هذا الظن .. انت بنت ناس »

قالت : « كل الناس أبناء ناس » . وضحكت ، فقال : « أعنى أنك تشعرين بكرامة تحرصين عليها »

قالت : « هل أنا الوحيدة التى تفعل ذلك ؟ » قال : « أعترف أنى انهزمت .. عندى كلام كثير .. حجج .. ولكنى أوثر الهزيمة .. فما قولك أن نكون صريحين ؟ »

فضحكت .. ولم يكن ضحكها سرورا ، بل عن شعور بالضعف وبالاضطراب الذى أدركت أنه سيدفعها الى الاعتراف بكل ما فى نفسها ، فقال : « قولى لى اسمك الحقيقى .. سأحتفظ به »

فأقرت من حيث تريد المكابرة ، وقالت : « ولكن ما الفرق بين اسم واسم ..؟ كله اسم »

قال : « ها .. لقد صح ظنى .. والآن اسمك الحقيقى . لقد وعدتك بكتمانه فهل تستطيعين أن تثقى بى ؟ » قالت : « نعم .. ليلى » قال : « ليلى .. ليلى ماذا » . قالت : « ألا تعفينى ؟.. لست أشعر أنى أستطيع المقاومة اذا ألححت .. ارحم ضعفى »

فقال : « بالطبع .. معذرة .. لست أريد أن أستغل ضعفك .. كلا .. أغفر لى فضولى ، فانه ليس عن خسة بل عن .. »

وأمسك مترددا ، فقالت وقد رأت تردده وأدركت بغريزتها الذكية دلالته : « عن .. »

فقال : « عن حب .. لقد قلتها ... قولى عنى مغفل . ما شئت قوليه .. ولكنها الحقيقة .. وقد استرحت الآن .. رفعت عن صدرى حجرا .. تنفست .. عجيب ولا شك .. هى دقائق رأيتك فيها .. ولكنى مع ذلك أحببتك كأنى عرفتك من قبل أن أخلق .. كأنما كنا معا فى عالم آخر قبل هذا . ولست أقول هذا لأخدعك .. وانى لأعلم أن الرجل يستطيع أن يخدع المرأة بتمثيل دور العاشق ، ولكنى لا أحاول خداعك ولا مطمع لى فيك .. كل ما أعرفه أنى أحببتك .. قد يكون هذا شعورا وقتيا يفتر بعد قليل أو كثير .. وأى حب لا يفتر .. على كل حال لا أعلم .. أعرف فقط أنى أنا فوجئت بهذا الحب الذى غمر نفسى وشاع فيها علوا وسفلا .. أنظرى اليه كيف شئت .. باستخفاف اذا أردت أو لم يسعك غير ذلك . ولكن صدقينى .. فانى أحتمل الاستخفاف ، ولكنى لا أستطيع أن أحتمل التكذيب . كلا ..!! »

فقالت ببساطة : « انى أصدقك » فصاح بها : « ايه ؟ » قالت : « ألم تسمع ؟.. هات أذنك وأنا أصيح لك فيها .. صدقتك .. هل سمعت الآن ؟.. لا لا لا لا ... صدقتك معناها صدقتك فقط .. »

وعرف اسمها الكامل واسم أبيها أيضا ، فقال وهو يمسح جبينه : « انتظرى .. أليس والدك هو الذى كان ضابطا فى الجيش .. »

قالت : « هو بعينه » قال : « وكان يسكن فى شارع .. »

قالت : « هذا هو البيت الذى ولدت فيه »

قال : « غريب .. لقد كان أبى رحمه الله صديقا جدا لأبيك . ولداهما يلتقيان الآن .. غريب . وماذا حملك على ترك أبيك ؟ اسمع انه كان عنيفا » . قالت : « لأنى خفت عنفه .. اسمع .. سأقص عليك حكايتى كلها .. لم يبق بد من هذا . وأحببنى بعد ذلك اذا استطعت .. ربما كان هذا لازما لتشفى »

وقصت عليك الحكاية ولم تكتم شيئا ولم تحاول أن تهون من زلتها . وكان يصغى وهو مطرق ، فلما فرغت قالت : « والآن يمكنك أن تبلغنى أنك دفنت حبك المباغت لهذه الفتاة الطائشة »

قال : « لقد كنت ضحية ... ولست أدفن حبى لك ، ولكنى أنوى أن أعلنه .. فهل تسمحين لى بأن أطمع أن تحبينى يوما من الأيام ؟ »

فأطرقت تفكر ، فقد أساءت فهم ما قصد اليه وتوهمت أنه يريدها كما أراد غيره ، خليلة .. وشعر هو من اطراقها أن معنى كلامه ليس واضحا،وشجعه ترددها الظاهر فقال : « انى لا أرى أنى أستطيع أن أعيش بعد اليوم بدونك ، فهل تقبليننى زوجا على أن تكون الطاعة منى والحب .. ولا يكون منك الا ما يسمح بالامل فى أن تحبينى يوما ما ؟ »

فصاحت : « ولكنى أحبك من الآن ! »

وندعهما .. فما بقى لنا مقام معهما

حوّاء والحيّة

رفعت « جليلة » رأسها قليلا عن الرمل ، ونظرت الى صدرها الذى يعلو ويهبط ، وجلدها الذى دبغته الشمس ثم مدت بصرها الى ساقيها والى أصابعها التى عنيت بصبغ أظافرها ، وابتسمت ابتسامة الرضى والاغتباط ، ثم ردت رأسها وظلت راقدة وتركت الشمس تفعل فعلها فى جسمها العارى من الصدر الى الردفين ومن الساقين الى الأخمصين وكانت هذه عادتها مذ جاءت الى الاسكندرية .. تخرج كل صباح من الفندق فى ثياب الاستحمام ، فتلقى بنفسها فى الماء فى هذه الناحية المنعزلة وتسبح ما شاءت قريبا من الساحل ، ثم تخرج الى الرمل وترخى ما على صدرها من ثوب البحر وتعريه للشمس ، لتفيد ما قيل لها أن أشعة الشمس تفيده من الصحة والعافية . ولم تكن تلقى أحدا فى هذا المكان أو تخشى أن يتطفل عليها فيه مخلوق ، لبعده وضيقه واحتجابه وكثرة ما يحيط به من الصخور

ولمحت زورقا شراعيا يشق الماء من بعيد فنهضت واتكأت على كوعها ، وراحت تنظر اليه تارة والى أظافر قدميها المصبوغة تارة أخرى ثم أرهفت أذنيها ، فقد خيل اليها أنها سمعت صوتا يشبه صوت تكسر العود داسته قدم .. فنسيت أظافرها وانطرحت على بطنها وعينها الى الناحية التى تأدى اليها منها الصوت ، فما لبثت أن سمعت وقع أقدام — أو قدمين على الأصح — فما أسرع ما جلست على ركبتيها ، ورفعت الثوب فغطت صدرها . وكانت أصابعها لا تزال تعمل فيه لتربطه ، حين وقف أمامها رجل وسيم معتدل القامة حسن البزة عارى الرأس ، فحدقت

فى وجهه .. فقد وقف مفتوح الفم كأنما بهره جمالها ثم قال : « أرجو المعذرة »

فلم تقل جليلة شيئا وظلت قائمة على ركبتيها تنظر اليه ، فضحك فجأة وبلا مناسبة ظاهرة ، ثم كف فجأة وقال : « أرجو المعذرة .. لكأنك حواء تصلى فى الجنة » . فقالت بلهجة امتزج فيها الغضب بالسرور المكبوح : « ماذا تعنى بحواء والجنة ؟ »

قال : « من الاتفاق الغريب أن اسمى آدم ، وقد كنت وأنا ماش أتوقع — أخشى فى الحقيقة — أن ألقى حية .. ولكننى على التحقيق لم أكن أتوقع أن ألتقى بحواء »

وضحك مرة أخرى ، فقالت بحدة : « ليس اسمى حواء » . فقال بابتسام : «هل لى اذن أن أسأل ما اسمك ؟»

قالت : « كلا .. لن أخبرك » قال : « اذن سأسميك حواء فانه أليق ما يكون .. وليت من يدرى هل كان لحواء بحر كهذا فى الفردوس ؟.. »

ونظر الى البحر ، ولكنها ردته بقولها : « سمنى ما شئت فانى راجعة الى الفندق » . وهمت بالنهوض ، فقال : « سأرافقك اليه فانى نازل فيه اذا كان هو هذا » وأشار الى ناحيته

ولكنها لم تذهب ، بل وقفت وقالت ، وقد جنحت الى العناد : « بل سأبقى هنا » . فوافق الرجل بسرور وقال : « حسن جدا .. سأبقى أنا أيضا .. لأسليك وأونسك فى وحدتك »

فهزت جليلة كتفها هزة خفيفة ، وعادت الى الرمل فجلست عليه ، فجلس مثلها بثيابه الأنيقة وراح يجيل عينه فى مفاتنها .. وكانت هى أيضا تتأمل كتفيه العريضتين ووجهه القسيم وشعره اللامع وساقيه المفتولين ، ولا يبدو

عليها أنها غير راضية عن وجوده وتطفله عليها فى هذا المكان الذى كانت تظنه نائيا عن الخلق

وسألها : « ماذا تصنعين هنا ؟ » فقالت باختصار : « كنت أتمشى »

ولكنها رمت اليه ابتسامة ساحرة ، فقال :

« ولكنك كنت راقدة على الرمل ، فهل هذه طريقة جديدة للمشى ؟ » . قالت : « كنت أستحم » . قال : « تستحمين ؟ ولكن بينك وبين البحر أكثر من مائة متر »

فقالت بغضب : « ألا أستطيع أن آخذ حمام شمس اذا أردت ؟ » . فقال : « آه .. صحيح »

وهز رأسه ثم رفع طرفه الى السماء وقال : « حواء تأخذ حمام شمس ، فيفاجئها آدم الذى كان يبحث عن الحية .. أليس كذلك .. ويفسد عليها حمامها .. معذرة مرة أخرى .. »

فتركت الاعتذار وسألته بلهفة : « آدم .. قل لى .. هل تظن أن هنا حيات ؟ » . فقال : « لا أظن .. وماذا تصنع حتى الحية هنا ؟.. تأخذ حمام شمس هى أيضا ؟ »

فضحكت وقالت : « ألم تأخذ قط حمام شمس ؟.. »

فكاد يفهق . وقطب هنيهة وهو يحاول أن يهتدى الى المعنى الذى أرادته ثم قال بابتسام : « كلا .. لم أفعل ذلك قط .. جربت كل نوع من الحمامات الا هذا .. والله فكرة .. »

فصاحت به : « لم أكن أعنى هذا » وابتسمت على الرغم منها ، ثم أردفت : « انما أردت مجرد الاستفهام »

فقال : « لقد كنت الآن فى حمامك فقطعته عليك ، أفلا يمكن أن تستأنفيه من حيث انقطع ؟.. »

فقالت : « ولكن هذا لا يمكن .. أعنى لا يليق يا آدم .

ربما كان هذا مألوفا فى الجنة . ولعلنا لو كنا فى عصر قبل عصرنا هذا ببضعة قرون .. ولكن فى هذه الايام التى ليس فيها جنات .. كلا يا آدم » . فسألها : « ولكن لماذا تحرمين نفسك ما تحبين ؟ » .. قالت : « قد يرانى أحد » . قال : « لا أحد هنا يراك » . قالت بابتسام : « ألم تفاجئنى أنت فى الحمام ؟ »

فلم يستطع أن يرد عليها وينقض حجتها وأطرق شيئا ، ثم تناول شعره وشده وصاح : « وجدتها .. استأنفى حمامك .. وأقعد أنا وراء هذه الصخرة .. أحرسك .. وأنبهك .. عند الحاجة .. اذا طرأ طارىء »

ولم ينتظر أن توافق بل نهض ووثب فوق الصخرة واختفى عنها . وصاح بها من ورائها : « ما قولك ؟ » .. قالت : « حسن . واذا رأيت أو سمعت أحدا مقبلا فنبهنى واسمع .. حاذر أن تنظر »

قال : « مستحيل » بلهجة من يعتقد أن هذا غير معقول ثم أردف : « لقد رأيت ما فيه الكفاية »

واستلقت مطمئنة وراحت تفكر فى آدم القديم وآدم الحديث،وتسأل نفسها : «أتراه سينظر من بين الصخور ؟» وتهز كتفيها وتنظر الى ثدييها وتحدث نفسها أن لا بأس .. ولا خوف .. ثم انه ظريف ، ومهذب ، فلينظر .. ألم ير ما فيه الكفاية كما قال ؟

وكان آدم ـ على الجانب الآخر من الصخور ـ قد خلع الجاكتة واتخذ منها وسادة لرأسه واستلقى على الرمل وذهب يفكر فى هذا الجمال البارع الذى كتب له فى يومه أن يراه ، ويسأل نفسه : « أتراها تريد منه أن يبقى حيث هو .. أم هى يا ترى تنتظر منه أن يكون جريئا وأن يحور الى طباع أجداده .. ماذا كان جده الأعلى خليقا أن يصنع

فى مثل هذه الحالة ؟ أكان يطيع المرأة التى لعلها تعنى خلاف ما تقول أم كان يطيع غرائزه ورغباته ..؟ »

وانه ليفكر فى هذا وما اليه ، واذا بصرخة عاليـــة .. فوثب الى قدميه ونط فوق الصخرة وانحط عند جليلة وسألها : « ماذا جرى ؟ »

ولم يحتج منها الى جواب فقد كان حسبه جوابا ذلك الفزع الذى ارتسم على وجهها ، فدار بعينه ينظر فما كان يسعها أن تقول شيئا من فرط الجزع ، فأبصر أفعى على نحو مترين منها .. فانقض عليها وتناولها من ذيلها وطوح بها فرماها بعيدا ، ثم تناول يد الفتاة فأنهضها وهى لا تزال نصف عارية ، ولكنها صاحت به : « لا تلمسنى .. أوه لقد لمست يدى .. ماذا أصنع الآن ؟ »

وانتزعت يدها منه ، ولكنها أبقتها بعيدة عنها كأنهـــا ملوثة ، فقال : « ماذا جرى ؟ هل يدك ..؟ »

وهبط قلبه فى صدره ، وابترد الدم فى عروقه وجمد ، وجعل ينظر اليها وهو مفتوح الفم من الخوف الذى ساوره ، فقالت : « لا تلمسنى .. أقول لك لا تلمسنى .. انى أمقت الأفاعى »

فأدرك مرادها ، واطمأن قلبه وتشهد ، وهز رأســه مرتاحا ، ووسعه أن يبتسم وقال : « آه .. هذا .. لا بأس .. سأذهب وألبس جاكتتى وأعود اليك » . فصرخت : « كلا . لا تتركنى وحدى » قال : « اذن تعالى معى .. نلبس جماعة »

وهم أن يتناول يدها ليعينها على الصعود فوق الصخرة ، ولكنها تراجعت عنه فقال : « لا بأس .. أرانى صرت مثل المنبوذين الهنود الذين لا يلمسهم أحد .. »

فرقت له ولكنها قالت وهى تخطو الى جانبه : « أظنك وضعت هذا الثعبان بيدك الى جانبى عامدا » . فقال : « كيف يمكن ؟ .. لقد كنت راقدا فى الناحية الاخرى »

فقالت : « وأظنك كنت ستنام » فقال معترفا : « أى والله كاد النعاس يغلبنى »

قالت : « هذا ألعن » . قال : « ولكنك أمرتنى أن أبقى هناك ولا أجىء » . قالت : « وتتركنى مع الثعبان ؟ » . قال : « لا تكونى متعنتة » . قالت : « لن أجىء الى هنا بعد اليوم »

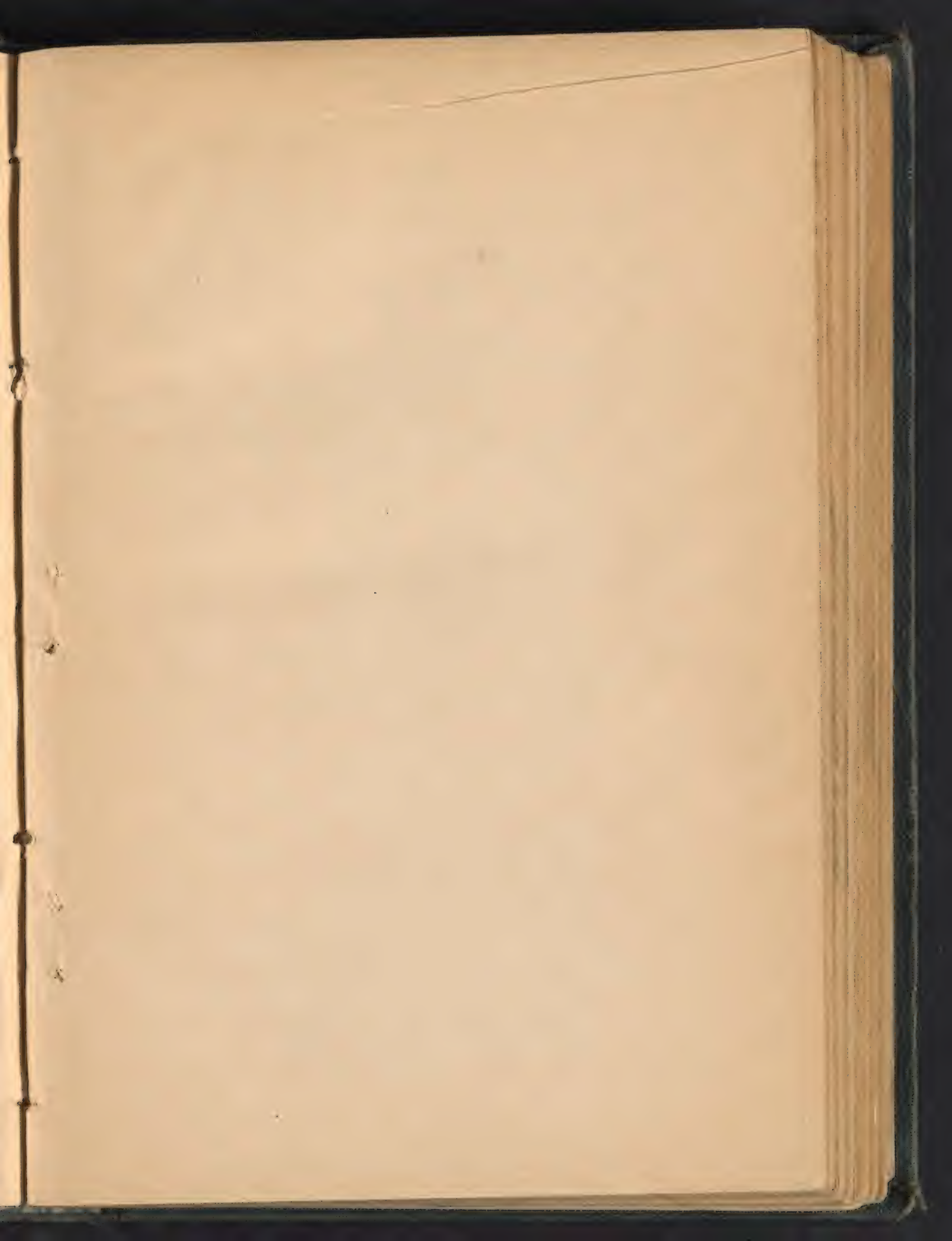
فقال بضحك : « انتهى فصل الحمامات الشمسية » قالت : « بل انتهى شهر العسل »

فالتفت اليها وصاح بها : « ايه ؟ . شهر الـ . . . الـ . . »

قالت : « نعم شهر العسل . . ألا تعرف ما هو . . أنا وزوجى هنا فى الفندق وسنعود الى القاهرة غدا . . واسمع . . ان زوجى غيور جدا . . أسرع ما يكون انسان الى اساءة الظن . . فاحذر . . أبق حكاية حواء والحية بينى وبينك »

قال : « تعنين بينى وبين نفسى » قالت بابتسام : « لا . . سنلتقى يوما . . » . قال : « متى ؟ . . طمئنينى » قالت : « متى أيقنت أن يدك لم يبق بها أثر من الحية . . »





العقلة

لم يكن « عبده » يشكو قبل هذا أن فى لسانه عقلة ، وأن الكلام يتردد فى فمه ولا يكاد يخرج منـــه .. ولكنه أحب بنت خاله ، فماذا يقول لها أو لأمها أو لخاله ؟ وكيف تحتمل علته هــذه فتاة عصرية تحب أن تبــاهى النساء بزوجها ؟ والمصيبة أن شعوره بهذه الحبسة يزيد لسانه امتساكا كلما جالسها . فكان اذا هم بكلامها لا يزيد على أن يخرج صوتا كهذا « ا ا ا ا ا ا .. » أو « م م م م » أو « ف ف ف » وأين الفتاة التى لا يحيله هذا مضحكا فى نظرها ؟ وأخيرا أشاروا عليه بأن يستشير طبيبا ، قالوا له انه بارع فى علاج هذه الحالات .. فقصد اليه ، فلما جاء دوره وقف أمامه يقول أو يحاول أن يقول : «ا ا ا ا ا .. شنـ سشـشـسـسـسـشـ للللل .. » فقــال الطبيب : « ظاهر ، ظاهر .. أن هذه الحالات العصبية معروفة » فأراد عبده أن يقول انه ليس مصابا بمرض عصبى ، فقال : « ا ا ا ا أريد اااان ا اتتتتززززززوج وووو » فسأله الطبيب : « ماذا تقول ؟ » فحــاول أن يبين ، ولــكن الحبسة حالت دون الافصاح .. ففرك الطبيب جبينه ، ثم قال : « غن اذا استعصى عليك الكلام » فدهش عبده ولم يصدق أن الطبيب يطلب منه الغناء ، وبدا عليه أنه يريد أن يستوثق ، فقال الطبيب : « بالطبع غن . غن بما تريد .. أنها طريقة حسنة للتغلب على العلة ، وان كان اسعافها وقتيا »

فملأ عبده صدره بالهواء ورفع عقيرته بأنكر ما سمع الطبيب فى حياته ، حتى لقد لام نفسه على حماقته فيما أشار به . وبعد أن اضطرب لسان عبده قليلا ، انطلق

يقول بصوت شبيه بشهقة المصاب بالسعال الديكى أنه يريد أن يتزوج .. ولكن هذه الحبسة تقضى على أمله . وكان كلما أخرج صوتا أحس الطبيب أن حجرا دفع فى صدره ، فما ندم فى حياته على نصيحة كما ندم فى يومه هذا ، فقد حمس عنده وظن نفسه فى موقف مناجاة ، فمضى يغنى : « طول الليالى وناطيفك على بالى ، ياللى غرامك ملك قلبى وشغل بالى ، يا خوفى من طول بعادك واللى خبالى »

فأسرع الطبيب يقول مقاطعا : « تمام .. لم تكن بك فى الحقيقة حاجة الى اتعاب نفسك بهذا الغناء البديع . الآن اسمع ، ان حالتك عصبية وأنت على ما يظهر شديد الحياء » فلم يرق عبده هذا التشخيص ، وحاول أن يعترض ، فحالت الحبسة دون ذلك .. فتذكر أن الغناء أسعفه كما لم يسعفه شىء فيما يذكر ، فصاح يقول : « لا ، لا ، لا ، ليس بى حياء بل أنا قليل الحـ .. »

وقاطعه الطبيب بدوره اشفاقا على نفسه وعلى سمعة عيادته ، وعجل بأن يقول : « طبعا .. طبعا .. والآن اسمع ولا تضيع وقتى . يجب أن تفهم أن علاجك الوحيد أن تجترىء على الناس بالكلام .. تعرفهم أو لا تعرفهم .. سيان . والأفضل أن يكونوا ممن لا تعرف . ابدأ بالكلام كل من تلقاه اذا استطعت ، بأى كلام .. وحبذا لو كلمت نساء فاذا فعلت هذا كل يوم ، فأنت لا شك تشفى بعد حين »

فنفخ عبده صدره استعدادا للاستفسار بالغناء ، فريع الطبيب منه وسد أذنيه وخاف أن تطير لعيادته سمعة سيئة ، وصاح به : « لا لا لا .. ابق صوتك الحلو لمن تقابل لا تسرف يا صاحبى » وأسرع فأداره الى الباب وأحكم ايصاده وراءه وتشهد

وكانت عيادة الدكتور ـ ولعلها ما زالت ـ فى العباسية فلما خرج عبده اتجه الى آخر محطة للترام الأبيض الى

مصر الجديدة حيث بيت خاله ، وكان وهو يمشي شارد الذهن موزع النفس ، يفكر فيما أشار به الطبيب من ابتداء الناس بالكلام وان كان لا يعرفهم . وكيف بالله يبدأ غريبا لا يعرفه بمثل هذه الاصوات «مممن ففففضلك السـسـسـساعة كككككام » أن هذا مستحيل . وهذا الطبيب لا شك مجنون انه طبيب مجانين لا طبيب .. ماذا .. أي طبيب هو .. لقد أرشده اخوانه اليه وقالوا انه اخصائي في هـــذه الحالات ، غير أنهم لم يقولوا أي حالات فهل تراهم حسبوه.؟ ولكن هذا غير معقول وكان قد بلغ المحطة وراح يتمشى ريثما يجيء الترام ، وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، ولم تكن المصابيح التى رفعتها شركة النور سبعة أمتار فوق الرؤس الا كالنجوم التى لا تنير ، وانما تريك كيف تكون العتمة ، وكيف تغيب معـــارف الارض ، وكيف تستطيع أن تظن الرجل شجرة ومصباح النور فتاة هيفاء ، والظل على الارض ماء يحسن أن تتقى بلله وتلويثه للحذاء الجميل . وانه لكذلك ، واذا به يرى رجلا عجيب الثياب مقبلا يتمشى مثله ، فوقف مكانه مبهوتا . وكان الرجل لابسا جلبابا قد يصلح أن يكون كلة لسرير ، ولكنه لا يصلح ثيـــابا لآدمى مهما بلغ من الجسامة ، وكان الثوب لسعته يكنس الأرض ، وقد اضطر صاحبه أن يطوى أكثره تحت ابطه . وكان يحمل عمامته مقلوبة على كفه ، كما يحمل الخادم القصعة . وكانت مشيته بطيئة ، وعلى ثغره ابتسامة العاشق رأى فى منامه حبيبته تؤاتيـــه بعد طول الصـد والحرمان . وحدث عبده نفسه أن لا ضير من خطاب رجل كهذا ، ولكن غرابة أمره صدته . على أن الامر خرج من يده، فقد دنا منه الرجل وقال بابتسامته المتحجرة : « كله من فضل الله .. كلوا مما رزقناكم » ونظر عبده فى العمـامة المقلوبة ، فلم يجد شيئا فهم بأن يقول شيئا على سبيل الاعتراض على هذا المزاح ، ولكنه لم يستطع أن يجاوز

ابتداءاته المعهودة .. وقال له الرجل يشجعه : « لا تستحى ان الخير كثير . اطلب تعط . ألست مؤمنا مسلما .. هه ؟» فلم يفهم ما العلاقة بين الايمان وبين ما فيه هذا الرجل ، ولكنه شعر بأن الحزم يقضى عليه بأن يجيب فقال : « نننننعم مممم مسسسسسلم ووو ممم موحد بببالله » فأشرق وجه الرجل ، وحنى رأسه تواضعا وقال وهو يبتسم : « انتهينا اذن .. أنا ربك » فذعر عبده وتلفت ناحية الترام ، وألفى نفسه يقول وهو يتلفت : « أأأنا مممممؤمن ججججدا »

فقال الرجل : « لا عجب أن تتلعثم فى حضرة الهك ، فما كل يوم يظهر الله للناس . لا تقل لأحد أنك رأيتنى ، فانى أحب أن أظهر لمخلوقاتى فى السر » فحنى عبده رأسه مرات عديدة بسرعة لم يكن يدرى أنه قادر عليها أو أن رأسه يحتملها ، ومضى الرجل فى كلامه فقال : « أنت من أحسن من خلقت . وانى لأذكر أنى أردت أن أخلق من طينتك بغلا ، ولكن شيئا ألهمنى أن أجعل منك انسانا .. وقد ندمت على ذلك ولكننى أرى الآن أنى لم أخطىء ، فاطلب ما تشاء . هل تريد مالا ؟ أو تريد غير المال ؟ سلنى فليس فى بخل .. عندى من الحب كل صف يورث الجنون ويضرم النار هنا — ودفع كوعه فى بطنه — حتى لتحرق الصدرية وتزغرد من فوقها . وعندى من الحب ما يجعل منك شاعرا ، وثالث تصير به خطيبا ، ورابع يغريك بالخيالات ويحبب اليك احتضان أعمدة السرير ، فأيها تريد ؟.. تعال هنا .. بعيدا عن الناس .. فى هذا الكشك ولنغلقه علينا ، فانى أرى الترام آتيا وأخشى أن يرانا أحد فلا تظفر بنصيبك العادل من وجودى »

وأمسكه من ذراعه وجعل يدفعه أو يقوده ، فقد كان عبده بادى الزهد فى هذه الخلوة .. ولما بلغا الباب كان الترام قد وصل فاندفع الرجل داخلا ، واندفع عبده

راجعا ، ووثب الى الترام فدخل فى الدرجة الاولى وانحط على كرسى وهو ينهج ويمسح العرق المتصبب . وكانت امامه سيدة تنظر اليه ، وهو غير شاعر بها . وكان يتنهد ويتشهد ويثب من حين الى آخر ، لينظر من النافذة مخافة أن يكون ذلك المجنون قد لحق به . وكان الترام قد قطع شوطا كبيرا ، فهدأت نفسه شيئا فشيئا وأبصر السيدة .. وكان الترام لم يقف بعد أن ركبه فلا شك أنها كانت من أول الامر هنا معه . وتذكر أنه دخل كالمدفع وانحط على المقعد كالحجر وأنه لا شك قد بدر منه ما يريب ، فأراد أن يفسر ما لعلها استغربته من سلوكه .. غير أن دخول الكمسارى قطع عليه عزمه ، وكان الكمسارى ثرثارا فجعل يقول وهو يتناول القرش ويقدم التذكرة : « مجنون هرب من المستشفى .. وجدوه فى محطة العباسية . فى آخر محطة وقفنا فيها ، لكنه اختفى بسرعة غريبة . من يعرف يمكن يكون ركب الترام .. لكن هذا مستحيل .. ومع ذلك أين اختفى ؟. ليس فى المحطة مكان يختبىء فيه .. لا بد أن يكون ركب الترام »

وكان عبده حين سمع ذلك قد ذعر وفتح فمه كالابله .. وكانت السيدة تنظر اليه وتسمع حديث الكمسارى ثم تنظر الى عبده ، وترى آيات الفزع فى وجهه . وخرج الكمسارى الى حيث الركاب الآخرون وأحس عبده أن عليه أن يقول شيئا ، ولو على سبيل التفكهة والتسلية وليخفف عن هذه السيدة التى لا شك أنها ريعت من حديث الكمسارى ، ولا سيما أنه ــ أى عبده ــ الوحيد الذى يعرف أين اختبأ المجنون ــ وهذا العلم وحده يغرى بالكلام . ولكن لسانه خانه على عادته فقال ــ على حين لم تكن السيدة تنتظر كلاما : « أأأأنا ششفففته »

وأمسك ، فما فى مثل هذا فائدة ، وتذكر أن الطبيب

قال له : « غن » فرفع صوته يقول مغنيا : « المجنون يا ستى الذى سمعت عنه مختبىء فى الكشك هناك »

ولم تتح له فرصة لاتمام ما بدأ .. فقد وقفت السيدة وانطلقت تصرخ بأعلى صوتهـا وتصيح : « أدركونى .. أدركونى .. الحقوا .. »

وكان الترام قد بلغ محطة وقف عندها ، فلم يسع عبده الا أن ينزل مسرعا .. فما بقى له مقام فى هـذا الترام والا قبضوا عليه على أنه المجنون الهارب ، وانطلق يعدو ..

وأخيرا بلغ البيت وقابل ـ أول من قابل ـ بنت خاله ، فأدهشه وأدهشها أن الحبسة زالت عنه



فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان :	شركة فرج الله للمطبوعات — مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ — ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ — أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)
العراق :	السيد محمود حلمى — صاحب المكتبة العصرية — ببغداد
اللاذقية :	السيد نخلة سكاف
مكة المكرمة :	السيد هاشم بن على نحاس — ص.ب ٩٧
البحرين والخليج الفارسى :	السيد مؤيد احمد المؤيد — مكتبة المؤيد — البحرين
برقة :	السيد محمد على بو قعيقيص — بنغازى — ص . ب ١٠٤
البرازيل :	Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30. Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.
ساحل الذهب :	The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجريا :	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
انجلترا :	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

تعنى سلسلة كتاب الهلال – فيما تعنىٰ – بآثار كبار العلماء والأدباء ، فتختار بين حين وآخر مؤلفا من مؤلفاتهم . احياء لعلمهم وأدبهم وخدمة للنهضة الثقافية فى الشرق . وهاهى ذى تقدم لقرائها مؤلفا نفيسا من مؤلفات فقيد الأدب ابراهيم عبد القادر المازنى . وهو مجموعة من قصص الحياة والمجتمع

وقد أودع فيها طائفة من تجارب الحياة وعبرها ودروسها ، استمدها من الواقع لا من الخيال ، وصاغها فى قالب أدبى بليغ

ولا ريب أن المرحوم المازنى قد وجد فى فن القصة خير وسيلة له فى ايصال آرائه وأفكاره وتجاربه للقراء . ولهذا عنى فى الشطر الأخير من حياته بهذا النوع من الأدب . وقد برهن فى كتابته للقصة على أنه من نوابغ القصصيين . فأنت تقرأ فيها فنين ممتعين . فن الحياة كما هو فى عبره ودروسه وفلسفته ، وفن القصة كما برع فيه المازنى بأسلوبه الشائق وتصويره المبدع الرائع





